

القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • يناير - فبراير 2009

العدد 1
المجلد 58

ملف العدد

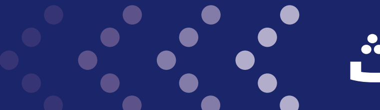
الظل

الاحتباس الحراري

التصوير في عصره الرقمي

يا مهندس الطيران.. هل أنا في أمان؟

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف



Reuters

الطائرة الأمريكية التي هبطت اضطرارياً على نهر الهدسون، وكانت مناسبة لتفتح القافلة موضوع الأمان في الرحلات الجوية.

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد عبدالله البريك

رئيس التحرير
صالح محمد السبتي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

سكرتير التحرير
عبود عطية

سكرتير تحرير مساعد
د. فكتور سحاب

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
فاطمة الجفري

مكتب بيروت
رولان قطان

مكتب القاهرة
ليلى أمل

أمريكا الشمالية
أشرف إحسان فقيه

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

الصور الفوتوغرافية
أنور الخليفة

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

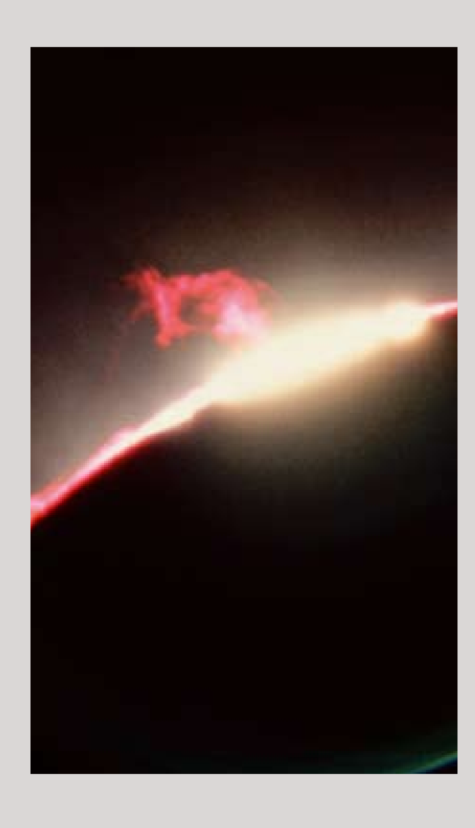
محطات العدد

يناير - فبراير 2009
محرم - صفر 1430

توزع مجاناً للمشتركين
العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

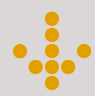
الهواتف: فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر



1 قضايا

تنطلق القافلة في رحلتها لهذا العدد من وجه مختلف لإحدى أكبر القضايا التي تشغل العالم في وقتنا الحاضر: الاحتباس الحراري. ويتمثل هذا الاختلاف في عدم توقف القافلة أمام استعراض التحذيرات التي نطالعها يومياً في مختلف وسائل الإعلام حول دور البشر في تغيير المناخ، بل في تناول تناقض النظريات حول أسباب احترار الأرض، وارتفاع الأصوات العلمية التي تبرئ الإنسان من هذه المسألة، وترى أن ما يحصل يعود إلى عوامل طبيعية وتغيرات دورية في المناخ.

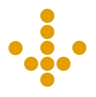


أما باب «قول في مقال» فيتضمن نظرة إلى واقع اللغة العربية والتحديات التي تواجهها في عصرنا الحالي، من زاوية قلَّما تطرَّق إليها الباحثون في هذا الشأن.

2 طاقة واقتصاد

ويبحث مناخ الاقتصاد في قضية قلَّما يفيها الوافدون الجدد إلى مجال الأعمال وتأسيس الشركات، حق قدرها من الاهتمام. ألا وهو الدور الذي يلعبه اسم الشركة في نجاحها أو فشلها. حتى أن اختيار الاسم صار صناعة وفناً، يقوم به اختصاصيون بالتعاون مع صاحب الشركة. ولعل أبرز ما يكشف عنه البحث المنشور هنا، هو بعض القواعد الكثيرة التي تقيِّد عمل هؤلاء، في اتباع ما يمكن القبول به وصولاً إلى ما يشكل خطراً على مستقبل المؤسسة الباحثة عن اسم.







3 علوم وتقنية

ويتمحور كلا الموضوعين المنشورين في باب العلوم حول الأمن. أولهما يتناول الأمان على متن الطائرات، وهو السؤال الذي لا بد أن يرد في ذهن كل من يستقل طائرة، مهما كان قد اعتاد على السفر جواً. ويدهشنا هذا المقال بعرضه لتدابير الأمان على متن الطائرات التي جعلت السفر جواً آمناً من السفر بالسيارة بنحو 20 مرة. أما الموضوع الثاني فهو أمن معلوماتنا الشخصية التي ننشرها، وأحياناً باستهتار، عبر المواقع الاجتماعية على شبكة الإنترنت. إذ ان الحقائق التي يكشفها المقال هنا تفنِّد ثقتنا بـ«احترام الخصوصية»، وتؤكد أن كل ما ننشره على هذه المواقع يصبح عملياً متاحاً للعالم بأسره.

الفاصل المصور



ويستضيف الفاصل المصور في هذا العدد عيِّنة محدودة العدد من أعمال فاطمة آل صويمل، التي تهوى التصوير الفني. وتُظهر هذه العيِّنة نضوجاً فنياً وإحساساً راقياً بتناغم الخط واللون، سواء أكانت اللقطة هندسية داخلية أم من الطبيعة حيث التركيب الهندسي هو ما يستوقف آل صويمل أولاً.



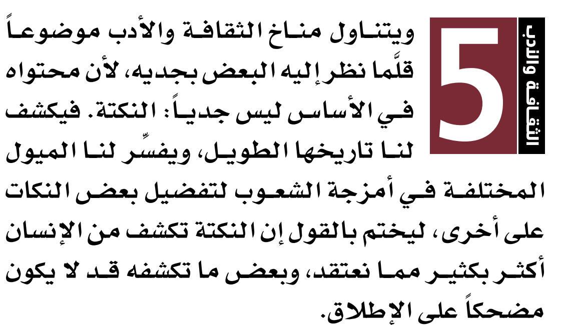


4 الحياة اليومية

ولا يبتعد مناخ اليومية كثيراً عن الفاصل المصور، طالما أنه يتناول موضوع آلة التصوير في حياتنا، بعد انتشار آلات التصوير (من خلال الهواتف المحمولة بشكل خاص) بحيث صار كل واحد منا مصوراً. وبعدما يستعرض المقال استغناء التصوير الرقمي عن الفلم التقليدي، يتطرق إلى تأثر علاقتنا بالصورة ككل نتيجة لهذا التطور.. ويكشف أن هذا التأثر ليس كله إيجابي الجوانب.

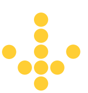
5 الثقافة والأدب

ويتناول مناخ الثقافة والأدب موضوعاً قلّما نظر إليه البعض بجديه، لأن محتواه في الأساس ليس جدياً: النكتة. فيكشف لنا تاريخها الطويل، ويفسِّر لنا الميول المختلفة في أمزجة الشعوب لتفضيل بعض النكات على أخرى، ليختم بالقول إن النكتة تكشف من الإنسان أكثر بكثير مما نعتقد، وبعض ما تكشفه قد لا يكون مضحكاً على الإطلاق.





بعد ذلك، وفي المناخ نفسه، يكون القارئ على موعد مع الباب الأدبي ورواية «العمامة والقبعة» وهي آخر أعمال الروائي المصري المعروف صنع الله إبراهيم، وفيها إسقاط لقضية الحوار بين الشعوب على قصة نسجت من الأحداث التي وقعت في مصر خلال الحملة الفرنسية عليها.



6 ملف العدد

أما ختامها فمع مالئ الدنيا الذي لا يشغل أحداً: الظل.. رفيقنا الدائم حيثما كان هناك ضوء.. ألا يستحق أن نتطلع إليه بنظرة مدققة أكثر من اللامبالاة التي يلقاها عادة منّا؟



الرحلة معاً

ست سنوات من السباق مع الذات

تطل عليكم قافلتكم في هذا العدد، السادس والثلاثين، بعد أن قطعت شوطاً عمره ست سنوات في مسارها الجديد، رسمت خلاله لوحة فنية من خمسة وثلاثين فصلاً هي أعداد القافلة خلال تلك الفترة.

وأجد من المناسب أن أفشي للقارئ الكريم شيئاً من أسرار المهنة، وأسباب تواصل المنافسة والتألق بين أعداد القافلة وفصولها الشاعرية منها والفنية أو تلك المحطات الموضوعية المهمة التي يحرص فيها فريق التحرير بكامل هرمه أن يقدِّم للقارئ مادة تحتضن الاحتراف وتلبس ثوب الفَن.

فمع إصدار كل عدد من أعداد القافلة تصلنا الملاحظات من قرائنا، كما تصلنا الإطراءات، وإذا كانت الملاحظات تحمِّلنا أمام أصحابها مسؤولية إصلاح ما يجب إصلاحه، فإن الإطراءات تضعنا أمام أنفسنا، لكيلا نرضى بأقل مما وصلنا إليه، بل إن القلق الدائم وهاجس الإبداع والتألق يخامرنا في كل خطوة من خطوات عملنا، فالاكتفاء بما وصلنا إليه والوقوف عنده يعني التراجع بالنسبة لنا .. وهذا ما يضعنا أمام مسؤولية جسيمة .. أمانة تحقيق أمل القارئ فينا، في أن نكون دائماً عند حسن إدهاشه ومفاجأته بما يتجاوز توقعاته.

هذا الهاجس هو الدافع الدائم لنا لنكون في سباق مع أنفسنا .. ولنكون عند حسن ظن القارئ الذي وضع أمانته في أقلامنا ومخيلتنا، وقبل كل شيء في أعناقنا.

وإذا كانت القافلة تقف هذا الموقف مع كل عدد، وتحاسب نفسها بحثاً عن أقصى غايات الرضى عند



قرّائها، فإنها تقف أمام ثلاث محطات مختلفة في هذا العدد:

أولاها أنها تختم وراءها خمسة وثلاثين عدداً من مرحلة تطويرها التي بدأت قبل ست سنوات، تميزت بالسعي الدؤوب إلى إرضاء ذائقة القارئ الثقافية وحسه الفني، ومحاورته بالأسئلة التي تشغل وجدانه، الأمر الذي يرخي بظله على متابعة المسيرة المحملة بأمانة الماضي المبدع والمستقبل الذي يحتّم علينا أن يكون أكثر إشراقاً وإبداعاً.

وثانيها توديع الأستاذ عبدالله بن صالح بن جمعة، رئيس الشركة وكبير إدارييها التنفيذيين، الذي تقاعد من العمل في الشركة ليطوي وراءه سجلاً من النجاحات، ويفتح أفقاً من الأمل والمستقبل المشرق والمتألق للآتين بعده.

وعبدالله جمعة أحد آباء المجلة الروحيين والشجرة التي كانت تفيء إلى ظلها وتستأنس برأيها، وقد كان للقافلة وقفتا عرفان معه في افتتاحية العدد الماضي، وفي احتفال ثقافي أقامته خصيصاً للاحتفاء به على طريقتها، حيث أثار المشهد الثقافي الاحتفائي شجونه وأعاده إلى طاقة الكلمة وموسيقى الحرف لينسى أو يتناسى طاقة النفط، وينطلق في شدوه بقصائد لشعراء عرب قدماء ومحدثين، وسط دهشة الحضور بجاذبية إلقائه وحافظته الثرية ..

وكان الحضور الذي استبشر باستعادة ميدان الحرف أحد فرسانه بعد مشاغلته عنه بشؤون الطاقة حقبة من الزمن، يضم عدداً كبيراً من الإعلاميين والأدباء والمثقفين والشعراء وعدداً من رؤساء تحرير القافلة السابقين، ومن بينهم الأستاذ محمد العصيمي الذي وصف عبدالله جمعة في كلمته بأنه يمثل قصة سعودية طويلة وجميلة، كما تحدث عن مسيرته الطويلة في أبوة المجلة ورعايتها وتوجيهها.

كما ودعت المجلة رئيس تحريرها السابق محمد العصيمي الذي غادرنا في مهمة عمل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن واكب المجلة منذ ولادتها في ثوبها الجديد، ولم يكن العصيمي رئيس تحرير فحسب، بل كان الدينامو الذي يحرّك كل مفصل من مفاصلها وكل خلية نابضة فيها.

وما زلت أتذكر اجتماعاتنا لبناء الأعداد الأولى من المجلة والتي حددت مسيرتها ونهجها وسلم نهوضها الذي هي عليه، حيث كانت تتعالى الأصوات وتحتدم النقاشات، وتستمر أحياناً حتى تنطلق ألسنة الضوء معلنة بزوغ الفجر، وكل ذلك رغبة في الارتقاء بكل صفحة وكلمة ونبضة من نبضات القافلة.

أما المحطة الثالثة، فهي العمل على إنشاء موقع «القافلة» على شبكة الإنترنت، حيث تكاثرت طلبات التواصل من قبل القرّاء مع المجلة، وإلى جانبها طلبات أخرى منها الاشتراك، ومن أهمها الحصول على الأعداد القديمة من المجلة التي يصل عمرها إلى 56 عاماً، فكانت فكرة تدشين موقع القافلة على الشبكة، أفضل وسيلة للتواصل مع هؤلاء القرّاء الأعزاء، وتلبية طلباتهم .. وما يزال الفريق الفني يعمل على استكمال الموقع لتدشينه عما قريب.

وكل ما ترجوه القافلة هو أن تكون عند حسن ظن قرائها، وقصارى جهدها في سبيل تحقيق ذلك.

مدير التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

دهشة من اليمن

كنت قبل أسابيع قد قدَّمت ورقة لإدارة مجلتنا «مساء» هي تعبير عن رؤيتي لتطوير المجلة، الملحق الترفيهي لمجلة (الأسرة) الصادرة عن مؤسسة الوقف الإسلامي.
وفي تلك الورقة عنونت أحد الأبواب الكبيرة (حوالي 10 صفحات) باسم (القافلة).
لم أكن أعرف عن مجلتكم الموقرة أي شيء للأسف حتى ذلك الوقت.
واليوم رحت أبحث في الشبكة العالمية عن أي عنوان يهديني إلى هذه المجلة من باب الفضول، فأنا أريد أن أعرف محتواها وكيف تبدو. فهالني ما رأيت!!!!
لن أشكركم، فشكري لن يزيدكم إبداعاً وأنتم صانعوه، ولن أمدحكم، فلن يكون شحنة جديدة لقلم أنتم أصحابه ورفاقه.
حقيقة، أنا ما أزال تحت الصدمة من عجبي بوجود مجلة كمجلتكم لم تصل بعد إلى اليمن بأية وسيلة.
إن كان من رجاء لي في هذه الرسالة فهو أن تصل هذه المجلة إلى اليمن، ولو بيعت في الأسواق، المهم أن تصل.
وإن كان لي من طلب منكم فهو طرح مجلدات المجلة في السوق على أسطوانات إلكترونية حتى نستفيد من تراثها وما تزخر به وتحمله.
وإن كانت هناك إمكانية لتسجيل اشتراك لي فأرجو ألا تبخلوا علي به.

د. أنس محمد الشومي
محرر مجلة «مساء» صنعاء

القافلة: شكراً على عاطفتكم، وستصلكم أعداد المجلة بإذن الله.

الاحتراف والموضوعية

أتابع بشغف قراءة أي عدد يقع بين يدي من الأصدقاء الذين أزيد تودّدي إليهم لاقتناء أعدادهم من مجلتكم الثرية القافلة.
وأكثر ما يشد انتباهي في مجلتكم الموقَّرة هي التقارير العلمية المفصلة التي تستعرض بشمولية موسوعية مادة البحث المدعمة بالصور والبيانات والإحصاءات.
وغالباً ما أنتهي من قراءة البحث بصدر مثلج، لا سيما وأن طريقة الاستعراض تجمع ما بين الاحترافية العالية والموضوعية التي نجدها في المجلات العلمية الغربية والأصالة الشرقية والإسلامية. ولا تكتمل طريقة العرض بالنسبة إلى القارئ العربي إلا بعد تبهيرها بالبهار الشرقي الإسلامي الذي ينقل المادة من مادة علمية صلفة إلى مادة حية يستطيع الارتباط معها.
إنني منذ سنيّ دراستي وأنا أنظر إلى مقتني القافلة بعين الغبطة باحثاً عن طريقة للحصول عليها، إلى أن اهتديت إلى عنوانكم لطلب الاشتراك فيها شاكراً ومقدراً ومعجباً. فإن لم يتسنَّ لي المشاركة في صنع القافلة إما قصوراً أو تقصيراً، فأقله أكون من مرتاديها الدائمين.
شكراً جزيلاً على ما تقدمونه للمكتبة العربية، وأرجو التفضل بإرسال الأعداد المقبلة إليَّ.

المختار موسى بوخمسين
معهد التدريب بالدمام

بعد انقطاع سنوات عشر!

كنت مراسلاً لمجلتكم العامرة من أوتاوا العاصمة الكندية قبل حوالي سنوات عشر، وكنت حينئذ موظفاً بالشؤون الإدارية في الملحقية التعليمية السعودية.
ولكنني لسوء الحظ لم أرَ القافلة منذ انتهاء عملي بملحقية كندا عام تسعة وتسعين وانتقالي إلى قنصلية هيوستن/تكساس في أمريكا ثم العودة إلى التدريس في كندا لأعرف قبل حوالي شهرين أن عدد القافلة الخاص بي ما زال يأتي على عنوان الملحقية، فطالبتهم بإرسال أي أعداد لأنني حقيقة كنت مشتاقاً لرؤية المجلة. يا سبحان الله.. انقطاع دام عشراً من السنوات. وهاهو العدد بين يدي. ولن أنقطع عنكم بإذن الله.

د. كمال طيب الأسماء
كندا

العدد الخاص

سعدت بالاطلاع على عدد القافلة (يوليو/أغسطس) الذي كان خاصاً بمناسبة مرور «75» عاماً على قيام «أرامكو».
وأرامكو السعودية أحد، إن لم تكن أهم، مفاصل طاقات الوطن، وقد عدت إلى زمن جميل عندما كانت «قافلة الزيت» هي إحدى المجلات النادرة القليلة التي تصل إليَّ وأنا طالب في المرحلة الثانوية بمدينتي الوادعة عنيزة بمنطقة القصيم.
استمتعت بقراءة عدد من الموضوعات التي كتبها الغربيون الذين عملوا بأرامكو في السنين الماضية ثم غادروا إلى ديارهم، وبما كتبه وسجله بعض الكتَّاب، وما قدمه محررو المجلة من معلومات جميلة عن ماضي أرامكو وأجيالها وموقعها في الأعمال الأدبية السعودية.
لكم تحياتي ولكافة زملائكم أسرة المجلة

حمد بن عبدالله القاضي
عضو مجلس الشورى

أعداد مفقودة؟

تُعد مجلة القافلة الغرَّاء من أكثر المجلات التي أحرص منذ سنوات طوال على متابعتها والاحتفاظ بأعدادها في مكتبتي. وقد كان للمادة العلمية تحديداً التي نشرت عبر صفحاتها خلال السنوات الماضية أكبر الأثر علي، حيث جعلتني أميل وبشكل عجيب إلى الاطلاع على كل جديد في دنيا العلم، ومن ثم أصبحت كاتباً ومحرراً علمياً في عدد من الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية.

لقد كان لي الشرف منذ سنوات أن أكتب في مجلتكم الغرَّاء، التي هي مجلة كل عربي وهي قبس ثقافي من شركة أرامكو السعودية التي أسهمت في الكثير من المشاريع الريادية في العالم العربي.

لقد تقدَّمت قبل سنوات ثلاث بطلب اشتراك في مجلتكم القيِّمة وقد وصلتني منذ ذلك الحين أعداد المجلة بعد صدورها، لكن وفي منتصف هذه السنة توقفت المجلة عن الوصول لي وكان آخر عدد وصلني هو العدد الثالث، مايو/يونيو 2008م.

لذلك أرجو منكم التكرم وإعادة إرسال مجلة القافلة لي على عنواني المبيَّن أدناه، كما أرجو إرسال العدد الرابع والخامس والعدد الخاص لهذا العام 2008م.

ولا أطيل عليكم لكن لي طلب آخر، وهو أنني وكما ذكرت لكم قد كتبت في مجلتكم في عام 1998م أو في مطلع عام 1999م، مقالاً بعنوان «الفورينات اكتشاف مثير وطموحات كبيرة»، لكن مع الأسف لم يصلنِ العدد، ومن عادتي الاحتفاظ بالمجلات والصحف التي أكتب فيها، لذلك فإنني آمل إذا كان يوجد نسخة من العدد في الأرشيف الخاص بكم أن أحصل عليه أو على الأقل صورة، هذا علماً بأن هذا العدد لم تتم أرشفته على الموقع الإلكتروني الخاص بمجلتكم.

المهندس أمجد قاسم

عمَّان، الأردن

القافلة: لم يحصل أي إلغاء لاشتراكك في المجلة، والمشكلة هي حتماً في البريد أو عنوان التسليم. أما الأعداد الناقصة، فسيمكنك الاطلاع عليها على موقع القافلة الإلكتروني www.qafilah.com، بما فيها الأعداد القديمة، قريباً جداً، إن شاء الله.

هدية متابع دؤوب

في خزانة مكتبتي أكثر من مئتي عدد من القافلة، مذ كان اسمها قافلة الزيت. وفي يدي أحد هذه الأعداد مؤرَّخ بتاريخ رمضان 1392هـ (أكتوبر/نوفمبر 1972م).

ولكم طبعاً فائق الشكر لمواصلتكم إرسال هذه المجلة منذئذ. وكم فكَّرت بإهداء هذه المجموعة إلى مؤسسة ثقافية أو ناد أدبي، وهو ما سيحصل آخر المطاف حين أجِد من يستحقها.

فهمتُ من تكرار مطالعتي لأعداد المجلة، خصوصاً في عهدها الجديد، أنكم ترحِّبون بالموضوعات التي تفيد القرَّاء، لا بل تفيد المثقفين والثقافة إجمالاً.

وحيث إن الترجمة غدَت إحدى وسائل التثقيف والمثاقفة، ارتأيت أن أخصّكم بالكتيب المرفق. وهو إحدى محاضراتي في مؤتمرات مجامع اللغة العربية. ويقيني أن أي مثقف (حتى من غير المترجمين المحترفين) سيفيد بشكل ما من محتوى هذا الكتيب.

وبهذا، أكون قد أدَّيت لكم بعضاً مما سبق فضلكم عليَّ، عبر ما يزيد على ثلاثة عقود من تكرمكم بإرسال القافلة بمختلف أسمائها ومضامينها، والله الموفق.

مع أطيب تمنياتي للقافلة ومحرريها وناشريها.

أحمد شفيق الخطيب

بيروت

القافلة: نشكرك على اهتمامك بالقافلة وعلى الهدية التي صارت بين أيدي فريق التحرير، وستكون ذات فائدة له من دون شك.

المشتركون الجدد

عبدالرحمن عبدالله الفيصل، الرياض - محمد أحمد عبدالله الخثعمي، الدمام - علي محمد العليوي أبو حيدر، الأحساء - إبراهيم مسفر صالح، الباحة - عباس عيسى المبارك، الأحساء - عبدالله خلوفة صالح، أبها - عبدالمحسن محمد آل مرزوق، القطيف - جاسم صالح السمحان، الأحساء - جاسم علي الجاسم، الأحساء - عبدالوهاب طاهر البن شيخ، الأحساء - عبدالصمد محمد جان، المدينة المنورة - أيمن ابن عبدالحميد الجيعان، الجبيل الصناعية - زكي العريفي، الأحساء - سلمان شمس الحق، مكة المكرمة - ياسر محمد الشيخ، القديح - وليد حسن محيي الدين، المدينة المنورة - محمد جمال سباق، القاهرة - فؤاد علي التريكي، الجبيل - محمد بن عبدالعزيز المسعد، الرياض - سليمان بن عبدالله الرشيد، الرياض - ثامر الشمري، الهيئة الملكية في الجبيل - شهيد الخليفة، الأحساء - سامي محمد الرمضان، الأحساء - سماح عبدالله فواز، القاهرة - صالح بن علي الشايب، القارة - صالح عبدالكريم الحركان، عنيزة - صلاح حسن آل فيصوم، دبي - توفيق علي السعيد، الهفوف - صادق حسن السويدي، البحرين - صادق الحجي، الدمام - محمد حسين الوصيبعي، الأحساء - محمد حامد الشامي، المدينة المنورة - عبدالله الجبران، الشقيق - محمد العبدالله الحربي، حائل - محمد حسن كحليني، القطيف - مهنا بن جمعة المهنا، الأحساء - مجدي أحمد آل صلاح، الجبيل الصناعية - د. محمد الذوادي، جامعة تونس - محمد حسين السماعيل، الرياض - بن عبدالمؤمن محمد، الجزائر - محمد ولد ناح، موريتانيا - ماهر ابن عبدالرحمن المزروعي، جدة - محمد ناشي الخالدي، الجبيل الصناعية - خالد الغنيم، الرياض - كفاح باقر القطيب، الأحساء - جمال غالب النهدي، الخبر - جعفر عيسى الشويخات، سيهات - خالد بن محمد التغنيم، الرياض - خديجة محمد فطاني، مكة المكرمة - مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت - إبراهيم عبدالله المالكي، جدة - محمد عبدالله أحمد، الكويت - يوسف أحمد المصرنده، الهفوف - حسان عجي، جبلة - هاني حامد وهبو، مكة المكرمة.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاءً لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

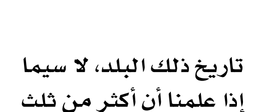
نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.



حول

البطاطس وهجرة الإيرلنديين



اطلعت على ملف العدد الرابع للمجلد السابع والخمسين حول نبات البطاطس بمناسبة «عام البطاطس» الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة ومنظمة الأغذية والزراعة الدولية، لما لهذا المحصول من أهمية كبرى في تحقيق الأمن الغذائي للكثير من شعوب العالم.

الموضوع كان شاملاً وممتعاً ومفيداً للقارئ، لما يحتويه من معلومات رائعة حول تاريخ هذا النبات بأسلوب جذاب، وبصور ملونة تضفي عليه مزيداً من الرونق والمعرفة. إلا أنني أتعجب من أن الموضوع لم يتطرق في سرده لتاريخ هذا النبات عن حدث كان من أهم الأحداث، ألا وهو المجاعة الكبرى التي ضربت أجزاءً من أوروبا وبالذات إيرلندا على وجه الخصوص بين عامي 1845 و1852م، وكان السبب المباشر لهذه المجاعة إصابة محصول البطاطس بمرض فطري يطلق عليه اسم «اللفحة المتأخرة»، دمَّر المحصول وتسبب في موت أكثر من مليون ونصف إيرلندي (ما بين عامي 1846 حتى 1851م) وأدى إلى نزوح أعداد كبيرة من السكان في هجرة جماعية صوب الساحل الشرقي للولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا وغيرها.

وقد تسببت هذه الكارثة في تأثيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية في تاريخ ذلك البلد، لا سيما إذا علمنا أن أكثر من ثلث سكان إيرلندا يعتمدون كلياً على البطاطس كغذاء رئيس مثل الأرز لشعوب جنوب شرقي آسيا. لذا لا نستغرب حدوث آثار هذه الكارثة وتفاقمها إذا علمنا أنه في عام 1845م كان 24% من فلاحي إيرلندا الفقراء لا يملكون أرضهم الزراعية بل كانت أراضيهم مستأجرة وتراوح مساحاتها بين نصف هكتار وهكتارين. وكان 40% من الفلاحين يملكون مساحات تراوح بين 2 و6 هكتارات يزرعونها فقط بالبطاطس ولا شيء غيره، يعتمدون عليه كغذاء لأسرهم ويبيعون جزءاً منه لسداد أجرة الأرض لدفعها لملاكها. فدمار المحصول وعدم التمكن من دفع الإيجارات وطردهم من الأرض هو ما أدى للمجاعة والهجرة.

د. عبد الله علي البيز

خبير زراعي، الرياض – المملكة العربية السعودية

تعقيباً على ملف «البطاطس»، «القافلة» عدد يوليو-أغسطس 2008

حول

الذهب الآمن فعلاً

اعتدت قراءة القافلة كلما تكرَّم بها عليّ صديق لي يتلقاها هدية من شركة أرامكو السعودية. وفي كل عدد كنت أجد باباً معيناً يتفوق على غيره من الأبواب. فتارة كنت أحب موضوعات العلوم، وتارة باب الرواية، وفي معظم الأحيان الملف الذي تنشرونه في نهاية العدد، وربما يعود ذلك إلى مزاجي الشخصي أو إلى ميولي الشخصية، التي تتبدل من وقت لآخر.

وآخر ما تبدل في اهتماماتي هو أنني صرت مهتماً بالقضايا الاقتصادية، نظراً إلى الأزمة الاقتصادية العالمية التي لم تترك بلداً من بلدان هذه الدنيا إلاّ وأثرت فيه بشكل أو بآخر، حتى وصلت الموس إلى الذقن كما يقولون. وبات علينا أن نتصرف بذكاء وحذر تجاه مدخراتنا (على قلتها) ومع وظائفنا التي نخشى أن نفقدها بين لحظة وأخرى، كما حصل بالنسبة إلى الآلاف حول العالم، ومنهم بعض معارفنا الشخصيين.

ولكل ما تقدم، ما أن وقع العدد الأخير من القافلة بين يدي، وطالعتني الصفحتان (بالأسود والأحمر) حول الأزمة العالمية، حتى رحت أقرأ المقال ببطء وانتباه شديدين. وأعدت قراءة المقال مرة ثانية نظراً لأهمية ما ورد. وخلال الأيام التالية، شاهدت على شاشة التلفزيون عشرات الأخبار والتحذيرات التي تؤكد عمق ما ورد في مقال القافلة وصحته.

من جهة أخرى، دار حديث بيني وبين بعض الأصدقاء قبل أسبوعين تقريباً حول المجالات الآمنة للحفاظ على المدخرات. وأطلعتهم شفهياً على ما كنت قرأته في القافلة ضمن المقال المذكور. وكان سعر الذهب آنذاك قد تدنى إلى نحو 720 دولاراً للأونصة. فشكَّك البعض في صحة رأيي، وحذروني حتى من شراء الذهب.

ولكن الذهب عاد إلى الارتفاع حتى تجاوز سعر الأونصة 850 دولاراً (عند كتابة هذه الرسالة)، وبمقارنته بما يجري في أسواق الأسهم والسلع، يمكن الجزم فعلاً أنه السلعة الوحيدة التي لم تتأثر بالأزمة العالمية.

وبخصوص القسم المتعلق بالذهب من المقال المذكور، أود أن أنوِّه بالنصائح المفيدة التي قدَّمها كاتبا المقال إلى القارئ، وفيها الكثير من المعلومات التي ما كان للإنسان العادي أن يعرفها أو أن ينتبه إليها. وتأكدت شخصياً من صحة كل ما ورد فيها بعد جولة على أسواق الصاغة وتجار الذهب.

فشكراً للقافلة ولكاتبي المقال المذكور على هذا الجهد الذي يعكس اهتماماً حقيقياً بالقارئ ومصلحته.

نايف خوجا

دبي

تعقيباً على مقال «الأزمة المالية العالمية» «القافلة» عدد نوفمبر-ديسمبر 2008

حول

الشعر ديوان العرب الأوحد قديماً وحديثاً

طالعت بباب ديوان الأمس العدد 6 المجلد 57 مختارات الشاعر محمد علي شمس الدين واستوقفني قوله «قال الجاحظ الشعر ديوان العرب، وإذا كانت الرواية في العصور الحديثة قد تقاسمت مع الشعر هذا الديوان». ولي عند قوله هذا وقفة.

فالشعر ومهارة اللسان هي ذروة قدرة العرب الفنية وذوب عطائهم الحضاري بين الشعوب. ومن هنا بلغت أهمية الكلمة الشاعرة لديهم درجة كبيرة. فالشعر العربي الفصيح من أبرز مأثورات تراثنا العربي وسجل أمجادنا ومستودع بيانهم وروضة أنسهم وميدان سباقهم، به يستقيم اللسان وتجود القراءة وتصح الكتابة. ولذلك يزول العجب حينما نسمع أن بيتاً يرفع شأن قبيلة عربية، ويقلب لقب الذم مدحاً، وأن العرب كانوا يحتفون بميلاد شاعر في قبيلتهم، فهو وزير إعلامهم وسفيرهم الذي يحفظ ويذيع مآثر القبيلة، ويهجو أعداءهم. والشعر خلَّد للعرب أمجادهم وفتوحاتهم وأرَّخ لحياتهم وأهم أحداثها. فهو ضمير هذه الأمة وروحها وحادي قوافلها في متاهات الحياة إلى حقول النور، وشادي جيوشها في معاملها وحروبها إلى ألوية النصر، وخازن تقاليدها الرفيعة وشيمها الإنسانية الراقية.

ولقد أدرك العرب ما للشعر من رسالة فنية وعلمية وأخلاقية فحوى ديوان شعرهم كل مناحي الحياة. فهو عيونهم وآذانهم وجميع حواسهم التي يطلون من خلالها على عالمهم الخارجي. والشعر مادة طيعة لنشر العلوم، فهو مادة جيدة وأداة طيعة لتوصيل الأفكار النافعة وحمل أعباء رسالة العلم السامية. والشعر في الحقيقة تجربة إنسانية عامة لم يستأثر به موطن دون آخر ولا يختص به شعب دون شعب، ولا تحويه معارف أمة من الأمم وتخلو منه غيرها، وهو أوسع أجناس الأدب احتمالاً لتفاوت التفسير.

ولقد ترك لنا كبار الشعراء في ديوان الشعر العربي أشعاراً علمية وأحاجي وألفاظاً ومسائل رياضية أتعبت أذهان علماء الرياضيات على عهدهم، أمثال أبي نواس وابن يونس وحمزة الأصفهاني ومحمد بن يحيى وأبي الحسن ابن طباطبا وأحمد بن عمرو بن رسته وقبلهم النابغة الذبياني وزرقاء اليمامة وغيرهم.. فقد أورد كل واحد منهم مقاطع شعرية أودعها مسائل حسابية. ومن بين ما حوى ديوان الشعر بين أبوابه وأغراضه التي نظم الشعراء فيها قصائدهم باب لعلم الطب - خاصة الناحية التشخيصية، وعلم الفلك والفروسية إضافة إلى أغراض الشعر الرئيسة، الغزل، المدح، الرثاء، الفخر، الحماسة.. ولولا الإطالة لاستعرضنا بعض هذه المسائل. لما حواه فن الشعر بين دفتيه - لمن يقرأ - وهو مثال على تكامل الفنون والعلوم.

لا مجال للمغالطة

ولأن الشعر حوى هذه العلوم، كان هو لغة العلم وبهذا يمكن دحض الدعوى التي تتطاير بها الألسن من أن هذا الزمن لم يعد زمن الشعر. والموازنة باطلة بين الشعر وبقية فنون القول الأخرى من قصة ورواية. نعم الموازنة باطلة بين الشعر وبقية فنون القول الأخرى، حيث لا جامع بينها سوى أنها فن القول. وتفترق في الجوهر اختلافاً بيناً. فوزن الكلام يخرجه عن طبيعته أو يوجد له طبيعة مغايرة، مع وافر شروط الشعر الأخرى، وهي مسكوت عنها، لأنها معلومة من الفن بالضرورة ومن ثم تكون قيمة الشعر، وإن كان من جنس الكلام، فإن المسك بعض دم الغزال. ومثل هذا الذي يحدث على الساحة الأدبية الآن من الشعر والرواية كجنسين أدبيين متنافسين أيهما ديوان العرب، عرفناه عند نقادنا القدماء في مفاضلتهم بين الشعر والنثر، إذ لم يصل أحد منهم إلى الزعم بأن تفضيلهم لأحد الفنون معناه إلغاء للفن الآخر أو القول إنه لم يعد له مكان في مستقبل الأدب.

والشعر فن قديم.. كان لأكثر من سبعة عشر قرناً المعبِّر الأول عن الروح العربية، ولاشك في أنه تعرَّض لأزمات وفترات ركود وضعف لم ينج منها أدب من الآداب، ولكن من الصواب أن نعزو هذا الركود والضعف إلى البشر الشعراء، قبل أن نعزوه إلى فن كامل قائم بذاته، لأنهم أصل الداء حين رضوا بأن يزيحوا الشعر عن مكانه، وحين غم عليهم الأمر جهلاً أو بسوء نية أطلقوا اسم الشعر على ما ليس شعراً. القضية إذن ليست الشعر، وهو مادة طيعة بأيدي الشعراء للتفاعل مع المجتمع إذا صدقوا، فالشعر لا ينفصل عن المجتمع إلا إذا انفصل الشاعر. إن الشاعر المجيد يستطيع أن يصل إلى قاعدة عريضة من القراء ويؤثر فيهم، مما يجعل الشعر أداة جيدة لتولد الأفكار النافعة وحمل أعباء هذه الرسالة السامية، إذا استطاع الشاعر العالم إيصال الأفكار النافعة إلى الجمهور من القراء.

ولقد قال القدماء «إن الشعراء أمراء الكلام»، فمَن هم الشعراء المجيدون أم أصحاب الحداثة؟ أصحاب البساطة أم الغموض والإبهام؟ إن الغموض في حد ذاته غير مرفوض في الشعر، لكن الإبهام مرفوض لأنه يلغي الصلة بين التعبير الشعري والواقع، ويقف حجر عثرة بين الشاعر والمتلقي. ولعل القطيعة بين الشاعر المعاصر وتراثه الأدبي ثم بينه وبين متلقي شعره هي السبب الأول في أزمة الشعر التي يكثر عنها الحديث اليوم.

يقول جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» إن العرب كانوا ميالين في جميع فنونهم خصوصاً المعمارية، إلى تجميل الطبيعة. فهم رجال فنون بمعنى الكلمة، وهم أمة من الشعراء، والشعر ما هو إلا فن هذه الأمة التي صارت غنية جداً بفنونها، ونالت مدنية لم تنلها أمة أخرى ولا يبعد عنها تحقيق أحلامها الخيالية، الموجودة في شعرها وهذا هو ما تشهد به كل آثارهم من قصور شاهقة ومساجد فاخرة متناهية في الجلالة والفخامة. وهذا يوضح ما للشعر من تأثير في البيئة والفنون الأخرى، لذا فإن الشعر في الأمة، سور بلاغتها، ومعدن براعتها، ومجال تاريخها وعنوان بيانها، وهو وعاء الحكمة، ولسان الإفصاح، ولغة الخيال المجنح، وموسيقى الألفاظ العذبة وغناء الروح للروح في كل فج ودوح.

وعن العلاقة بين الشعر والأدب يقول الروائي نجيب محفوظ عن مكانة الشعر في حياته الأدبية: «العلاقة بين الأدب والشعر علاقة وثيقة، فأعظم الأعمال الأدبية هي تلك التي تقترب في طبيعتها من الشعر، والشعر من الناحية التاريخية هو عنوان الأدب. وحين نعود إلى أصول الآداب كلها -عربية وغير عربية- نجدها كانت في الأصل شعراً، مثل المسرح الذي بدأ بالشعر وحين انتقل إلى النثر كان ذلك ثورة كبرى، وهناك نظرية تقول :إن الأدب كله يطمح إلى حالة الشعر.

ولا مراء في أن لكل جنس أدبي عبقريته وطاقاته التعبيرية الخاصة،وتلبياته لحاجة إنسانية معينة، لا يعوضها جنس أدبي آخر. كذلك لكل جنس جماهيريته النوعية، لأجل هذا، كثيراً ما تكون المقايسة في هذا المضمار مضللة، علاوة على أن المفاضلة قد لا تنجو في كل حال من سياقاتها المتعالقة بتيارات عولمية، تنحو إلى اجتثاث الثقافة القومية، وتذويب اللغات الوطنية، ومحاصرة قيم حادة يظل الشعر ديوانها لدى مختلف الأمم.

نعم إن الشعر قد يتراجع لحساب الرواية في الانتشار، والأيام سجال بين الأنواع الأدبية عبر التاريخ ،وذلك لضيق أفق الرواية اليوم، وابتذالها أحياناً وتسلق كثير منها غرائز المتلقي المختلفة، وسهولة تعاطي القارئ العام معها مقارنة بالشعر، في حافلة أو قطار أو طائرة، أو حتى قبل النوم، وهو ما تتأبى عنه لغة الشعر وطبيعته الخاصة. ولكن حجم الجمهور هو معيار القيمة؟ إنه معيار مادي، غير شعري بدوره. وأكثر الأعمال جماهيرية قد يكون أتفهها، وأقلها خلوداً وذلك للأسباب المشار إليها. إن الشعر -قديماً وحديثاً -لا يُراهن على الجمهور الآني، بالضرورة، ولكن على الجمهور الزمني، فكم من الشعراء تأخر حضور الجمهور إلى أصواتهم عن الجيل الذي عاشوا فيه!

صلاح عبد الستار محمد الشهاوي

مصر

تعقيباً على ديوان الأمس ديوان اليوم، «القافلة» عدد نوفمبر-ديسمبر 2008

قافلة النشر

إصدارات جديدة

رياض الريس للنشر والكتب






رحلة السفرجل (حكاية)
وليد إخلاصي

جسّ نبض
منير شماعة

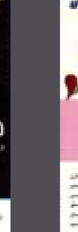
حديث الذكريات
جهاد كرم

صفاء الخاطر
بشارة مرهج

الدار العربية للعلوم ناشرون






تعرَّف إلى عادات الشعب الصيني
بي أليس، برايان أليس

2022 (رواية)
غسان شبارو

الأدب النسائي العربي

الحلم الجميل (رواية)
دوريس ليسينج

أراض متنازع عليها
سومانترا بوز

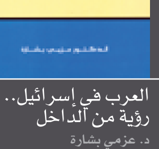
مركز دراسات الوحدة العربية

المنظمة العربية للترجمة









منطق الحضارة عند عبدالعزيز الدوري
إيناس صباح مهنا

رؤية في القضايا العربية
د. خير الدين حسيب

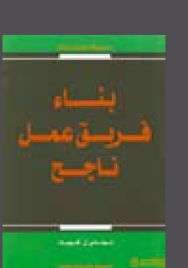
العرب في إسرائيل.. رؤية من الداخل
د. عزمي بشارة

حرب اللغات والسياسات اللغوية
لويس جان كالفي

خمسون مفكراً أساسياً معاصراً
جون ليشتة

مكتبة جرير





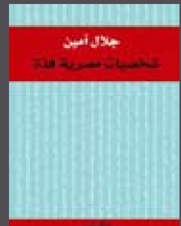

الحمقى في العمل
د. كينث لويد

إدارة الأفراد
معهد الإدارة - لندن

أساليب الناس في العمل
روبرت بولتون- دورثي جروفر بولتون

بناء فريق عمل ناجح
توماس ل. كويك

دار الشروق


شخصيات مصرية فذة
جلال أمين


المعجم الصغير
أحمد سويلم


فهرنهايت 451
راي برادبري


بين المعداوي وفدوى طوقان
رجاء النقاش

دار ثقافة للنشر والتوزيع




عندما تطمح المرأة (رواية)
سلطان الزعابي


علم الفراسة
روز روزتري

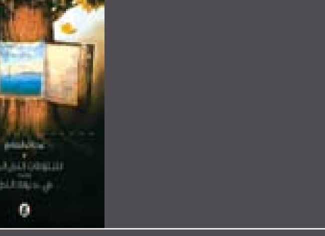
جيم المحظوظ
كنغزلي إيمس


الإدارة بالأرقام
محمد عواد

كأكثر من فكرة (قصص قصيرة)
دولت محمد المصري

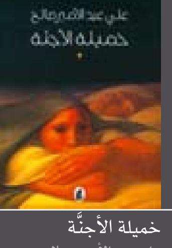
المؤسسة العربية للدراسات والنشر




اشتراطات النص الجديد
عدنان الصائغ


القفص الحديدي
رشيد الخالدي


خميلة الأجنّة
علي عبد الأمير صالح

المنامات في الموروث الحكائي العربي
د. دعد الناصر

دار ملامح


عفاريت الراديو
محمد خير


أسباب وجيهة للفرح
عمر مصطفى

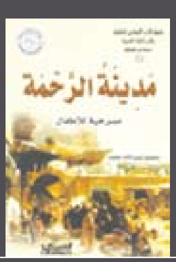

عن الهمس الذي يشيح بوجهه
سعيد أبو طالب


خبز أسود (مجموعة قصصية)
عمرو العادلي

مكتبات ونشر العبيكان


فن العدوان
بيتر جروبر


كيف تصبحين أصغر 10 سنوات في 30 يوماً


مدينة الرحمة (مسرحية للأطفال)
محمود عبدالله محمد


خرافات وأكاذيب وغباء محض
جول ستوسل

الاحتباس الحراري

هل يحتمل كل هذه الفوضى في النظريات؟





بموازاة الأصوات المنبهة إلى خطورة حال الكرة الأرضية بسبب ظاهرة الاحتباس الحراري التي نتجت عن النشاط البشري، تظهر بين فينة وأخرى أصوات مخالفة تقول إن الظاهرة طبيعية وليست من صنع البشر.

وبموازاة الأصوات المتحدثة عن دور المصالح الاقتصادية والمالية لبعض الجهات في السعي إلى إخفاء خطر الظاهرة، هناك من يرى أن الصرخة المدوية التي تصدر عن «حماة البيئة» ليست هي الأخرى سوى تعبير عن مصالح أخرى.

وقد لقي المشككون في مسؤولية البشر عن الاحتباس الحراري دعماً لموقفهم من خلال كون العام الماضي 2008م، كما بينت عمليات الرصد الجوي في العالم بأسره، الأبرد منذ بداية القرن الحالي.

فأين الحقيقة؟

القافلة تعرض وجهتي النظر على ما فيهما من تضارب وتناقض، من خلال إسهامات شارك في إعدادها المهندس أمجد قاسم وليلى أمل، تلمساً لموضع الحقيقة وسط فوضى التحليلات والنظريات حول قضية لا تحتمل مثل هذه الفوضى؛ لأنها تتعلق بحال كوكبنا الأرض وبنوعية حياتنا عليه.

1 - المساجلة والشكوك في أول الطريق



فـي سنــة 1995م، رفع أكثـر من ألفـي عالِم، مـن مئة بلد، إلى الأمـم المتحدة، تقريراً جاء فيـه أن النشاط الصناعي البشـري يبـدِّل المنـاخ فـي الكـرة الأرضية. وبعـد سنوات خمـس، أبـدى كثير مـن هؤلاء العلمـاء خوفهم مـن أمرين: أن المنـاخ يتبـدل بوتيرة أسـرع مما كانوا يظنـون، وأن بيئة الأرض أشد هشاشة ممـا كان يُعتَقد، حيال أقل تغيّـر في درجات الحـرارة. وحذروا من أن معـدل الحــرارة فـي العالـم سيرتفع في القـرن الجاري، بين درجتين وخمس درجات مئويـة. وكانت دراسـات أخرى قـد أشارت إلـى أن الكـرة الأرضية كانـت تحترّ نصف درجة مئوية كل قرن، حتى سبعينيات القرن الميـلادي العشرين، لكن هذه الوتيرة بلغت درجتين مئويتين كل قرن، بعدئذ، وأن أعماق المحيطـات تمتص هـذه الحـرارة الزائدة وتخفي بذلك المشكلة، إلى حين.

> **توازن الإعلام في عرض وجهتي النظر لا يفي الموضوعية حقها؛ لأن الحقيقة علمية وليست إعلامية**

ولما كانت الكرة الأرضية كتلة هائلة، لا تتغير أحوالها العامة بسهولـة ولا بسرعـة، فإن تغيرهـا سيكون صعبـاً إصلاحه إذا مـا حدث. وقد ظلت صالحة للعيش البشري بالظروف التـي نعرفها اليوم، منذ 10 آلاف سنـة، لكن المقادير التي ينتجها البشر، أعادت وتيـرة تزايد الكربون في جوّها 400 ألـف سنة. ولكن سرعـان ما انبرت مجموعـة من الجهات في البلـدان الصناعيـة المتقدمة، المتضررة مـن أي قيد بيئـي يلجم نموها الحر، لتجابه هـذه التقارير، ولتنشر في الصحف دراسات ومقـالات تناقض المعلومات التي قدمها علماء البيئة، ولتزرع الشك فيما قالوه.

واحتـارت الصحـف النزيهة، مـن تصدق؟ وانحـاز بعض الصحافـة إلى الفريـق هذا أو ذاك، وخشـي بعضها الآخر اتخـاذ موقـف، حالما ظهر صـراع مصالح فـي الموضوع. وزاد الطيـن بلـة أن تلـك الصحـف التي عرضـت وجهتي النظر، سعياً في موقف موضوعي، أوحت وكأن هذا التوازن فـي مقالاتها، يعطي الموضوعية حقهـا، مع ان الأمر علمي لا صحافـي، ولا بـد من أن تكـون للعلم فيـه، لا للصحافة، الكلمـة الفصـل. وكانت الكفـة في محافـل العلماء راجحة بقـوة لناحية الخوف على البيئـة. ثم تعقّد الأمر أكثر، حين صار الموضـوع سياسياً أيضاً، مع تنامي الأحزاب الخضر، التـي صارت متهمـة بتضخيم الحقائـق لمصلحتها، وصار خصومها السياسيون متهمين باستصغار المشكلة، لخدمة أغراضهم. وفيما كان الشك يتعاظم في حقيقة الأمر، كانت مقاومـة المعالجـة المطلوبة تشتـد معه. حتـى أن الرئيس الأمريكـي السابق جورج بوش وخصمـه السياسي آل جور، الذي ترشح ضده للرئاسة الأمريكية سنة 2000م، وقفا على طرفـي نقيض، فرفض الأول التـزام معاهدة كيوتو لحماية البيئـة وعطَّلها، لارتباطه بمصالـح الصناعة كما قيل، في البلـد الأكثر إسهاماً في إنتاج ثاني أكسيد الكربون، وحصل الثاني على جائزة نوبل، لوقوفه محامياً عن البيئة كما قيل، فيما كان خصومه يتهمونه بأنه إنما عارض الوقود الأحفوري لارتباطـه بمصالـح صناعة محطات الطاقـة النووية، التي يهمها المبالغة في التخويف من الوقود الأحفوري.

مـا الذي جاء في معاهـدة كيوتو؟ إن نظـام المناخ في الكرة الأرضيـة معقد جداً، لكن فيه بضع حقائـق أساسية بسيطة. ففي الغلاف الجوي غازات تحبس الحرارة الآتية من الشمس، وتمنـع ارتدادها إلـى الفضاء. وبخار المـاء واحد منها. لكن نسبة بخار الماء في الهواء ثابتة نسبياً عبر العصور. أما ثاني أكسيد الكربون، فقد نعمت الأرض منذ 10 آلاف سنة، بنسبة منـه تبلغ 280 جـزءاً في المليون. لكن منـذ 100 سنة تقريباً أخذنا نحـرق من الوقود الأحفوري الكثيـر، حتى زادت نسبة ثاني أكسيد الكربون إلى 360 جزءاً، وينتظر بالوتيرة الجارية الآن، أن تتضاعف إلى 560 جزءاً في المليون في هذا القرن.

وحيـن عقـدت 160 دولة مؤتمر كيوتو فـي اليابان في أوائل ديسمبـر 1997م، قدَّم العلماء أدلتهـم، فاتفقت الدول من دون أن تجـادل في المعطيات العلمية، على أن تتخذ سلسلة خطوات لتحسين جدوى استخدام الطاقة، وتحسين قطاعي الصناعـة والنقل في هذه المسألـة. لكن الولايات المتحدة انفـردت بفتح معركة طاحنة لرفض المعاهدة، لا سيما بعد انتهاء عهد الرئيس السابق بيل كلنتون.

ظهور الأصوات المعارضة

فـي البدء حيـن أطلق النفيـر في التسعينيـات، محذراً من خطـر الاحتباس الحـراري الزاحف، كان صـوت معارضي هـذا النفير خافتاً، فلم يجرؤ سـوى نفر قليل على معارضة التحذير البيئـي، أو ادعاء المبالغة فيـه. لكن هؤلاء أخذوا يرفعون الصوت شيئاً فشيئاً.

أحسـن علمـاء البيئـة مع مـر السنيـن، توثيق ملفهـم ودعم قضيتهـم، حتى تألبت دول العالم على معرقلي معاهدة كيوتو،

وأخذت الحكومات، ولا سيما في الدول الصناعية الأوروبية، تحسّن أداءها البيئي، وتخفض بواعث الغازات، أكثر من النسبة التي التزمتها في كيوتو. من جهة أخرى، حسَّن معارضو كيوتو ملفهم بدورهم، مركزين على أن الاحتباس الحراري ظاهرة طبيعية لا دخل للنشاط البشري فيها. وحشدوا لدعم هذا الملف علماء وصحافيين ودراسات، كثير منها جاد.

لكن نفوذ الجهات المعارضة للمعالجة البيئية تقلص كثيراً، حين شعرت هي أولاً، ثم شركات التأمين العاملة معها، أن المسألة قد تنقلب عليها. فسارعت شركات صناعية عديدة إلى اعتماد سياسة أشاحت عن سلوك المواجهة، وأخذت تبدي اهتماماً حقيقياً بالبيئة والسلع الرفيقة بالبيئة. وكان لشركات التأمين دور أساس في تبديل المزاج. ففي الثمانينيات من القرن الميلادي الماضي، خسرت شركات التأمين معدل ملياري دولار أمريكي في السنة، بسبب الأعاصير والجفاف وارتفاع مياه البحر والظروف المناخية المتقلبة، ولذا ضغطت على زبائنها من شركات صناعية على اختلافها، لتغير موقفها، حتى صار بعض صانعي السيارات وغيرها، يتباهى بصورة جديدة رسمها لنفسه، في طليعة صفوف المدافعين عن البيئة.

2 - هذا ما يقوله البيئيون

يمتلك البيئيون الذين يلقون بالملامة عن الاحتباس الحراري على السلوك البشري ملفاً ضخماً مليئاً بالأرقام الدقيقة وبالأمثلة التي تضفي على تحذيراتهم المزيد من الصدقية. فمراكز رصد المناخ ومراقبة الطبيعة تقدر أن المصانع والسيارات ومحطات الكهرباء تنفث في الجو كل سنة 23 مليار طن من ثاني أكسيد الكربون وغازات الدفيئة. وقد زاد تركيز ثاني أكسيد الكربون في جو الأرض 31% عما كان قبل الثورة الصناعية في أوروبا سنة 1750م. ولم يحدث هذا التركُّز من 420 ألف عام. وقد عرف العلماء هذا الأمر من فحص عينات ثلج قطبية يقرب عمرها من نصف مليون سنة.

هل تصبح أبرد أم أسخن؟

وقد رَفع «نداء علماء العالم من أجل العمل» سنة 1997م، عريضة إلى زعماء العالم المجتمعين لمناقشة تفاهم كيوتو، الداعي إلى خفض وتيرة بث غازات الدفيئة في الجو، دعاهم فيها إلى «اعتماد قوانين ملزمة»، لتخفض الدول الصناعية مقدار الغازات الحابسه للحرارة التي تبثها في الجو. ووصف النداءُ الاحتباسَ الحراري بأنه «واحد من أخطر ما تواجهه الأرض والأجيال الآتية». وقد وقع النداء، الذي كتبه في الأصل «اتحاد العلماء القلقين» سنة 1992م، أعضاء الاتحاد وعددهم 1500 من أشهر علماء العالم، وبينهم معظم الفائزين بجائزة نوبل للعلوم.

ومن الحجج العلمية التي يستدل بها هؤلاء، نذكر:

- ازدياد حرارة الجو عند الخطين المداريين الشمالي والجنوبي، حسبما قيست من الأقمار الصناعية.
- العينات التي أخذها العلماء من طبقات الثلوج القطبية، وأثبتت أن تركز ثاني أكسيد الكربون ازداد كثيراً منذ القرن الماضي.
- نسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء التي كانت 278 جزءاً في المليون في ثمانينيّات القرن العشرين، وصارت 383 جزءاً سنة 2005م.
- القول بأن النشاط الشمسي الذي ازداد في السنوات الأخيرة، ويعزو إليه بعض العلماء احترار الأرض، ليس مسؤولاً إلا عن جزء من هذا الاحترار.

ويرى البيئيون أن زيادة نسبة غازات الدفيئة في الجو بهذا الشكل

المتسارع، هي المسؤولة عن تسارع وتيرة الكوارث الناجمة عـن تبـدل الأحـوال المناخيـة، والمتزامنـة معهـا. فسنة 1998م بـدأت بعاصفة ثلج كاسحـة، تركت 4 ملايين نسمة في مقاطعتـي كيبك ونيو إنجلانـد الكنديتين، بلا كهرباء. وسجـل ذلك العـام أول حرائق في الغابـات الاستوائية في البرازيـل والمكسيك. وشهد صيفـه موجات حر غير عادية فـي المشـرق العربي والهنـد وتكساس، وتوالـت أيام الحر الـذي فاقـت درجتـه 38 درجة مئويـة 29 يومـاً، وهي مدة قياسية. وكان الجفاف في المكسيك في تلك السنة أسوأ ما مر بالبلاد في 70 سنة.

وفـي السنة التالية 1999م، بلغ الجفـاف في ولايات الغرب الأوسـط والشمـال الشرقـي، أقصـى الحـدود المعروفة، وأعلنـت حالة الكوارث فـي ست ولايات، ومات من الحر في هـذه الولايات 271 شخصـاً، وألحق الإعصار فلويد أضراراً بأكثر من مليون شخص في شمال كارولاينا. وفي الهند قتل إعصـار هائج 10 آلاف شخص. وفي شتاء تلك السنة، أدى انـزلاق الأرض وسيول المطر إلى قتـل 15 ألف شخص في فنزويلا. واجتاحت أوروبـا الشمالية عواصف في ديسمبر، لـم يسبق لشدتها مثيـل، وبلغت قيمـة أضرارها 4 مليارات دولار أمريكي. ومرت علـى بوسطن، في الولايات المتحدة، 304 أيام من دون ثلج، وهي مدة قياسية.

وفـي السنـوات الماضيـة زادت وتيـرة الأعاصيـر الهـوج فـي خليج المكسيـك، وشرق آسيـا، واشتـدت قوتها. وكان أشهرهـا إعصـار كاترينا، الـذي دمر في صيـف 2005م، مدينـة نيوأورليانز. أما الصين فعانت تبدل المناخ، معاناة شديدة. ويقول العلماء، إن مواصلة استخدام الصين الفحم الحجري، بوتيرة استخدامه اليوم، ستزيد نسبة ثاني أكسيد الكربون 17% في غضون 20 عاماً. وفي سنة 1998م، فاض نهر يانغتسي الذي يقيم في حوضه 400 مليون نسمة، فغرق ألفا شخص، وتشرد 14 مليوناً، ومكثوا مدة بلا مأوى. ودمر الطوفان 11 مليون آكر من المحاصيل الزراعية.

وقد يظن بعض الناس أن كثيراً من هذه الكوارث لا ينم عن ارتفـاع في درجة الحرارة، بل عـن هبوطها، وأن هذا الأمر يفسـد نظرية الاحتباس الحراري. ولكـن البيئيين يقولون بسرعة إنهم أكدوا منذ بدايات انتباههم إلى هذه القضية، إن الاحتباس الحـراري، وإن كان يعني حرفياً ازدياد معدل الحـرارة على سطح الأرض، فإن ذيوله لن تقتصر ببساطة علـى موجات الجفاف والحـر. إذ ان اختلال النظام البيئي نتيجـة الاحتباس الحـراري سيـؤدي حكمـاً إلـى أن تتخذ الأحـوال الجويـة طابعـاً أكثـر عنفـاً، بما في ذلـك ازدياد البرودة الموسمية وصولاً إلى احتمال دخول مناطق شاسعة من الكرة الأرضية في عصر جليدي جديد.

3 – علماء يبرِّئون النشاط البشري

لـم تجمـع محافل العلماء علـى قبول نظرية تحميـل النشاط البشـري التبعات عن الاحتباس الحـراري. ففي سنة 1992م نفسهـا، وقَّع 47 عالماً «إعلان علماء المناخ في شأن التحذير من الدفيئة». وجاء فيه أن كثيراً من النظرية المذكورة يستند إلـى آراء علميـة غيـر ثابتة. وفـي السنة ذاتهـا، أعلن 4000 عالم، منهم 72 من الفائزين بجائزة نوبل، «نداء هايدلبرج»، وأغفلـوا فيـه الحديث الصريح عـن نظرية ربـط الاحتباس الحراري بنشـاط البشر، لكنهم دعوا إلـى اعتماد «المعايير العلمية لا الآراء المسبقة غير المنطقية» في سياسة الدول.

ثـم أعلن «بيـان لايبزج عن التبدل المناخـي العالمي» (في 1995 و1997م) أن القائلين بعلاقة نشاط البشر بالاحتباس الحـراري لا صفـة علمية لهم، في مجال علـم المناخ. وفي أبريـل 2006م، رفع «ستون عالماً» كتابـاً مفتوحاً إلى رئيس الـوزراء الكندي ستيفن هاربر، دعـوه فيه إلى إعادة النظر فـي المسألة، لأن الموقعين علـى عريضة العام 1992م، لم تكـن لهم صفـة في علم المنــاخ، وكان بينهـم اثنان فقط، توليـا رتبـاً جامعية في الاختصاص. أما الآخـرون فكانوا صحافييـن أو علماء اجتماع وغيرها. وأصدر العلماء الذين يـردون الاحتباس الحراري إلـى عوامل طبيعيـة دراسات كثيرة، تلخص حججهم الأساسية وهي:

- إن حـرارة الجو عند المدارين لو كانت من أثر غازات الدفيئة لكان الاحترار فـي طبقات الجو العليا أسرع منه علـى سطـح الأرض. والحـال أن الاحترار فـي الحالين يسير بالسرعة ذاتها.
- أن نسبـة ثانـي أكسيد الكربون في ثلـوج القطب تزيد وتنقص في وتيرة مدتهـا نحو ألف سنة. وحدث هذا من دون النشاط الصناعي في الماضي.
- إن معـدل حـرارة الأرض انخفض بيـن سنتي 1940 و1970م، علـى الرغـم مـن زيـادة نسبـة ثانـي أكسيد الكربون في الجو.
- إن دراسة وضعها سيـث يونج، في جامعة ولاية أوهايو الأمريكيـة، أكـدت أن الأرض كانـت تجتـاز العصـر الأوردوفيشـي الجليـدي، فيمـا كانت نسبة ثانـي أكسيد الكربون مرتفعة للغاية، وتبلغ 4400 جزء في المليون.
- إن سنة 2007م كانت أبرد سنة منذ أن بدأ وضع سجلات علمية عن المناخ، في العصر الحديث.
- إن النشاط الشمسي الآن يبلغ ذروة لم يبلغها منذ 8000

سنـة، وهـو مستمر منذ نحو 70 سنة. وهـو أرجح تفسير علمي لاحترار الأرض.

إن إدراك ما إذا كانت حرارة الأرض سترتفع أم ستنخفض أم ستبقى ثابتة تتطلب دراسة شاملة لكل العوامل التي تؤدي إلى تسخين الغلاف الجوي والعوامل التي تؤدي إلى تبريده، وأيضـاً التـي تـؤدي إلى ضبـط درجـة حرارتـه. فالنظام المناخـي للأرض شديد التعقيـد، وهنـاك تفاعلات بين المئـات من مكوناتـه والمؤثرات فيه. من هنـا تغدو مقولة، إن ظاهـرة الاحتباس الحراري ناجمة فقط عن الزيادة في تركيـز الغازات الدفيئة، مقولة يشوبها بعض الشك وتحتاج إلى فهـم أعمق ودراسة موسعة. فالتاريـخ الطبيعي لكوكب الأرض شهـد خلال حقـب زمنية غابـرة زيـادة كبيرة في تركيز الغازات الدفيئة وارتفاعاً كبيراً في درجات الحرارة، أعقبها عصور جليدية طويلة.

يقول الباحث الجيوفيزيائي سيون ايكي اكاسوفو من جامعة ألاسـكا، إن التغيرات فـي درجات الحـرارة لكوكب الأرض والزيـادة بوجه عـام لدرجة حرارة الأرض، قد سجلت في قـرون سابقة، عندما كان تركيز غاز ثانـي أكسيد الكربون أقـل مما هو عليـه الآن بكثير. ويضيـف أن الدراسات بينت ارتفاعـاً لدرجـة حـرارة سطـح الأرض في عـام 1910م وانخفاضاً في عام 1975م، ويعزو ذلك إلى تغيرات طبيعية يشهدهـا كوكبنا من وقت إلى آخر. كذلـك يؤكد عدد كبير مـن الباحثين، أن الاحتـرار الحراري هو جـزء من الدورة الطبيعيـة لمنـاخ الأرض، وأن أسلافنا عاشـوا عبر عشر فترات جليدية طويلة على الأقل خلال 780 ألف سنة مضت، تخللتها فترات دافئة، وأعقبتها دورات جليدية أخرى.

تعاقب الدفء والجليد

وأكثر مما تقدم، ترى بعض النظريات أن احترار الأرض هو مؤقت وقصير العمر، إذ ان كوكبنا يتجه إلى عصر جليدي.

فمـن المعـروف إنه خـلال مليون سنـة ماضيـة، تعرضت الأرض لعشرة عصـور جليديـة رئيسة، ولأربعيـن عصراً جليديـاً صغيـراً. ويرى بعض العلمـاء أننا حاليـاً في نهاية فترة دفيئة وعلـى أبواب عصر جليدي جديد، مما يقلل من تأثيـر الغازات الدفيئة، بحيـث لا تصبح هي العامل الوحيد لحدوث الاحتباس الحراري

ويستـدل بعض هؤلاء فـي تقييمهم للوضـع الحالي بدراسة الـدور الـذي تلعبـه البقـع الشمسيـة علـى سبيـل المثال، ويتمكنـون من إيجاد رابط ما بينها وبين أحوال المناخ على الأرض، لجهة التزامن على الأقـل. فخلال الفترة الممتدة مـن عـام 1880 إلى عـام 1940م شهـدت الأرض نشاطاً شمسيـاً كبيـراً أدى إلى زيادة درجة حـرارة كوكب الأرض. وخـلال عامي 1940 إلى عام 1960م قل النشاط الشمسي، ممـا أدى إلـى انخفاض ملحـوظ في درجة حـرارة الأرض بوجـه عـام، وقد تكرر ذلـك النشاط الشمسـي خلال عقد السبعينيات والثمانينيات في القرن الماضي.



Corbis



Reuters

يقــول الدكتــور فيكتور مانويـل فيلسكو هيريــرا الخبير في شؤون البيئة من «جامعــة المكسيك الوطنية المستقلة»، إن الأرض مقبلة علــى عصر جليدي صغير، سببه قلة النشاط الشمســي. وقــد أعلن فيلسكو عــن رأيه السابــق في مؤتمر عالمــي حــول التغيــر المناخي، قائــلاً إن تلــك التغيرات لا يمكن أن تكون ناتجة عن الاحتباس الحراري فقط. ويصف فيلسكــو الدراســات التي تعلــل الزيادة في درجــة الحرارة للكرة الأرضية وتعزوها لتراكم الغازات الدفيئة في الغلاف الجوي فقط، بأنها خاطئة، والسبب يعود إلى أنها تعتمد كلياً علــى نماذج رياضية ولا تأخذ في الاعتبار النشاط الشمسي مثــلاً، ويضيف أن نماذج التنبــؤ المناخي، يجب أن تتضمن العوامــل الداخلية كالنشاط البركانــي، والعوامل الخارجية كالنشاط الشمسي.

وفــي الوقت الراهن، يقــول فيلسكو إن العالــم يمر بمرحلة تناقــص للنشــاط الشمســي، ولذلــك فإنه خــلال العامين القادميــن تقريبــاً، ستبــدأ مرحلــة عصــر جليــدي صغير ستستغــرق مــن 60 إلــى 80 عامــاً، ونتيجة لذلــك سيظهر الجفاف فــي العديد من الأماكن في العالــم، وأن أوج ذلك العصر سيكون خلال 30 إلى 40 عاماً قادمة.

وحظــي العلماء الذيــن يبرئون النشــاط البشري من قضية الاحتبــاس الحــراري، وحتــى القلــة منهم التــي تشكك في حصول هــذا الاحتباس، على دعم غيــر متوقع خلال العام الماضــي 2008م. إذ أجمعــت الأرصاد الجويــة عبر العالم على أنه كان العام الأبرد خلال القرن الحالي.

فقــد شهدت الصيــن أبرد سنة لها في المئــة السنة الماضية. ونــزل في بغداد ثلج لم تره في تاريخهــا المعروف. وبلغ غطاء الثلــج فــي أمريكا الشماليــة ذروة ما سُجل فــي 50 عاماً. وفي وسكونســن بلــغ الثلج علــواً، لم يبلغه منــذ بــدء التوثيق. وفي القطب الجنوبي كان الثلج قياسياً. وبلغت درجة الحرارة أدناها فــي شتاء 2007م، في ولايات منسوتــا وتكساس وفلوريدا، وفي المكسيك وأستراليا وإيران واليونان وجنوب إفريقيا وغرينلاند والأرجنتين وتشيلي، وقائمة أخرى طويلة من البلدان.

وبقيت الأخبار أخباراً، حتــى تحولت إلى حقائق علمية، حين أصــدرت كل المؤسسات الكبــرى المهتمة بالأمــر في العالم تقارير أكدت فعلاً أن السنة الماضية 2008م، شهدت هبوطاً حاداً للحــرارة في الكرة الأرضيــة. وراوح معدل الهبوط بين 0.65 و0.75 درجة مئوية، وهي أقل من درجة، لكنها في الواقع أزالــت كل الاحترار الذي سُجِّــل في القرن الذي مضى. وتدل النشرات الجوية فــي أوروبا وأمريكا منذ مطلع العام الجاري أن الشتاء الحالي كان أبرد (في بداياته على الأقل) من شتاء العام الماضي. فهل نحن فعلاً أمام بداية عصر جليدي، وهل كان احترار الأرض مجرد عاصفة في فنجان؟

4 - الاحتباس الحراري يمطر ثلجاً والبيئيون يفسِّرون



مـن البديهي أن يتوقف المـرء أمام كون العـام الماضي 2008م الأبرد منذ سنوات حسبما أعلنت منظمة الأرصاد الجوية العالمية في تقريرها السنوي. ومن الطبيعي أن يتساءل ما إذا كانت حرارة الأرض ترتفع أم تنخفض؟ طالما أن متوسط درجة الحرارة على الأرض كان 14.3 درجـة مئويـة، وهـو أقل رقم تـم تسجيله منذ أعوام. ويقـول خبراء الأرصاد الجويـة إن نسبية الأمور هي جزء مهم من الإجابة، ويؤكدون أنه رغم برودته النسبية وسط سنوات هـذا القرن، فـإن عـام 2008م كان سيعتبر عاماً دافئـاً بصورة مفاجئـة ومثيرة للدهشة في عقود سابقة. ولكي نفهم بالضبط ما الذي يعنيه الرقم 14.3 علينا أن نقارنه بأرقام أخرى أتت قبله.

يقدر الخبراء متوسط درجة حرارة الأرض خلال الفترة من 1961 وحتـى 1990م بـ 14 درجة مئوية، وهي درجة الحرارة التـي تُعد فـي الأوساط العلمية مقياسـاً معتمداً للحكم على التغير في جو الأرض. في 2008م ارتفعـت درجة الحرارة بمقـدار 0.3 درجـة مئوية عن هـذا الرقم، ممـا يضمه إلى الأعوام الدافئة رغم برودته التي نحسها بالمقارنة بالأعوام القليلة السابقة. فقد شهدت خلاله مناطق كثيرة من الأرض درجات حرارة أعلى من معدلاتها الطبيعية، خاصة المناطق القطبيـة التـي ذاب الجليد فيها إلى أحـد أقل مستوياته في هـذا الصيف. وتؤكـد منظمة الأرصاد الجويـة العالمية إنه على الرغـم من أن عام 2008م كان العام الأكثر برودة منذ بداية القرن الحالي، إلا أنه يحتل المركز العاشر في الأعوام الأكثـر حرارة منذ العام 1850م، في قائمة يأتي على رأسها العام 1998م الذي ارتفعت درجة حرارة الأرض فيه إلى حد غير مسبوق حين سجَّلت متوسطاً قدره 14.52 درجة مئوية.

إذن .. التقاريـر المناخيـة تقـول إن درجة حـرارة الأرض آخـذة في الارتفاع، لكن يبدو تصديق الأمر صعباً مع برودة الشتاء غير المعتادة. يقول الخبراء إننا نخطئ حين نستمد قراءتنـا الخاصـة لتغير جـو الأرض، من النظـر إلى الغيم والمطـر وأحيانـاً الثلج عبـر نوافذنا. لأننا نخلـط ساعتها بين مفهوميـن مختلفين عن بعضهما تمـام الاختلاف هما الطقس والمنـاخ. فالأول -الطقس- هو التغير الذي نختبره في درجات الحرارة والريـاح والمطر من يوم إلى آخر. أما المنــاخ فهـو متوسط حالة الجو خلال عقـود وقرون وحقب زمنيـة كاملـة من عمر الأرض. ولهذا فإننـا لا نستطيع أن نحكـم على التغير الذي يحدث فـي مناخ الأرض عن طريق قـراءة زاوية «حالة الجو» في الجريدة اليومية، لكننا نحتاج لتتبع حالته على المدى الطويل خلال عقود متتالية.

دور «إل نينيو» و«لا نينيا»

ترجع التغيـرات التي نحسهـا على المـدى القصير، والتي تسبـب هذا التذبـذب الذي نشعـر به من شهـر لآخر ومن فصـل لآخـر ومن عام لآخر فـي حالة الجـو، إلى مجموعة مـن العوامـل الطبيعيـة التـي تمارس تأثيرهـا علـى جـو الأرض. أحد أهم هـذه العوامل هي الـدورات الجوية التي تحـدث في المحيط الهادئ، أكبـر محيطات الأرض والذي يشغـل المساحة الواسعة مـن الكرة الأرضيـة التي تحدها الأمريكتان من الشرق، وقارتـا آسيا وأستراليا من الغرب. فالتفاعـل بيـن هـذا المسطـح المائـي الضخـم والعوامل الجويـة كحركة الرياح والضغـط الجوي ودرجات الحرارة، يتحكـم في الصورة النهائية لجـو الأرض، ويحفظ ظواهره كمـا نعرفها في الأحوال العاديـة. لكن هذه الأحوال العادية تتخللهـا دورات متعاقبـة مـن التغيـر تحدث كل ثـلاث إلى خمس سنوات، وتـؤدي إلى مرور الأرض بأنماط غير عادية من الحرارة والبـرودة. «الولد الصغير» و«البنت الصغيرة» هـي الأسماء التـي أطلقها الصيادون فـي أمريكا الجنوبية على هذه الـدورات حين كانوا يلاحظـون علامات وصولها إلـى شواطئهـم. أمـا اكتشافها العلمـي فيعود إلـى العالم البريطانـي السير جيلبرت توماس واكر الذي لاحظها ودوَّن اكتشافـه ونشـره في العـام 1923م. وقد حفـظ العالم لها اسميهـا الأصليين، فباتت تعرف بــ «إل نينيو» وهي الدورة الحارة، و«لا نينيا» وهي الدورة الباردة.

وبينمـا كان «إل نينيو» هو المسـؤول الأول عن موجات الحر القاتـل التـي شهدها العالم في صيـف 1998م، فإن خبراء المناخ يقولـون إن دورة «لا نينيا» هي المسؤول الأساس عن البـرودة الشديدة التي اجتاحت العالم في الشتاء الماضي، والتي من المتوقع أن تستمر خلال هذا الشتاء أيضاً.

حيـن تبـدأ دورة «لا نينيا»، تـزداد حركة الرياح علـى الجانب الشرقـي مـن المحيـط الهـادئ، بحيـث تتسبب في دفـع مياه السطـح الدافئة لتتحرك من الجزء الشرقي إلى الجزء الغربي منـه. تتدفـق الميـاه الدافئـة إلى الغـرب، بينما ترتفـع المياه العميقة الباردة إلى السطح في الجانب الشرقي بدلاً من المياه الدافئة التي تمت إزاحتها. ونتيجة لذلك تنخفض درجة حرارة ميـاه المحيط الهـادئ على طـول سواحـل أمريـكا الجنوبية، بينمـا ترتفع درجـة حرارتها على سواحـل أستراليـا والفلبين وإندونيسيـا. هـذا الاختلاف فـي نظام درجات الحـرارة على جانبـي المحيط، يحدث «فوضى» جوية علـى سواحله. فتنهمر

مياه الأمطار بغزارة على الشرق الأقصى وأستراليا، بينما تعاني سواحل أمريكا اللاتينية من جو أكثر جفافاً من المعتاد.

وعلى الرغم من أنها ظاهرة جوية تحدث في خُمس مساحة الأرض فقط، إلا أن آثارها تمتد لتشمل أرجاء العالم كله. فحين تتحرك «لا نينيا» على سواحل المحيط الهادئ، فإن الأمر يكون كإلقاء حجر صغير في بركة ساكنة من الماء. إذ ان التغير في التوازن الطبيعي لدرجات الحرارة ونظام الضغط الجوي والرياح على المساحة الهائلة التي يشغلها المحيط، يطلق موجات بعيدة المدى من التغير تؤثر في توازن النظام الجوي للأرض ككل، وتشيع البرودة غير المعتادة في أنحاء واسعة من العالم. وقد سجلت التقارير المناخية أن دورة «لا نينيا» الحالية بدأت في الإعلان عن وجودها في بداية العام 2007م، ثم زادت حدتها مع بداية العام 2008م لتصبح الأشد منذ عقود. وقد فرضت سيطرتها على الشتاء الماضي الذي شهد انخفاضاً غير مسبوق في درجات الحرارة في مناطق كثيرة من العالم منها المنطقة العربية، التي شهدت هطول المطر الغزير، وانهمار الثلج على بلاد لم تعرفه من قبل.

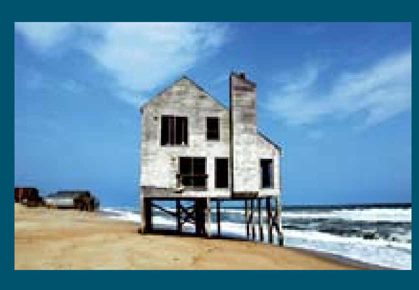
ارتفاع مستوى البحار إلى مستويات قياسية، كما رُصد خلال هذا الشتاء في مدينة البندقية بإيطاليا

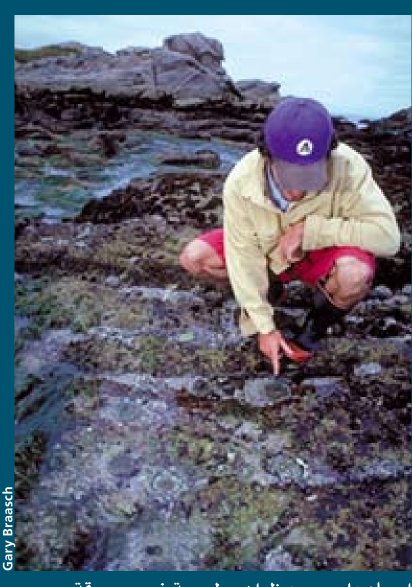
يقول خبراء المناخ إننا إذا تأملنا ما تسجله الخرائط المناخية عن جو الأرض، فسنجد تذبذباً للأعلى أو للأسفل في مساحات ضيقة، وهذه هي التغيرات التي تحدث نتيجة لعوامل طبيعية تفرض تأثيرها على النظام المعقد للجو. لكن إذا عدنا خطوتين للوراء، ونظرنا للصورة الأكبر فسنجد أن درجات حرارة الأرض على المدى الطويل تتجه اتجاهاً واحداً.. للأعلى.

وإلى ما تقدَّم نضيف أن «الخضر» ومنذ زمن طويل، نبهوا إلى أن احترار الأرض يمكنه أن يؤدي إلى عصر جليدي. وضربوا على ذلك مثلاً، الأثر الذي يمكن أن يتركه اضطراب حال التيار البحري المعروف باسم تيار شمال الأطلسي. فهذا التيار المشكَّل من المياه الدافئة، هو صاحب الفضل في تدفئة الشواطئ الشرقية لأمريكا الشمالية والشواطئ الغربية لشمال أوروبا. ولكن ازدياد سخونة الأرض يمكنه أن يذيب ثلوج القطب الشمالي التي تتحوَّل إلى مياه باردة تصب عند منشأ هذا التيار فتخفض حرارته، وبالتالي قدرته على تدفئة المناطق التي اعتاد تدفئتها، لتكتب الغلبة عندها للرياح والعواصف الثلجية الناشئة في القطب الشمالي والتي تتجه جنوباً، إذ لن تصادف في طريقها الحرارة اللازمة لتلطيفها، فتتدنى الحرارة إلى مستويات غير مسبوقة في التاريخ المعروف، ويصل الثلج جنوباً إلى مناطق لم يصل إليها منذ آلاف السنين، أما المناطق الشمالية المأهولة اليوم، فتكون قد دفنت تماماً تحت الجليد.









Gary Braasch

إجماع على وجود ظواهر طبيعية غير مسبوقة واختلاف على أسبابها

شهادة مكتوبة من مصوِّر العدسة الساهرة على البيئة

جلست أنظر إلى أعشاش البطريق الفارغة، وانتابتني قشعريرة، على الرغم من أن الثلوج كانت منحسرة في المنطقة القطبية الشمالية. ورأيت شجيرات الراتنج السود، تعلو أكثر من أية سنة مضت في ألاسكا. ورأيت تبدلاً طفيفاً في أعشاب سهوب التوندرة.

بالقرب من منزلي في المنطقة الشمالية الغربية، على ساحل المحيط الهادئ، واكبت ذوبان الجليد ببطء، وفي جبال الأندز، صوّرت في السنوات الخمس والستين الماضية ذوبان الثلوج، سنة بعد سنة، في طريق الزوال. وشاهدت ارتفاع المد، والعواصف الشديدة تقضم السواحل، وتقترب من غابات شمال غرب القارة الأمريكية. وسرت بين أزاهير الربيع البرية، ورأيت الطير الغريدة المهاجرة، تصل قبل موعدها.

كتبت هذه الملاحظات وغيرها في عامي 1999 و2000م، ضمن مشروع معرض صوري: «نظرة إلى العالم المحترّ». كنت أريد به تخطي حدود الإحصاء الخام، والجداول والتوقعات. كنت أريد أن أقدم بديلاً من الأرقام، ومن الحجج في السجال الدائر: من الملوم؟ وماذا يمكن للحكومات والمؤسسات أن تفعل؟

بدلاً من ذلك نظرت إلى الأرض نفسها، بعين مصور فوتوجرافي منصرف إلى متابعة تاريخ الطبيعة. لقد مشت الأرض في طريق الاحترار والتبدل المناخي. وبدأت النظم البيئية والأنواع الحية تبدي رد فعل. لكن النفير لم يُسمَع في المحافل السياسية بعد.

إن التقاط هذه الصور مشكلة كبيرة، فالتبدل حدث في خمسين سنة، والفارق ضئيل من سنة إلى أخرى. وهو يتصاعد بصمت ويكاد لا يُرى. لكنني بعد سنة ونصف سنة أمضيتها في زيارة العلماء ومواقعهم والاستماع إلى مرافعتهم القلقة، وبين أيديهم صور من الماضي وسجل دقيق لمراقبة علمية دؤوب، صار لصوري، في عيني، معنى آخر.

الرسالة التي تعلنها الصورة أقوى، حين تأتيك بدليل الاحتباس الحراري من أجمل البقاع وأشدها هشاشة. فالأعراض أقوى في أطراف الكرة الأرضية، مثل أعراض مرض القلب. فالقطبان والجبال والحيوان والنبات، عند أطراف الدنيا، تحسّه أكثر.

لقد بتّ على اقتناع أنني أوثّق لواحد من أهم مظاهر القرن الواحد والعشرين، وأعمها وأبعدها أثراً. ولما كان الاحتباس الحراري يفاقم مشكلتي الازدحام السكاني وغلاء الطعام، فقد يصيب من الناس أكثر مما أصابت الحروب في القرن الماضي. أوَ كان البشر ملومين أم لا، فثمة ستة مليارات نسمة الآن على هذا الكوكب، ومصيرنا جميعاً مترابط، ومرهون بهذا التبدل. وعلينا أن نتكيف به، ونعيش معه. إن هذه قصة عاجلة، بدأت روايتها للتو.

غاري براش

مصور فوتوجرافي عمل مع مؤسسات عالمية

www.globalchange.org/current.htm



قول في مقال

العربية إن حكت

انطلاقاً من قراءتها لمقال الأستاذ عبدالعزيز عثمان التويجري في جريدة «الحياة» حول «مشروع النهوض باللغة العربية»، تذهب ضياء سليم العلي* هنا في منحى قلَّما سلكه الذين تناولوا قضايا اللغة العربية في عصرنا، فتسبر أعماق ماهية اللغة وخصوصية اللسان العربي، قبل رسم تصورها لوظيفة اللغة العربية في حياتنا المعاصرة وما يجعل تأدية هذه الوظيفة أمراً ممكناً.

الكلام في اللغة العربية حديث ذو شجون. والموضوع أثاره في بالي مقال قرأته للأستاذ عبدالعزيز عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم (إيسيسكو) في جريدة «الحياة» بتاريخ 2008/11/28م وكان بعنوان «مشروع النهوض باللغة العربية... مشروع أمة» جاء فيه ما يحمل بارقة أمل، وما يدلل على مستوى الوعي بهذه المسألة والرغبة في البحث عن حلول واقعية:

«إن النهوض باللغة العربية من النواحي كافة يجب أن يتصدَّر أولويات العمل العربي المشترك على جميع المستويات. ولا أقول العمل العربي الثقافي التعليمي فحسب، بل أقول العمل العربي العام على مختلف الأصعدة، لأن النهوض باللغة ليس مسألة ثقافية، ولا هي مسألة تربوية تعليمية فحسب، وإنما هي مع ذلك مسألة السيادة والأمن والاستقرار والمصير».

* كاتبة لبنانية

يقول وهو يحدد، من هذا المنطلق، دور المثقفين في هذا المشروع الوطني القومي بصفتهم الفئة المعنية بإعادة إنتاج القيم ومفهوم الهوية مع التأكيد على الدور المميز للغة في الفضاء السياسي والثقافي للأمة:

«لا تزال اللغة العربية موضوع اهتمام المثقفين الغيورين وفي طليعة قضايا الأمن القومي في الوطن العربي، بالمفهوم الشامل للأمن الذي ينصرف إلى الحفاظ على المقومات والخصوصيات والهوية العربية الإسلامية والقيم الثابتة التي تضمن استقرار المجتمع وحماية سيادة الدولة وتأمين مستقبل الأجيال الصاعدة. إن اللغة العربية هي وعاء ثقافتنا وعنوان هويتنا، والمحافظة عليها تعدّ محافظة على الذات وعلى الوجود».

فكيف نفهم نحن، من جهتنا، العلاقة بين اللغة وواقع الثقافة العربية في عصرنا الراهن؟ وكيف نستطيع تحديد موقعنا في هذا الفضاء المتموج، غير محدد المعالم، الذي يعج بقيم ومفاهيم ومصطلحات غريبة وفضفاضة من الصعب علينا غربلتها والاحاطة بها؟

عود إلى بدء

اللغة، تسمي الأشياء، وتمنحها وجوداً بالعلاقة مع من يسميها، لأننا بتسميتنا لها نبتعد عنها مسافة، ونحدد طبيعة علاقتنا بها، وبالعالم الذي ننتمي إليه. إنها وسيلة انفصال بقدر ما هي وسيلة اتصال. إنها النظام في الفوضى، والخروج من العماء إلى النور. إنها الوعي بالذات والعالم وبما تعنيه لنا الأشياء والموجودات المحيطة بنا. وبما أن لكل لغة نظاماً، ومحتوى، وفضاء، وهوية، لذلك هي رحم وانتماء. هي أم وأمة.

اعتقد الإنسان في الماضي، وهو لا يزال يعتقد على الدوام، بقدرته على الفعل والتأثير في الوجود عن طريق اللغة (الطقوس، الكتابة، الشعر، الغناء، الخطابة...) وكان يظن بأنه مبدع الكلمات، وأنه من يسمي الأشياء، وأن إدراكه لمدلولات المعاني يمنحه القوة والسيطرة عليها. فاللغة هي سلطة إذن، وهي السلطان الذي يمارس سحره على العقول، والقدرة الذهنية التي تمنح للقوة المادية شرعية وثباتاً. ليست اللغة إذن مجرد وسيلة للاتصال، وليست الغاية منها، كما يبدو، فقط تجريد المعاني الضرورية للاتصال بعالم الغيب المتعالي من خلال ترميز الواقع والنزوع به نحو الأعلى والأسمى، لأن العلاقة بين المادي والمعنوي شديدة الالتصاق، ولأنها جزء من المفاهيم التي نتصارع عليها ومن أجلها.

خصوصية اللسان العربي

نعيش اليوم في عصر يكثر فيه الحديث عن أزمة اللغة العربية. وهناك من يدعي بأنها قادرة على الإحاطة بعلوم العصر، وهناك من يحلو له الحديث عن جمودها وتحجرها، في الوقت الذي تطالعنا فيه دراسات تبين أوجه التغيير التي طرأت على اللغة العربية وتحكم عليها بأنها في طور الابتعاد عن اللغة الفصحى الأم.

لا شك عندي في أن أكثر ما يطبع وينشر حالياً من إنتاج أدبي معاصر مكتوب باللغة العربية

الفصحى، هو بالفعل أقرب إلى الفكر الغربي الحديث منه إلى العربية.

لا تتحدد خصوصية اللسان العربي فقط بالشكل اللغوي الصرفي والنحوي والإيقاعي الذي نطق به أجدادنا، لأننا نتوصل من خلال الاستقراء أنهم نطقوا في البداية بأشكال مختلفة. فاللسان هو المنظومة التي تتيح لنا التعبير والتواصل عبر الكلمات والجمل وتركيبات الجمل. وأما اللغة، فهي الاستخدام الذي قاموا به لهذا اللسان بالعلاقة مع العالم والآخر ومع المخزون الداخلي الوجداني لذاتهم الأصيلة. منشأ اللغة العربية كان في فراغ الصحراء، في امتدادها وانكشافها أمام الرؤية وشدة سطوعها. والبيئة بسيطة قاحلة وجافة ولا حدود لها. الحياة فيها قاسية وشروط العيش تستدعي الترحال الدائم. لا ملك، لا متاع، لا تزويق للعالم. شرط الحياة هو التخفف من الأحمال والسرعة في الحركة. توليد الطاقة من المخزون وتخزين المعرفة في الكلام. وكانت اللغة العربية هي السجل، وهي التاريخ، وهي الذات الوحيدة الباقية التي عبرت تلك البيئة ذات الشخصية المحددة، لأن اللغة هي ما استطاع العربي انتشاله عبر تاريخ طويل من الغزو والدمار والجوع والسبي والتطاحن العشائري والمعاناة بكل أشكالها. فكانت هذه اللغة البديعة أثمن ما انتشلته إنسانية العربي من تجربته الطويلة، وعبَّر من خلالها عن توقه إلى العدل والحكمة والجمال، صاغها في معانٍ وألفاظ عكست شخصيته ومثاله، وكذلك بيئته وفضاءه اللامترامي، فجاءت لغة وضوح وبيان.

مشكلة العربي أنه ملزم بالحقيقة، سواء بلغته أم بدينه. إذا تكلم أفصح، وإذا أبان أوضح. هكذا يجب أن يكون: «اعلم أن العلوم البشرية خزانتها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصل لها ذلك بالتصور للحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً، إما بغير وسط أو بوسط، حتى يستنتج الفكر بذلك مطالبه التي يعني بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير فلا بد من بيانها لآخر: إما على وجه التعليم، أو على وجه المفاوضة، تصقل الأفكار في تصحيحها. وذلك البيان إنما يكون بالعبارة، وهي الكلام المركَّب من الألفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركَّبة من الحروف، وهي كيفيات الأصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر، وإن كان معظمها وأشرفها العلوم، فهي شاملة لكل ما يندرج في الضمير من خبر أو إنشاء على العموم.

وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدي بها ما في الضمير، لمن توارى أو غاب شخصه وبعُد، أو لمن يأتي بعد ولم يعاصره ولا لقيه. وهذا البيان منحصر في الكتابة، وهي رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ النطقية حروفاً بحروف وكلمات بكلمات. فصار البيان فيها على ما في الضمير بواسطة الكلام المنطقي. فلهذا، كانت في الرتبة الثانية واحدة فسمي هذا البيان. يدل على ما في الضمائر من العلوم والمعارف، فهو أشرفها». (مقدمة ابن خلدون). كذلك هي لغة البيان، إنها إخراج الباطن إلى الظاهر، وكل أدوات المعرفة في الثقافة العربية ترتكز إلى اللغة، وكل الحقيقة تدور حولها لأن البيان هو جوهر الوعي، والفصاحة هي أعلى مقام في التقدير.

واقع اللغة العربية

يقف العربي اليوم، على أعتاب قرن جديد، وهو عارٍ من تاريخه. يحمل على أكتافه تراثاً ضخماً من العلوم التي انقطعت الصلة المعرفية بينه وبينها، بينما يواجه أمامه سداً هائلاً من العلوم الحديثة المكتوبة بلغات لا تخصه، وهو غالباً لا يتقن استعمالها. يقف أمام الحقيقة بدون لغة يفكِّر بها ومن خلالها، وبدون فضاء محدد ينتمي إليه بكليته وهويته ووجدانه وانفعاله الحميم. إن كونية المبادىء لا تغني عن خصوصية الخواص والتركيب، ودور العلم في الحياة هو إبلاغ الإنسان عن أحواله بقدر ما هو إفصاح له عن حقيقة العالم من حوله. لذا، فإن البحث عن وطن حقيقي في هذه اللغة الأم التي نكتب بها اليوم بات من الأولويات. الكتابة تحولت في عصرنا الحاضر إلى أداة للترويج لرموز سياسية واجتماعية لا تخوم لها ولا هوية محددة. توسيع وعي الكاتب وإحساسه بالأخوة والتضامن مع غيره من البشر وكونية بعض المبادىء الإنسانية يجب ألا تقودنا إلى التعويم وفقدان الشعور بالخصوصية والتميز. وعلى الكتابة الحديثة أن تعيد تقييم تجربتها بالعلاقة مع التراث والتاريخ، ومع البيئة والثقافة المحلية، ولا أقصد بأن تكون مجرد آلة تصوير للواقع، أو أداة جلد وانتقاد مستمر للعيوب والنواقص، ولا أن تكون مجرد احتفال فولكلوري طقسي ببعض أوجه الثقافة المحلية. لغة الكتابة يجب أن تكون وجهتها البحث عن الإنسان المطمور والمهمش فينا، بقيمه ومفاهيمه وأخلاقه وتمرده وخشيته وذائقته الجمالية والانفعالية وذاكرته الواعية واللاواعية، لأنه وجهتنا، ومن يجب أن نساعده على النهوض والوقوف على قدميه واستعادة دوره الذي تخلى عنه قسراً وقهراً. من هذه الزاوية يجب أن تقاس قيمة الكتابة، بمستوى تضامنها مع الإنسان العربي في معاناته وقلقه، وبمستوى قدرتها على رصد همومه وتطلعاته، ومعرفة كيف يمكن لها أن تصوغ أحلامه شعراً ونثراً وإبداعاً. وإذا لم تكن هذه اللغة قادرة على أن تخلق فينا الانخطاف والشوق الذي يوسع حدود الذات ويملؤنا بالحنين ويبعث الحياة في الأوصال الميتة، فلن تنجح في أداء مهمتها.

إن الخروج إلى الحرية لا يكون إلا بتوسيع معرفة الإنسان الوجودية بكنه ذاته، معرفة جمالية، حسية وحدسية، علمية ومادية، والتي لن نتمكن من الوصول إليها بدون أداة اللغة التي يجب أن تلبي حاجات الوجود العصرية دون أن تفقد صلتها بامتدادها التاريخي والأخلاقي الوجداني. فالحياة ليست بدعة، ولا هي تقليد ميت، بل ضرورات وحاجات، وهي عبور متواصل نحو الداخل وعود دائم إلى البدايات ووقوف على الطلل وكشف مستمر لتجارب لا تتوقف ولا تستكين، ومعجزة الكلام الحر أنه ينص وينص، دون حاجة إلى تفسير أو دليل ، لأنه من لغة بيان.

هكذا تختار الشركات أسماءها

يومياً، تطالعنا أسماء مئات الشركات.. شركات نتعامل معها، أو نقرأ أسماءها في الشوارع، أو نتابع أخبارها على شاشة التلفزيون. نعرف بعضها، ولا نعرف عن بعضها الآخر غير الاسم. وفيما لا يستوقفنا بعضها في شيء، تثير بعض الأسماء حيرتنا لجهة مصدرها وسبب اعتمادها.

تامر حسين* يجوب بنا على أبرز العوامل المؤثرة في اختيار الشركات لأسمائها المحددة دون غيرها، من خلال ما صار علماً وفناً قائماً بحد ذاته، ازدادت أهميته بازدياد المنافسة في الأسواق خلال العقود الأخيرة.



* باحث اقتصادي مصري



تكمن قيمة اسم الشركة في دلالته على أشياء أعمق بكثير من مجرد اطلاع العملاء على مجال عملها. فطبقاً لإيرا باكراك مؤسس «نيم لاب»، وهو مكتب استشاري متخصص في اختيار أسماء للشركات المؤسسة حديثاً، فإن أحد أسباب تأسيس شركة جديدة، هو كونها تحمل قيمة مستجدة، وفكرة فريدة. وما لم تنأ بشركتك عن الأسماء التقليدية، فستفشل في الإعلان عن الجديد الذي تأتي به.

لقد أدى انفتاح الأسواق وعولمتها جنباً إلى جنب، مع تخفيف قبضة الدولة على أسواقها الداخلية، إلى اكتظاظ السوق الواحدة بعشرات -بل مئات- المتنافسين على جذب انتباه العميل إلى سلعهم وخدماتهم على الرغم من تشابهها. ومن ينظر كيف تنوء أرفف مراكز التسوّق الحديثة اليوم بما عليها من سلع، وما يرافقها من عروض ترويج، ليدرك كيف أدى هذا التعدد إلى نقيض ما قُصد به أساساً ألا وهو حرية الاختيار.

فحرية الاختيار هي في قدرة المشتري على المقارنة بين البدائل المتنافسة سعراً وجودة، ومن ثم انحيازه إلى البديل الذي يوفر له أعظم منفعة. أما إن زاد تنوع البدائل شكلاً وموضوعاً وسعراً وعروض ترويج على حد معيّن، فسيؤدي ذلك إلى الحيرة، وربما الاختيار كيفما اتفق، ما دامت جميعاً تخدم الغرض الذي خرجت أساساً للتسوق من أجله.

يدرك أصحاب الأعمال هذا تماماً مثلما يدركه المستهلك العادي. ولهذا يلجأون إلى وسيلة قلما تخطئ في جذب اهتمام المشتري، وإن كثرت البدائل المتنافسة على شد انتباهه، ألا وهي الاسم.

لقد فطنت الشركات الكبرى أولاً لما للاسم المميز من قدرة على استيقاف العميل واستمالته. فاختارت أسماء، لا تدل على مجال عمل قد تشترك فيه مع غيرها وحسب، بل تجاوزت ذلك إلى حالة شعورية وصورة ذهنية محببة تطالع العميل فور سماعه اسمها. من ذلك على سبيل المثال «آبل» للحاسبات، التي قرنت في اسمها تصوراً مألوفاً وحالة معنوية استمالت على الفور أذهان عملاء قطاع

الحاسبات الآلية. فأول حرف من اسم الشركة هو حرف «A»، أول حروف الأبجدية الإنجليزية. وفيه من الدلالة على الالتصاق بالحالة المعرفية التي روّج لها عصر المعلومات ما فيه. كذلك رمزية الاسم العلمية (تفاحة نيوتن)، إضافة إلى كون التفاحة شيئاً عضوياً تخاطب لذته المزاج، مما يلطّف من برودة الآلة التي لا تحرِّك أية عاطفة.

وهناك مثل آخر لا يقل براعة في المعنى نفسه، وهو حالة شركة «فيزا» لبطاقات الائتمان. فهذا الاسم يطرح نفسه في صيغة متميزة شكلاً وموضوعاً عن نظيريه: «أمريكان إكسبريس» و«ماستر كارد». إذ يولِّدُ انطباعاً بأنه سيزيل الحدود من أمام حامله، تماماً كما تفتح تأشيرة السفر لصاحبها أبواب السفر إلى أرجاء العالم. وهو لا يعبِّر عن المعنى الجغرافي المحدود الذي تعبِّر عنه «أمريكان إكسبريس»، ولا الغامض قليلاً الذي تعبر عنه «ماستر كارد». فإذا نظرنا إلى تواضع ملكة التحليل المالي العميقة عند جموع المتعاملين ببطاقات الائتمان، وتقارب الخدمات التي تقدمها الشركات الثلاث، مع بهاء الطريقة التي تطرح بها «فيزا» نفسها على الجمهور، فأي الثلاث في رأيك ستكون أقرب إلى الاختيار؟ هكذا يسهم الاسم في كلا الحالتين (حالة آبل للحاسبات، وفيزا لبطاقات الائتمان) في شد انتباه العميل ضمن سوقين يتبارى فيهما متنافسان شرسان، وربط سلعة الشركة أو خدمتها بحالة شعور محببة ميزتهما عن المنافسين.

الاسم من أهم عوامل جذب العملاء، والناس يثقون بأصحاب بعض الأسماء أكثر من أصحاب أسماء أخرى

قبل مزيد من التفصيل، ثمة حقيقة مهمة، هي أنْ ليس بوسع اسم بمفرده مهما كانت عبقريته، أن يرفع شركتك إلى قمة النجاح أو أن يقوّضها. وإنما هو أحد أهم عوامل جذب عميلك، في سوق غصَّت بالمتقاتلين على انتباهه وعلى نقوده. فدعنا لا نتغاضَى عن هذه الحقيقة البديهية. وفي ضوئها، نورد فيما يلي خصائص الاسم الناجح، مستقين ما استخلصناه من زبدة تجارب منظمات الأعمال.

اسم الخدمة اسماً للمؤسسة

مقبول في حالة السلع أن يمنح العميل ولاءه لعلامة تجارية، احتلت موقعاً في السوق وروَّجت لنفسها بمهارة، دون اعتماد قرار الشراء على الشركة الأم المنتجة لهذه السلعة. فقد يُقبل العملاء على شراء حفاظات «بامبرز» أو أقراص «ألكاسلتزر» ويرتبطون بتلك العلامات التجارية، دون التعويل عند اتخاذ قرار الشراء على ما إذا كانت هذه الحفاظات أو تلك الأقراص قد أنتجت في مصانع «بروكتر أند جامبل» أو مختبرات «مايلز» أم لا. لكن ذلك غير مقبول إطلاقاً عند كون المؤسسة شركة خدمات. فهنا لا بد من أن ينطبق الاسم على المسمَّى، والعلامة على العروض التجارية المطروحة. ولنجعل من Federal Express مثالنا، وهي شركة لا تبيع سلعة وإنما تقدم خدمات. لقد وُفقت الشركة أولاً في انتقاء الاسم الأنسب لجوهر الخدمة التي تقدمها. إذ تصوِّر لفظة «Express»، ومعناها عاجل أو على جناح العجلة، طبيعة الخدمة وسرعة تنفيذها، فيما تصوِّر لفظة «Federal» رحابة ساحة عمل هذه المؤسسة، ولربما رمزت إلى شموليتها لكل الولايات المتحدة الأمريكية.. ولأن هذا الاسم لم يكن مناقضاً للقدرة على تسليم طرود العملاء في ميقاتها، قدمت الشركة نفسها إلى العميل بأوضح صورة، شكلاً ومضموناً. ورسخت الانطباع المبدئي الذي نقله اسمها إلى العميل منذ البداية.

لقد أجرت مجلة «علم النفس» الأمريكية استطلاعاً عن الأسماء التي تتناسب أكثر مع وظائف معينة، فوجدت أن الناس يثقون بميكانيكي يدعى برونو، أكثر من آخر يدعى تومي، وأن ممرضة تحمل اسم إيمي، أفضل من أخرى تدعى بات، لا لشيء إلا لما للأسماء من تصور استقر في أذهان الناس. وبحسب ما تقضي نصيحة وولي أولينز، وهو من الاستشاريين البارزين في علم هوية الشركات، يُعد اختيار الاسم موفقاً إن التزمت الشركة بدلالته. ويجانبها التوفيق إن خالفتها.

الاسم الموجه إلى قطاع مستهدف

يُعرف قطاع السوق بأنه مجموعة فرعية من المستهلكين، تتجانس خصائصهم الفردية والسكانية وميولهم الشرائية. أما الدور الذي يلعبه اختيار الاسم الموفق هنا، فهو تسريع تعرُّف العميل على الشركة، ولو عبر صفحات دليل المتاجر.



اجعل اسمك عين الخدمة التي تقدِّمها

فــي عــام 1984م، افتتــح وليام فــان دوميليــن أول فرع في سلسلــة «Hot'N Now» للمطاعــم السريعــة، بكلامازو في ولايــة متشجــان. أقدم دوميليــن على افتتاح هــذه السلسلة مؤمنــاً بأنهــا تقدم خدمة صــارت أغلب مطاعــم الوجبات السريعة مفتقــرة إليها، وهي تقديم طعــام ساخن وسريع. وإذ أدرك الرجــل أن قطاعه المقصود من الدعاية، لا يهتم بالتزويــق ولا الزخارف الداخلية، استغنــى عنها، ليستطيع بهــذا تقديم وجبة همبرجر ساخنة وسريعة بسعر منخفض جــداً. ولم يكن مستغرباً أن يجذب اسـم المطعم (ومعناه: ساخـن وفوراً) قطــاع الباحثين عن هــذه الخدمة تحديداً، ولا أن يستوقــف اسمــه عين الباحث في دليــل المتاجر عن متجــر للوجبات السريعــة. فتكاثرت فروعــه لتبلغ مئة فرع فــي خمس عشرة ولاية عــام 1990م. وتحلَّت مطاعم أخرى بالذكاء نفسه، فاختارت لنفسها أسماء مثل «خالي الدسم» و«مراقب الوزن».

اتسَّام الاسم بالمرونة

بدأت «شركة مينيسوتا للتعدين والصناعة» -كما يظهر من الاسم- في ولاية مينيسوتا وبقيت هناك عقوداً. لكن بعدما تبــوَّأ وليام ماكنايــت رئاستها، دخلــت الشركة في مجالات تجــاوزت كثيراً أعمال التعديــن والتصنيع التقليدية. فنمت أعمالهــا نمــواً مدهشاً واتسعــت رقعتها لا لتشمــل الولايات المتحــدة وحدهــا، وإنما قارات العالم الســت. ولما لم يعد مجال عملها مقتصراً علــى التعدين وحده ولا في مينيسوتا وحدها، لــم يعد ممكناً احتفاظها بالاســم القديم. فقررت تغييــره لتحمل اسمها الذي تُعرف به اليوم، وهو «3M»، وهو عدد حرف (m) الوارد في اسمها القديم.

و«كينتاكــي فرايــد تشيكــن» هي الأخــرى، بدأت فــي ولاية كنتاكــي وحدها. أمــا اليوم فيصعب العثــور على مدينة في العالــم لم يُفتتح فيها فرع لهذه الشركة. ولم يعد ممكناً لها هــي الأخرى أن تبقي على الاســم الأول، فغيرته إلى اسمها الآن، وهــو KFC. فالتجــارب تدلنــا على أن الشــركات التي نجحت فــي البقاء في ميدان الأعمال، تطــور ذاتها وتدخل مجالات لم تخطــط لدخولها يوم أُنشئــت. وبالتالي تحسن صنعــاً إذا وضعــتْ هذا في حسبانها ساعــة اختيار اسمها، وانتقت اسماً رحباً يتسع لهذه المجالات في المستقبل.

سهولة تذكر الاسم

ومــن أهم مواصفات الاسم هو أن يكون سهلاً على الحفظ، وينطبع في الذاكرة فوراً رغم تميزه، ومن أنجح الأمثلة على صــك اسم سهل ومميز لم يُسبــق إليه، نذكر شركة «ياهو». لقــد كان الظهور الأول لشخصية «ياهو»، في رواية «رحلات جيلفــر» لجوناثان سويفــت، وفيها تطالعنــا شخصية ياهو



ليُشر اسم شركتك إلى قطاع السوق المقصود

المتمــرد في مظهره ومسلكه علــى السواء. وكان البعض قد رأى في كل من جيري يانج وديفيد فيلو، مؤسسي ياهو، شيئاً مــن التمرد الذي اصطبغــت به شخصيــة السَمِي في رواية سويفــت. من جهة أخــرى، لم تنقطع صلــة الاسم Yahoo عــن أصلهــا الوظيفــي دليــلاً معلوماتيــاً «Yet another heirarichal officious oracle» الــذي هــو أســاس فكرة إنشــاء الشركــة. وهكذا حظيــت الشركة باســم مميز جداً عــن أسماء الشركات التي تأسست قبلها في المجال نفسه. وهذا مــا سيطبعها في أذهان ملاييــن المتصفحين عقوداً طويلة قادمة.

وهنــاك تجربة أخرى مشرقة من مجال مختلف، مثل شركة «Italiatour» للسياحة. فكلمة Italia ليست إنجليزية، لكنها شديدة الدلالة في هذه اللغة. يقول الخبير الاستشاري الذي اختار هذا الاسم: «لوكنا اخترنا اسم «Italytour»، لاختلفت دلالة الاسم وبريقه كثيراً. فكلمة «Italia» وهي كلمة أجنبية، مألوفة للناطق بالإنجليزية إضافة إلى كونها مفعمة بالإثارة والحيــاة. فلمــا قارنَّاها بالكلمــة الإنجليزيــة «Tour»، أتت سهلــة النطق، متفردة، غير مكررة، مــع احتفاظها بالنكهة الإيطالية». وهذا عين المراد من التسمية.

مخاطر المفردات شديدة العمومية

بوســع أولى الشركات العاملة في مجــال ما استخدام اسماً يدل علــى العمومية، مثــل «العامة للمحــركات» (General Motors)، و«العامــة للأجهــزة الكهربائيــة» (General Electric). ولكــن مــن الخطأ اقتفــاء آثار هــذه الشركات عنــد دخــول سوق سبقك إليــه منافسون. كمــا يجب تلافي مفــردات مثل «الشركــة القومية» أو «المؤسســة المتحدة»، فأيــة قومية من القوميات تتحدث عنها وتخدمها؟، ومع من



اجعل اسمك يعكس مدى امتداد خدمات شركتك

وجوب اقتران الاسم برمز

هناك أربعة عناصر أساسية لهوية أية شركة مهما اختلف مجال عملها: الاسم، والرمز، وشكل الحرف الطباعي، ومجموعة الألوان الخاصة. قد تكون الشركة موفقة في اختيار اسم يدل على الخدمة التي يحتاج إليها العميل كما مر علينا، إلا أن الخبراء يضيفون أن العين تتذكر كما يتذكر العقل تماماً. ولذا ينصحون بإضافة هذا الرمز، لتوكيد لفت انتباه العميل، والأهم، لاستبقاء هوية الشركة عالقة في ذهنه.

اتّحدتْ شركتك لتبرز إلى الوجود؟ فذاك كله يصعِّب على عميلك تذكر الاسم الذي اخترته، والوقت فات لاستعمال هذه المفردات لمجرد تمييزك عن منافس محلي هنا أو هناك. تخيل لو طرحت «ياهو» نفسها بالاسم التالي «General Internet Directory.com» ومعناها الدليل العام للإنترنت؟ لكان الاسم بالطبع أشار إلى كون الشركة محرك بحث وفهرساً لمحتويات شبكة المعلومات، ولكان عصياً في الوقت ذاته على التذكر، ولتوارى فور ظهور أول منافس له باسم جذاب.

> لأن العين تتذكَّر كما يتذكَّر العقل، ينصح الخبراء بإضافة رمز إلى الاسم

تَجنَّب الأحرف الأوائل

إياك أن تطرح نفسك على العميل بأسماء مؤلفة من أوائل أحرف الكلمات، وإلا قضيت على هويتك بالنسيان. لقد كان اسم «International Business Machine» أو «الشركة الدولية للآلات» هو أول ما قدمت به «IBM» نفسها للجمهور، وليس ذاك المختصر. ولم تقدم على تلك الخطوة إلا بعدما رسخت قدمها في السوق وأضحت رائداً وعلماً في صناعتها. ينطبق الأمر نفسه على تجربة «3M» و«KFC». فالأحرف الأوائل لا تعني شيئاً للمستهلك لا سيما إن كانت الشركة في مستهل حياتها العملية، فمآلها النسيان.

وعملية تصميم الرمز باتت فناً قائماً بحد ذاته ومجال اختصاص. وتصدر سنوياً عدة كتب حول تطور هذا الفن وجديده. وباتت كل الشركات الكبرى والمتوسطة في العالم تقر بأهميته، وبضرورة تطويره ليس فقط بتطور أعمال الشركة وتوسعها، بل تماشياً مع تطور المذاهب الفنية وتحديثها، كي لا تبدو الشركة ككل وكأنها كفّت عن تطوير نفسها واللحاق بالعصر.

أوْسد الأمر أهلَه

بعد كل ما تقدَّم، لا يمكننا أن نتخيَّل أن يقوم مؤسس شركة ما باختيار اسمها بنفسه من دون استشارة الخبراء. فكما يحسن المحاسب المحترف احتساب الضريبة أفضل من المؤسس، وكما تحسن وكالات الإعلان عملها إن أسندت إليها تصميم حملتك الدعائية، يحسن خبير التسمية عملاً إن أوكلت إليه مهمة اختيار اسم لشركتك.

ومرافقة عمل الخبراء في مجال اختيار اسم الشركة ورمزها، يبيِّن لصاحبها أنه عمل يتطلَّب جهداً لا يخطر على بال غير المطلعين. وغالباً ما يقدِّم الخبير سلسلة اقتراحات ويناقشها واحداً واحداً بالتفصيل مع صاحب العمل، حتى يستقر رأي الطرفين على الأفضل.

ومـن الأمثلـة البـارزة التي نذكرها فـي هذا الإطـار (وإن كان لا يعبِّـر عـن حالة نموذجيـة) هو أنه لمـا سعت شركة «إنترناشونـال هارفستـر» لتغييـر اسمهـا إلـى «نافيستار» (لاعتبارات سلفـت)، راوحت تكلفة الاستشاريين وتصميم العلامات والرموز والمطبوعات وغيرها بين 13 و16 مليون دولار. وبالطبـع لم تتضمن هذه النفقات تكلفة الوقت الذي تطلبـه التغييـر والعـبء العاطفي لـدى الأشخاص الذين شاركوا في إحداث هذا التغيير. فأي الخيارين أهون لديك؟ أن تبـدأ البدايـة الصحيحـة، أو تتكلف تصحيـح الأخطاء لاحقـاً؟ كما نحسبـك لا تريد يومـاً تُقدم فيه علـى توسعة نشاطـك والخروج إلـى الأسواق الدوليـة، لتلاحقك دعوى قضائية من شركـة عالمية سبقتك إلى حق علامة تجارية، شابهتها علامتك دون قصد منك ولا تعمُّد. فاخرج من عنق الزجاجة ابتداءً، وأوسد الأمر إلى أهله.



تجنب المفردات الشديدة العمومية

عربياً..
خصوصيات ووعي متزايد

ازداد الوعي في البلاد العربية عموماً خلال العقدين الأخيرين بأهمية الدور الذي تلعبه هوية الشركة، وبشكل خاص اسمها ورمزها. بحيث صارت كل الشركات الكبرى (وحتى المتوسطة القادرة على تحمل تكلفة الأمر) توكل أمر اختيار الاسم والرمز إلى دور متخصصة، وغالباً ما تعلن عن منافسة ما بين أكثر من دار متخصصة في هذا المجال، سعياً إلى الأفضل، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

ولكن بالعودة إلى ما قبل عقدين أو أكثر، ولأن النمو الاقتصادي في معظم البلدان العربية كان أسرع من نمو الاهتمام بالترويج والتسويق والمنافسة (التي كانت غائبة)، نلاحظ أن بعض الاتجاهات في التسمية قد فرضت نفسها وكأنها «موضة رائجة». مثل إضافة اللازمة «كو» اختصار (company) بعد أي اسم، حتى لو لم تكن المؤسسة شركة فعلاً ويملكها شخص واحد، وصولاً إلى مكاتب الخدمات والمتاجر الصغيرة. غير أن الوعي المتزايد لعب دوراً مهماً في تراجع هذا النوع من التسميات الذي لا يعبر إلا عن التبجح في المؤسسات الصغيرة وينفر العملاء الواعين، لأنه يثير فوراً أمامهم مسألة الصدقية عند المؤسسة.

وهناك خصوصية أخرى تتجلى في النظرة الشاملة إلى مجمل أسماء المؤسسات العربية. وهي تسمية الكثير منها بأسماء العائلات التي تملكها خاصة في حالة وجود شراكة ما بين أبناء البيت الواحد في ملكيتها، أو ما بين ورثة المؤسس. والأمر ليس عيباً بحد ذاته. فبعض كبريات المؤسسات العالمية يحمل أسماء عائلية، ويحتفظ بها، حتى بعد خروج الملكية من نطاق العائلة.

ولكننا نلاحظ أن غالبية هذه الفئة من الشركات تتعاطى أعمالاً مرتبطة بموهبة المؤسس وقدراته الفردية المميزة وسمعته الشخصية في مجال العمل مثل دور الأزياء والمجوهرات الكبرى. وبالتالي فإن تسمية الشركة باسم صاحبها أو باسم عائلته، يرتبط في نجاحه أو فشله باعتبارات عديدة تستوجب الدراسة المفصلة والصادقة.

أما آخر «الصيحات» في أسماء الشركات العربية، فتكمن في إضافة الضمير المتصل «الياء» بعد كلمة واحدة ترمز إلى نوعية العمل أو السلعة الأساسية التي تتعاطى بها الشركة. وهنا أيضاً، يكفي القارئ أن يتلفت حواليه ليجد سيلاً من هذه الأسماء، وليكتشف فوراً أن هذه «الصيحة» تبدو ملائمة لهذه الشركة، وغير ملائمة على الإطلاق لأخرى.

وإلى ما تقدم نضيف إن عالمية بعض الشركات، أو ارتباطها بعملاء أجانب في بلدان مختلفة، روَّج لفئة من الأسماء يشترط فيها أن تكون سهلة اللفظ بالعربية والإنجليزية، وأن تكتب بسهولة في اللغتين أيضاً من دون أن يؤدي الاختلاف اللغوي إلى اختلاف في لفظ الاسم.

ولكن بموازاة هذا الاهتمام المبرر والمفهوم، باتت بعض المدن العربية تستوقف النظر بطغيان الأسماء الأجنبية المستوردة من لغات العالم المختلفة. وهنا أيضاً، إذا كان للأمر ما يبرره في بعض الحالات، فإنه في حالات كثيرة هو مجرد تقليد أعمى لا مبرر له غير الاعتقاد الخطأ بأن العملاء يشاركون صاحب المؤسسة انبهاره بكل ما هو أجنبي ومستورد. ولا يدل بالتالي سوى عن مشكلة ثقافية وأزمة وعي. وهذا موضوع آخر.

يا مهندس الطيران..
هل أنا في أمان؟

مهما اعتاد المرء على السفر بالطائرة، يبقى للسفر جواً بعض المهابة. وهذه المهابة غالباً ما تكون قلقاً مفهوماً ومبرراً عند غير المعتادين على ذلك. فما الذي يجعل الطائرة بوزنها وحمولتها وسيلة آمنة للنقل؟ وهل ستمر مدة الرحلة من أولها إلى آخرها بسلام؟ وما الذي يقوم به مهندس الطيران وقائد الطائرة والطاقم، ومن قبلهم فرق الصيانة الأرضية، وحتى الشركة الصانعة للطائرة لضمان سلامة الرحلة وتوفير القدرة على مواجهة الأعطال الميكانيكية والمفاجآت الخطرة؟ وكثيراً ما نوسع مجال الطواف أمام خيالنا وأسئلتنا: فما هي المسيرة التي اجتازتها صناعة الطيران حتى وصلنا إلى هذا المستوى من الأمان. وكيف تحسنت معايير السلامة خلال السنوات الخمسين الأخيرة؟ ولماذا تقع بعض الأعطال الميكانيكية القاتلة من حين إلى آخر؟ وهل هناك طراز من الطائرات آمن أكثر من غيره؟ المهندس الخبير في صيانة الطائرات لطف الله ميشيل يجيب هنا عن كل هذه الأسئلة بما يشفي غليل المتسائل، ويبعث الطمأنينة في قلبه.



بداية، نتوجه إلى الذين يخشون السفر بالطائرة أو يتهيبونه بالإشارة إلى أن الطائرة آمنة أكثر من السيارة بأضعاف مضاعفة. فاستناداً إلى إحصائية أجراها «المجلس الوطني الأمريكي للسلامة» على مدى ثلاثة أعوام (1993 – 1995م)، تبيَّن أن معدل عدد القتلى على الطرقات السريعة في أمريكا خلال ستة أشهر (حوالي 21,000) يعادل إجمالي كل القتلى في حوادث الطيران على مستوى العالم بأسره منذ ظهور الطيران النفَّاث قبل ذلك بأربعة عقود.

ولو أخذنا العام 2000م على سبيل المثال، لوجدنا أن عدد ضحايا حوادث السير في أمريكا وحدها بلغ 41,800 قتيل، في حين أن إجمالي ضحايا حوادث الطيران في العالم كان 848 شخصاً فقط، أي أن الطائرة آمنة أكثر من السيّارة بنحو 22 ضعفاً.

ولكن رغم وضوح هذه الإحصاءات، فإننا نتهيب السفر جواً أكثر من السفر براً. إذ لا مجال عموماً لمقارنة الشعور خلال الانطلاق بالسيارة إلى وجهة ما بالشعور عندما تنطلق الطائرة على المدرج استعداداً للإقلاع. فالمسألة هي أولاً وأخيراً نفسية، وتعود إلى طبيعة الطيران بحد ذاته، حيث على الهواء الخفيف أن يحمل كتلة معدنية ضخمة بكل ما على متنها من ركاب وأمتعة، وإيصالها بدقة إلى نقطة محددة. وتتعزز مهابة الرحلة الجوية بما نسمعه من حين إلى آخر عن حوادث تحطم الطائرات. ولكن، علينا أن نتنبه إلى أن ندرة هذه الحوادث هي ما تجعلها تحتل صدارة الأنباء. ففي العام 2000م، نقلت شركات الطيران التجارية 1.09 بليون مسافر، في 18 مليون رحلة، ولم يقع غير 20 حادثاً أدى إلى وقوع وفيات.

ما الذي يجعل الطائرة تطير؟

لكي نفهم مجال سلامة الطيران، ونبدِّد بعض الأوهام من أذهان القلقين علينا أن ننطلق من مبدأ الطيران بحد ذاته.

تتطلب الطائرة لتحلق قوتين: قوة دافعة، وقوة رافعة. المحرك يولد القوة الدافعة إلى الأمام، في حين أن الشكل الهندسي للأجنحة يولد القوة الرافعة. فالأجنحة هي التي تبقي الطائرة محلقة. وبالتوسع قليلاً في وصف الطائرة، نقول إنها تشبه جسم الإنسان. ففيها هيكل صلب مثل الهيكل العظمي، يغطيه غشاء رقيق من الخارج أشبه بالجلد. وللطائرة أطراف متحركة مثل اليدين والرجلين، وهي الجنيحات والروافع والدفة التي توجه حركة الطائرة في الجو، ثم العجلات التي تسير بها على مدرج المطار. فالمحركات هي عضلات الطائرة، أما الرادار واللاسلكي والجيروسكوب (جهاز حفظ التوازن) فهي في مقام الحواس عند الإنسان.

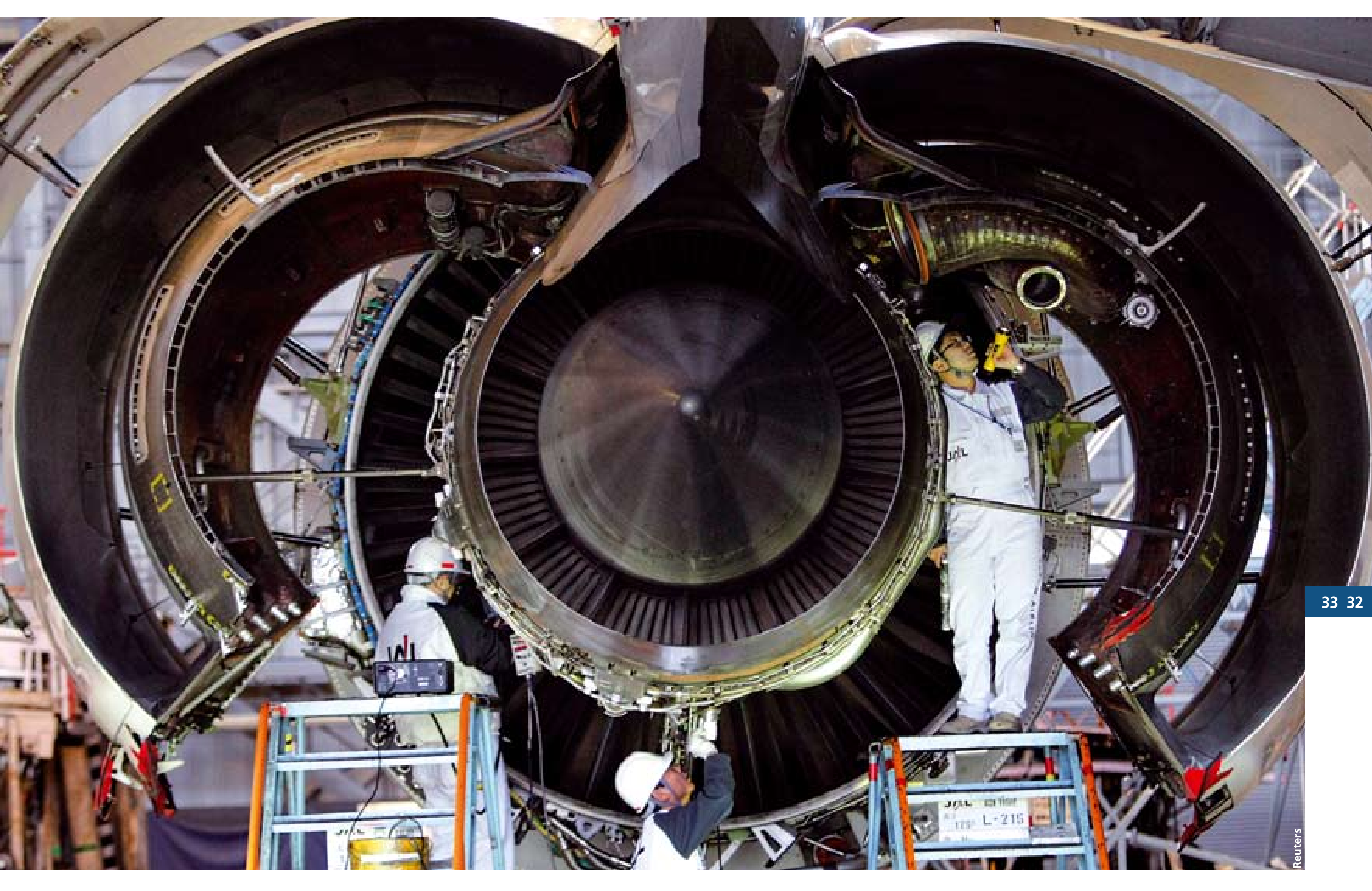
وتطير الطائرة وفق ما يعرف باسم مبدأ برنولّي، وهو ببساطة المبدأ القائل إن الهواء حين يسرع في حركته، يخف ضغطه. ولما كان الجناح محدودباً من فوق ومسطحاً من تحت، فإن الهواء تحت الجناح يتحرك ببطء حين تتقدم الطائرة، في حين أنه يتحرك بسرعة فوق الجناح حيث يصبح الضغط خفيفاً. وهذا الفرق بين الضغط الخفيف فوق الجناح، والضغط الأكبر تحته، هو ما يرفع الطائرة في الهواء. وتسهيلاً لفهم الأمر، أمسك بيديك ورقتين من طرفيهما وانفخ بينهما، فإذا بهما تلتصقان بدل أن تفترقا. وبذا يثبت لك باختبار بسيط أن سرعة الهواء خففت الضغط بين الورقتين، فأدى الضغط من فوقهما وتحتهما إلى التصاقهما. وكل من جناحي الطائرة يتألف من قسمين: أحدهما ثابت، والآخر متحرك يحدد وظيفة الجزء الثابت في مراحل الطيران المختلفة مثل الارتفاع والهبوط وتغيير الاتجاه.

سقنا هذا التمهيد حول مبادئ الطيران لأنه يساعدنا على فهم مكامن الخطر من عدمها خلال الرحلات الجوية، ومدى التطور الذي بلغته صناعة الطائرات في مواجهة المخاطر أينما وجدت.

المحرك: من تطوره إلى صيانته

في الطائرات القديمة، كانت محركات الطائرات شبيهة بمحرك السيّارة، تعمل بواسطة مروحة تسحب الهواء لتوفير قوة الدفع اللازمة لسحب الطائرة. ولكن المحركات الحديثة التي تعنينا اليوم، لأنها هي التي صارت معتمدة في كل الأساطيل الجوية حالياً، هي المحركات النفّاثة التي يعود اختراعها إلى السير فرانك ويتل (1907 – 1996م) العقيد في القوات الجوية الإنكليزية، والمعروف بأنه أب الدفع النفّاث.

تعمل هذه المحركات بواسطة وقود خاص يعرف باسم وقود الطائرات، وهو يشبه الكاز المنزلي، ويتميز ببطء



Reuters

اشتعاله مقارنة مع بنزين السيارات، وذلك ليس لأنه أرخص ثمناً فقط، بل لأنه آمن أكثر منه بالنسبة إلى سلامة الطائرة.

أما أكثر القطع حساسية في المحرك النفّاث فهو التوربين، المكون من شفرات تسحب الهواء من الأمام وتنفثه بقوة من الخلف. وتتولد من حركته درجة حرارة عالية جداً، فيصبح عرضة للأعطال. ولذا يثابر العلماء على تطوير توربينات المحركات، من خلال تطوير المزيج المعدني الذي تصنع منه الشفرات بحيث يصبح أخف وأقوى في آنٍ واحد، إضافة إلى المساعي الدائمة لتحسين طرق التبريد، بحيث يصبح المحرك قادراً على تحمل درجات حرارة أعلى، من دون التعرض للأعطال.

محرك واحد يكفي؟

هناك طائرات تحمل على جناحيها أربعة محركات (اثنان على كل جناح) وهناك طرز من الطائرات المزودة بمحركين فقط. وقد أدى هذا الاختلاف إلى رواج اعتقاد شائع أن الطائرات ذات الأربع محركات هي آمنة أكثر من الطائرات ذات المحركين، «لأنه في حال تعطل أحد المحركات يمكن لقائد الطائرة أن يحقق التوازن في الضغط على الجناحين من خلال إطفاء المحرك المقابل للمحرك المعطل على الجناح الآخر»!؟ وهذا الاعتقاد خطأ.

فعندما تكون الطائرة ذات المحركين فقط محلقة في الجو، ويتعطل أحد المحركين فإنها لا تتأثر. إذ يمكن لقائدها متابعة الرحلة حتى أقرب مطار. الأمر نفسه ينطبق مع شيء من الاختلاف في حالة الإقلاع. ففي هذه المرحلة تولد المحركات قوّة عظيمة لدفع الطائرة، وتعمل حتى حدودها القصوى. فإذا تعطَّل محرك خلال عملية الإقلاع، لا خوف على الطائرة من السقوط، لأن القوة الدافعة من المحرك الآخر تخول القبطان السيطرة على الطائرة والعودة بها إلى المدرج. وهذه العودة إلى المدرج أو الهبوط الاضطراري في أقرب مطار، لا تعود إلى عجز الطائرة عن متابعة الرحلة، بل لدرء خطر تعطل المحرك الثاني.

أما في مرحلة الهبوط، فإن الحوادث القليلة التي تقع لا تأتي عادة من المحركات، بل من العوامل الطبيعية، وأهمها الجيوب الهوائية التي تتألف من هواء ساخن صاعد.

فالهـواء الساخن هو أقل كثافة من الهـواء البارد، وبالتالي فـإن قدرته على حمل الطائرة هي أقـل. ولذا، عندما تكون الطائـرة محلقـة عالياً وتدخـل في هذا الجيب مـن الهواء الساخـن، فإنها تهبط فجـأة حتى تصل إلـى الهواء البارد الـذي يحملها، تمامـاً كجسـم يسقط على فراش مـن الإسفنج. ولكن في حالات نادرة جداً قـد تكون هذه المطبات الهوائية قريبة من مـدرج الهبوط، فتهبط الطائرة بسرعة وترتطم بالأرض قبـل أن تجد الهواء الأبرد القادر على حملها.

تطور التحسينات التي طرأت على صناعة الطيران خفَّض نسبة الحوادث من حادث لكل 140 مليون ميل طيران إلى حادث لكل 1.4 بليون ميل

أبرز المواضع الحساسة في الطائرة

ومن المواضع الحساسة في الطائرة «جهاز الهبـوط» الذي يحمـل العجلات والنوابـض العاملة بضغط الهـواء لامتصاص صدمة هبوط وزن الطائـرة على مدرج المطـار. ففي حال تعطـل الآلية التي تسمـح بإخراج جهاز الهبـوط الذي يكون موضباً داخـل الطائرة خلال التحليق، أو الآليـة التي تؤمن حسن أداء النوابض العاملة على ضغط الهواء، يمكن للطائـرة أن تواجه متاعب خطرة. أما أخطر مشكلة قد تواجهها الطائرة أثناء الطيـران، فهي الحريق الناجم عن تماس كهربائـي. ففي الطائرة المدنية الكبيرة نحـو 100 كيلومتراً من الكوابل والأسلاك الكهربائية، وهذا ما يجعل، نظرياً، خطر احتكاك كهربائي أمراً وارداً.

ومـن المتاعب الطارئـة نذكر المشكلة التـي تمثلها الطيور الكبيـرة، التي يمكـن للمحـركات أن تشفطها إلـى داخلها فتتعطل. وغالبـاً، يقتصر الأمر على محـرك واحد. أما ما حصل مع الطائـرة الأمريكية التي عطلت الطيور محركيها دفعـة واحـدة، خلال شهـر ينايـر الماضي، فهـو أمر نادر الحـدوث جداً. ولكن حتى في هذه الحالـة، فإن نجاح قائد الطائـرة في الهبـوط على نهـر «الهدسـون»، وإنقاذ جميع الـركاب أمرٌ يزيد مـن الثقة بالطائرة وبوجـود فسحة أمل دائماً حتى في أسوأ الظروف.

الهوس بالسلامة.. من المصنع إلى الصيانة

كيـف يضمـن المهندسـون إذن سلامـة الطائـرة، بحيث أصبحت الرحلات الجوية آمنة أكثر من النقل بالسيّارة؟

لقد خطت هندسة الطيران خطوات واسعة خلال السنوات الخمسيـن الماضيـة أدت إلى جعل الطيـران المدني آمناً أكثـر فأكثـر. فقبل ثلاثين عامـاً كان يُسجَّـل وقوع حادث طيـران واحد كلمـا طارت الطائـرات مجتمعـة نحو 140 مليـون ميل. أمـا اليوم، فقد صار هنـاك حادث واحد لكل 1.4 بليـون ميل. أي أن النسبـة انخفضت 10 مرات تماماً. وحتـى اليوم، لا تزال موازنات الأبحـاث عند أكبر صانعي الطائـرات المدنية وهمـا «بووينغ» الأمريكيـة و«إيرباص» الأوروبيـة، تقاس بمليـارات الدولارات سنويـاً. ولا مجال هنـا لتعداد التحسينـات التقنية التي دخلت على صناعة الطائـرات، ولا تـزال تدخل كل يـوم. غير أننـا نشير إلى أهمهـا مثل اختـراع الرادار الذي يسمـح بمراقبة الأجواء بشـكل شامـل، ووسائل الاتصـال اللاسلكي التـي تحسن أداؤهـا واتسع مداها، وأخيراً الكومبيوتر الذي وسّع مجال المراقبة الميكانيكية وسرّعه وقلص هوامش الخطأ كثيراً.

«حادث الطيران».. نوعاً وعدداً

تحدِّد المنظمة العالمية للطيران المدني حادث الطيران في ملحقها الثالث عشر على أنه: «حدث مرتبط بتشغيل الطائرة، يقع بين اللحظة التي يصعد فيها أي شخص إلى متن الطائرة بنية السفر، واللحظة التي يتم فيها خروج كل المسافرين من هذه الطائرة، ويتعرض من جرائه شخص أو أكثر إلى الوفاة أو جروح خطرة، أو تتعرض من جرائه الطائرة إلى أضرار دائمة، أو هيكلية، و/ أو تعتبر من جرائه الطائرة مفقودة، أو في موضع لا يمكن الوصول إليه». ويظهر الجدول التالي استمرار تحسن مستويات السلامة في الطيران المدني من خلال الانخفاض الملحوظ في عدد الحوادث وضحاياها مقارنة مع ما كانت عليه قبل نحو ثلاثة عقود.

وتتضح ضآلة هذه الأرقام بالمقارنة مع عدد الرحلات الجوية في العالم. ففي كل يوم يسافر جواً أكثر من ثلاثة ملايين شخص. وكل ثانيتين من أي يوم وعلى مدار السنة، هناك طائرة «بوينغ» تقلع أو تهبط في مطار ما من العالم. وعندما نعلم أن شركة «بوينغ» هي صانعة أقل من 70% من الطائرات العاملة في العالم، ونضيف إليها طائرات «إيرباص» والشركات الأخرى، يصبح بإمكاننا القول إن هناك طائرة تقلع أو تهبط في العالم خلال كل ثانية في أي وقت على مدار السنة. ولهذا يصبح عدد حوادث الطيران ضئيلاً نسبياً، بحيث لا يفترض فيه، منطقياً على الأقل، أن يشغل بالنا عند السفر بالطائرة.

السنة	عدد الحوادث	عدد الوفيات
1972	؟؟	3.214
1999	198	1.130
2000	179	1.567
2001	187	1.535
2002	173	1.399
2003	198	1.224
2004	165	766
2005	184	1.454
2006	164	1.293
2007	136	965
2008	147	876

ولا أبرز في الدلالة على دور التكنولوجيا المتطورة في سلامة الطيران، أكثر من الكمبيوتر الذي صار يتولى على متن الطائرة مراقبة أداءها، وحرارتها وضغطها، للتأكد من أن كل شيء يعمل كما يجب. فحل بذلك محل مهندس الطيران الذي كان يحتل مقعداً إلى جانب قائد الطائرة. وصار طاقم الطائرة يتألف اليوم من قائدها ومساعده والمضيفين. وقلص بذلك كثيراً من الأخطاء البشرية التي تبقى على رأس الأسباب التي تؤدي إلى حوادث الطيران.

الأخطاء البشرية تبقى مسؤولة عن نصف حوادث الطيران، أما الأحوال الجوية فمسؤولة بنسبة 8% والصيانة 3% فقط

ومن عوامل السلامة التي تدخل في أسس صناعة الطائرات هو عمر الطائرة وعدد ساعات تشغيلها الممكنة، وأعمار كل جزء من أجزائها الميكانيكية على الأخص. فلكل قطعة حسّاسة عمر يحدده صاحبها بعد التجارب والاختبارات بمدة زمنية تقل عن عمرها الفعلي ضماناً لعدم تعرضها للتلف وهي لا تزال في الخدمة. ولذا على قائد الطائرة أن يدون بعد كل رحلة في سجل الطائرة عدد ساعات الطيران، كي يتمكن مسؤولو الصيانة من معرفة ما إذا كانت القطع التي تتكون منها الأجزاء الحيوية في الطائرة قد بلغت في عملها الفعلي أقصى عمرها أم بعد. كذلك يسجل أية ملاحظات عنده تتعلق بحدوث عطل أو أمر غير معتاد.

فبموازاة تطور هندسة الطيران وتصميم الطائرات، تطورت الصيانة أيضاً بشكل ملحوظ مع بدء عصر الكمبيوتر. فصار في الإمكان وضع سجلّات دقيقة لعمر قطع الطائرات، ومراقبة حال كل جهاز خلال الرحلة من خلال اللوحة في قمرة القيادة ومن ثم لاحقاً في أقسام الصيانة.

ولا يسمح بقيام أية رحلة من دون فحص دوري لكل الأجزاء الحيوية في الطائرة وفق جداول تأخذ في الحسبان أعمار القطع الحساسة، وملاحظة ما يخرج على المألوف. فتبدل الأجهزة والقطع حالما ينقضي عمرها، حتى لو لم يظهر أي قصور في أدائها. ويتسع مجال عمل فرق الصيانة ليتجاوز المهام الدورية بعد الهبوط وقبل الإقلاع. فيراقب أيضاً مكونات الطائرة الأساسية بناءً على جداول الأعمار والتعليمات التي تصدرها الشركة الصانعة للطائرة.

فمهندس الصيانة، كما هو حال قائد الطائرة، يعرف أن الخطأ ممنوع. وكلاهما يخشى المحاسبة على الأقل، إذا لم تكن الاحتياطات التي يتخذانها كاملة. ولذلك، تتبع أقسام الصيانة جداول الشركات المصنعة بحذافيرها في كل قطعة وكل جزء من أجل ضمان استحالة وقوع خلل ميكانيكي.

أما قائد الطائرة ومساعده، فعليهما عند مشاهدة إشارة معينة على لوحة القيادة في القمرة، أن يفهماها ويفسراها التفسير الذي يضمن عدم المغامرة، لأن حياتهما وليس مسؤوليتهما المهنية فقط على المحك. وإذا تبين للقائد وجوب ما يستدعي الاحتياط، فإنه يتوجه إلى أقرب مطار طالباً للهبوط الاضطراري فيه. علماً بأن مثل هذا الهبوط الاضطراري يكلف الشركة الناقلة مبلغاً باهظاً يقدر متوسطه بما يراوح بين 60 و70 ألف دولار أمريكي، لدفع رسوم المطار وإيواء الركاب في الفنادق، وما إلى ذلك. فبشكل عام تطور أداء صيانة الطائرات بحيث باتت الصيانة تحتل أسفل قائمة الجهات المسؤولة عن حوادث الطائرات، بمعدل لا يتجاوز 3%. أما النسبة الأعلى من المسؤوليات عن الحوادث فإنها تقع على عاتق «الخطأ البشري».

أسباب الحوادث

تقول دراسة شملت 1,843 حادثة طيران وقعت بين عامي 1950 و2006م، ونشرتها موسوعة ويكيبيديا إن المسؤولية عن هذه الحوادث توزعت كالآتي: 53%: خطأ بشري من القائد، 21%: عطل فني، 11%: الأحوال الجوية، 8%: أخطاء بشرية مختلفة (المراقبون الجويون، الصيانة، خطأ في شحن الأمتعة، سوء تفاهم لغوي، تلوث الوقود....)، 6%: تخريب متعمد (متفجرات، خطف، وإسقاط بالأسلحة النارية...)، 1%: أسباب أخرى.

وتقترب هذه الأرقام كثيراً من الأرقام المستخلصة من دراسة أخرى أجرتها شركة «بوينغ» وشملت كل الحوادث في العالم ما بين 1996 و2005م. وتوزعت فيها المسؤوليات على الشكل الآتي:

55%: خطأ بشري من طاقم الطائرة، 17%: عيب في الطائرة، 13%: الأحوال الجوية، 7%: سوء أداء بشري مختلف، 5%: المراقبون الجويون في المطارات، 3%: صيانة.



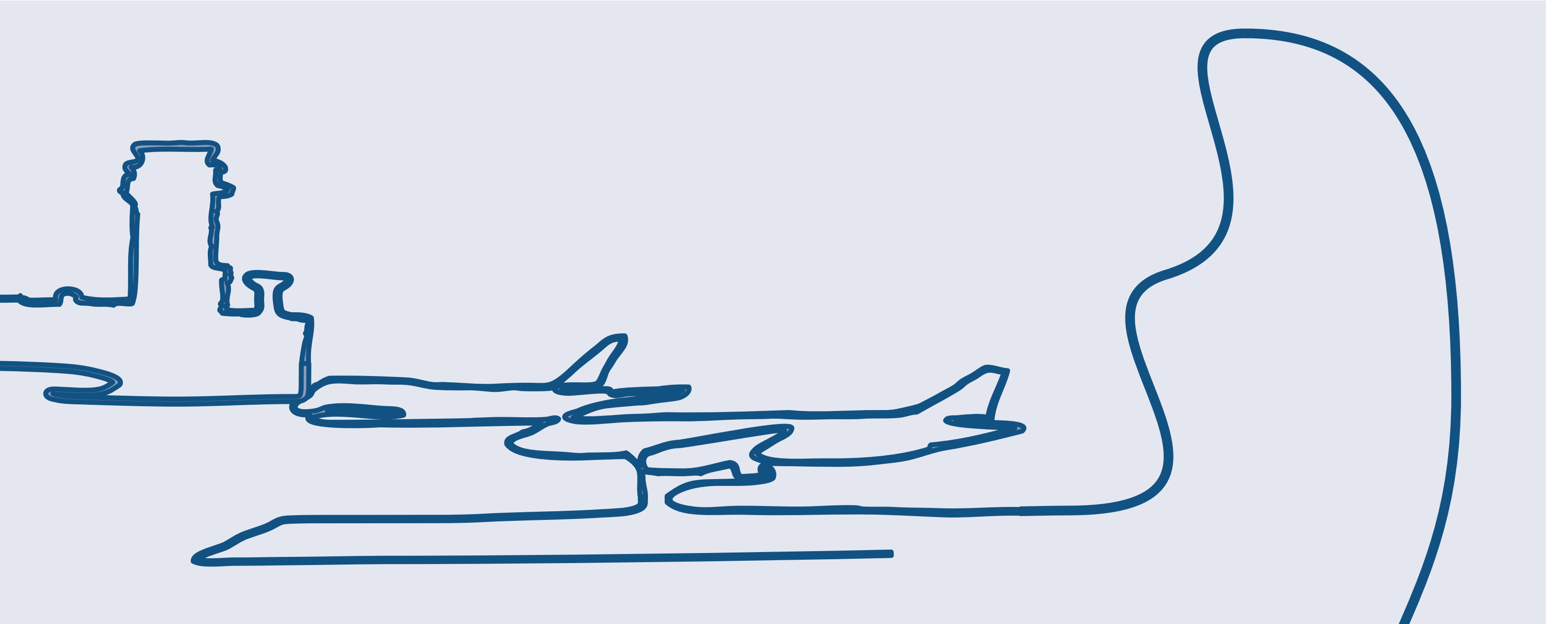
Flickr

إذن الخطأ البشري هو على رأس اللائحة. وعلى الرغم من أن ذلك غير قابل للمعالجة بشكل جذري، لأن الخطأ جزء من طبيعة الإنسان نفسه، فإن شركات النقل وتلك المصنعة للطائرات، تستمر في تحسين لائحة الشروط المسلكية والصحية المفروضة على الطيّارين مثل عدد ساعات النوم، وعدم تعاطي الممنوعات، وتحديد ساعات الطيران التي يسمح بها يومياً لقائد الطائرة، بحيث لم تعد تزيد على الساعات العشر، وإجراء دورات إعادة تأهيل وفحوصات طبية دقيقة قبل تجديد رخص الطيارين. وقد أدت هذه التدابير إلى تخفيض الأخطاء البشرية بشكل ملحوظ. فاستناداً إلى تفاصيل دراسة «بوينغ» التي أشرنا إليها، نلاحظ انخفاض مسؤولية الأخطاء البشرية من 70% في العام 1988م، إلى 56% في العام 2004م.

والواقع أن هذه الأرقام، وهي كلها نسب مئوية من أعداد صغيرة، تبعث على الكثير من الاطمئنان تجاه مصادر القلق الشائع: المحركات والأعطال الميكانيكية. كما أن الأخطاء البشرية الكبيرة في نسبتها المئوية إلى عدد الحوادث، تصبح أصغر من أن تذكر بالنسبة إلى أعداد الرحلات الخالية من الأخطاء وهي بالملايين...

وختاماً، يبقى أن نشير إلى خطر ظهر في العقود الأخيرة، ويتمثل في العمليات الإرهابية التي تستهدف الطائرات: خطفاً أو تفجيراً. وفي هذا المجال، حققت التدابير الأمنية إنجازات ملحوظة من خلال تزويد قمرة قيادة الطائرة بباب لا يفتح إلا من الداخل، وحضور عناصر أمن بين الركاب مؤهلين للتعامل مع أية مسألة أمنية وضبطها بمجرد ملاحظتها. كما أن التدابير الأمنية في المطارات ازدادت صرامة بشكل ملحوظ كما لاحظ ذلك كل من سافر جواً خلال السنوات الأخيرة.

فمن مصانع الطائرات ومختبراتها، إلى مستودعات أقسام الصيانة في المطارات، مروراً بالتدابير الأمنية، والأنظمة والقوانين، يبقى الهاجس بسلامة الطيران هو المنتصر على كل ما عداه. وانتصار هذا الهاجس هو ما يجعل الطائرة اليوم وسيلة نقل آمنة أكثر من السيارة، التي لا تثير قلق أحد، بنحو 22 مرة.



أكثر الأسئلة شيوعاً حول الطائرات

يتضمَّـن موقـع شركـة «بوينـغ» الإلكترونـي صفحـة تعرض إيضاحـات وحقائـق تجيـب عـن بعض الأسئلـة أو تصحِّـح مفاهيـم شائعة خطأً حـول بعض المسائـل المتعلقة بسلامة الطيران، وهذه بعضها:

• أي المقاعد آمنة أكثر من غيرها في الطائرة؟

• يعتقـد البعض أن المقاعـد القريبـة مـن الجناحيـن، أو تلـك التي فـي آخر الطائرة آمنة أكثر مـن غيرها. ولكن لا دليـل علمي علـى ذلك. فكل المقاعد تتمتـع بنسبة الأمان نفسها إذا كان حزام الأمان محكماً.

• هـل الطائـرات ذات الأربعـة محـركات أفضـل مـن الطائرات ذات المحركين؟

• يمكـن للطائـرات النفاثة أن تكون بمحركين أو ثلاثة أو أربعـة. وكلهـا تتساوى لجهة الأمـان، والواقع أن السجلات تشيـر إلـى أن الطائـرات ذات المحركين واجهـت مشكلات فنيـة أقـل مـن الطائـرات ذات الأربعـة محـركات. وكل من المحركين مصمم بحيث يمكنه أن يطير بالطائرة بمفرده. كما أن خطوط الطيران محددة على الخرائط بحيث تبقى الطائـرة بجـوار أحـد المطـارات، يمكنها بسهولـة أن تصل إليـه بمحـرك واحـد. أمـا احتمال تعطـل المحركيـن دفعة واحـدة، فهـي محتسبـة على أنهـا أقل من واحـد على مليار فـي ساعة الطيـران الواحدة. ولذا فإن 90% من الطائرات التي تصنع اليوم، هي مزودة بمحركين فقط.

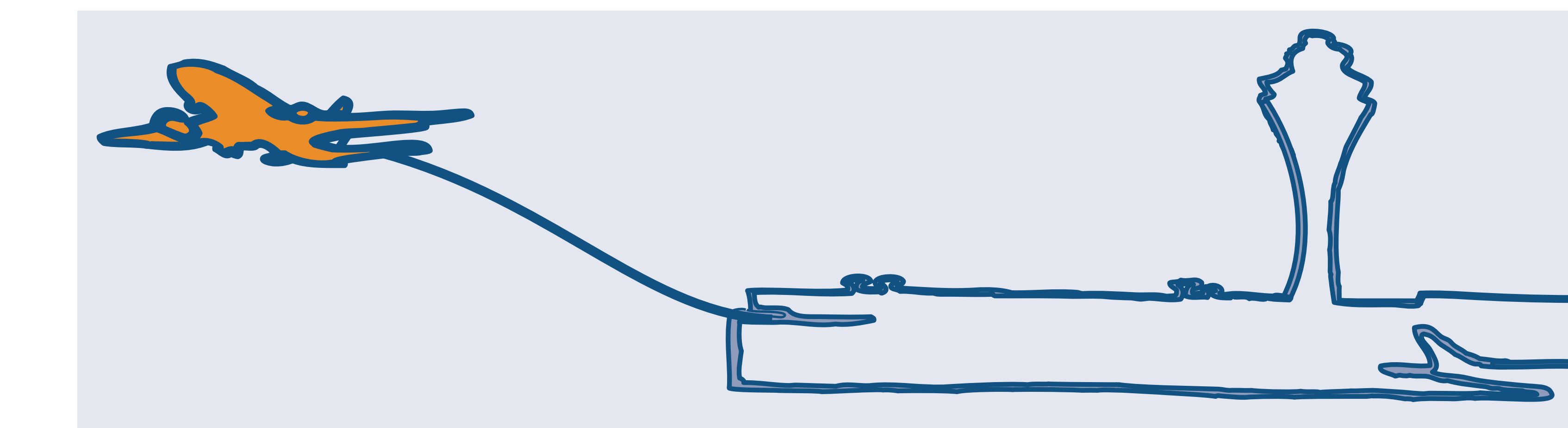
• هل بعض طرز الطائرات آمنة أكثر من غيرها؟

• هنـاك طـرز تعرضـت لحـوادث أكثـر مـن غيرهـا، ولكـن عـدد هـذه الحـوادث يبقـى ضئيـلاً جـداً بحيـث لا يمكـن القـول إن هنـاك طـرازاً آمنـاً أكثـر مـن غيـره، خاصـة وأن نسبـة الحـوادث التـي تقـع مسؤوليـة حصولهـا علـى الطائـرة هـي نحـو 13% فقـط مـن إجمالـي الحـوادث. إن كل الطائـرات ومهمـا كان طرازهـا تتسـم بمواصفـات السلامـة نفسهـا، لأنهـا كلهـا خاضعـة لقوانيـن وشـروط موحـدة، تفـرض عليهـا الالتـزام بمواصفـات محـددة قبل الترخيص لها بالطيران.

• هـل هنـاك مراحل فـي الرحلة الجويـة أخطر من غيرها؟

• نعـم. فمـن خـلال مراجعة تاريخ حـوادث الطيران، تبيَّن لنـا أن 60% مـن الحـوادث وقعـت خـلال مرحلـة هبـوط الطائـرة، ونحـو 35% خـلال مرحلـة الإقـلاع والارتفـاع، ونحـو 6% فقـط خـلال الطيـران الأفقي عاليـاً. ولذا، فإن الرحلـة الطويلة ليست أخطر مـن الرحلة القصيرة. لا بل يمكـن القـول إن رحلة طويلة مـن دون توقف هي آمنة أكثر من رحلة يتخللها التوقف في عدة مطارات.





• **هل يمكن لأبواب الطائرة أن تفتح وهي في الجو؟**

• لقد صنعت هوليود أفلاماً سينمائية نرى فيها أناساً يشفطهم الهواء خارج الطائرة بسبب باب فتح أثناء التحليق. وهذا أمر غير وارد عملياً على الإطلاق. فأولاً، تصنع الطائرات وهيكلها من مواد في غاية الصلابة. كما أنها مصممة وفق ما يعرف بمبدأ «تحمل الخطأ». أي أنه إذا حصل عطل في جزء أو جهاز معين، فهناك جزء أو جهاز آخر يقوم تلقائياً بمعالجة الخلل. وفيما يتعلق بالأبواب، لا يمكن فتحها بمجرد ارتفاعها في الهواء. فلتسهيل التنفس على المسافرين، يرفع الضغط الجوي داخل الطائرة إلى نحو ما هو عليه طبيعياً على ارتفاع 8000 قدم فوق سطح البحر، وعندما نعلم أن الطائرة تحلق على ارتفاع 30,000 قدم ندرك أن الضغط داخل لطائرة هو أكبر بكثير عما هو عليه خارجها. وهذا الفارق في الضغط هو ما يجعل فتح الباب مستحيلاً، حتى ولو أراد شخص ما أن يفتحه عمداً. لأن آلية فتح الباب تتضمن سحبه إلى داخل الطائرة أولاً (حيث الضغط مرتفع) ومن ثم دفعه إلى الخارج. أما في حالات الهبوط الطارئ، فإن قائد الطائرة يكيف الضغط داخل الطائرة بحيث يمكن فتحها فور وصولها إلى الأرض. أما مخارج الطائرة فمصممة لتفتح بمجرد هبوط الطائرة.

• **هل المطبات الهوائية خطرة؟**

• يمكن أن تكون خطرة. ولكن المطبات الهوائية لا تشكّل إلاّ جزءاً صغيراً من النسب الإجمالية التي تشكلها الأحوال الجوية في مسؤوليتها عن حوادث الطيران. ولكن خطورة المطبات الهوائية الشائعة أكثر من غيرها لا تتمثل في تسببها بحوادث تحطم الطائرات، بقدر ما تؤدي إلى جروح وإصابات في صفوف المسافرين من دون أن تتحطم الطائرة. فالطائرة مهيأة لمواجهة الاضطرابات الجوية، حتى العنيفة منها. ولكن المسافرين يمكنهم أن يفقدوا توازنهم إذا كانوا واقفين أو يتجولون في الممرات، حتى أن الجالسين من دون ربط حزام الأمان يمكنهم أن يرفعوا عن مقاعدهم حتى ارتطام رأسهم بمخزن الحقائب فوق رؤوسهم.

• إن الطيارين يعرفون عادة ما إذا كانوا سيواجهون مطبات هوائية لأنهم يراجعون باستمرار معلومات أجهزة الرصد، ويتحدثون إلى الطائرات التي سبقتهم على الخط نفسه. ولكن يمكن لهؤلاء الطيارين أن يؤخذوا على حيت غرة في مطب هوائي، وخاصة «مطبات الأجواء الصافية». ولذا، يستحسن أن يبقى المسافر جالساً على كرسيه وحزام الأمان حول خصره مربوطاً.

• **هل يمكن لأجنحة الطائرة أن تتحطم خلال الطيران؟**

• في الواقع يمكنها أن تتحطم إذا تعرضت للقوة اللازمة لذلك. فعند اختبار الأجنحة في المصانع، تعرض إلى ضغط حتى تنكسر. ولكن هذا الضغط اللازم لتكسير الأجنحة يتطلب قوة هي أعظم بكثير من أية قوة تم اختبارها خلال الطيران الفعلي. أحياناً، نلاحظ أن جناحي الطائرة يهتزان قليلاً (يرفرفان)، والواقع أنهما مصنوعان من مواد وأجزاء مرنة تسمح من خلال هذا الاهتزاز بامتصاص الضغط، وحماية الأجنحة من التحطم.

• **هل الطائرات القديمة آمنة مثل الحديثة؟**

• تتمتع الطائرات القديمة بمستلزمات السلامة نفسها الموجودة في الطائرات الحديثة. وفي عام 1990م، تم تشديد القوانين المتعلقة بعمل الطائرات القديمة، بحيث باتت أجزاؤها الحساسة تخضع إلزامياً لعمليات تجديد في مهل زمنية محددة وخاصة بكل منها. وأكثر من ذلك، فإن بعض الطائرات القديمة زودت نفسها ببعض الأجهزة الحديثة. فإذا قررت شركة طيران الإبقاء على طائرة قديمة في أسطولها العامل، فإنها تضيف إليها بعض الأجهزة المتطورة لمساعدة طاقمها. وفي الواقع فإن القوانين تلزم هذه الطائرات بالتزود ببعض هذه الأجهزة، مثل جهاز تلافي الاصطدام، وجهاز الإنذار من الاقتراب من الأرض وغير ذلك. بعبارة أخرى، إن الطائرات القديمة، ليست قديمة تماماً كما تعتقدون.

1 مهن علمية كريهة

استناداً إلى استطلاع قام على معطيات دقيقة وشهادات حيَّة، نشرت مجلة «بوبولار ساينس» الأمريكية مؤخراً كشفاً بأسوأ المهن العلمية التي يمارسها البعض بعد الدراسة، وبعضهم بعد التفوق في الدراسة.

ومن هذه المهن الكريهة كان حرق النفايات الطبية الذي يفرض على المسؤول عنه ارتداء بذلة واقية وقناعاً، والعمل في غرفة يطلق فيها بخار حرارته 300 درجة فهرنهايت لتعقيم الأجسام الصلبة، وجمع الأعضاء والأطراف البشرية المبتورة لحرقها في مكان آخر.. وتحمل رائحة تشبه رائحة طعام الكلاب الممزوجة برائحة البلاستيك المحترق...

وإذا كانت كراهية هذه المهنة مفهومة، فالمجلة أضافت إليها على قدم المساواة عمل رواد الفضاء في رحلتهم المرتقبة بعد عقد من الزمن إلى المرِّيخ. فخلال الربيع المقبل سيتوجه إلى وكالة الفضاء الروسية 6 أشخاص تم اختيارهم من ضمن أفضل 5000 من 45 دولة، للعيش ضمن أنابيب تجريبية مقفلة لمدة 500 يوم، وهي المدة التي ستستغرقها الرحلة إلى المريخ، وذلك بغية دراسة الآثار الجسمانية والنفسية للرحلة، علماً بأن هؤلاء لن يسافروا فعلاً إلى المرِّيخ. ولكنهم سيعيشون الظروف نفسها، أي أنهم سيشربون بولهم بعد إعادة تدويره، ويأكلون أطعمة مجلدة وجافة، وسيعالجون بأنفسهم أي انهيار عصبي يصيب أحدهم. وبعد 250 يوماً سيحظون بفرصة التجول بالبذلة الفضائية على سطح يشبه سطح المريخ، قبل 250 يوماً آخر من العزلة للعودة إلى الأرض.



وكانت تجربة مماثلة في معهد الطب الحيوي عام 1999م قد انتهت بنزيف دموي، واعتداء، وهروب بعد 110 أيام فقط.

وعلى المنوال نفسه أضافت المجلة إلى هاتين المهنتين: تصنيف الأنواع الحية، الطيارون الذين يدرسون الأعاصير، وعلم الفيزياء النظرية.

2 هويات إلكترونية للنباتات؟



بعد الحيوانات الأليفة التي يتم زرع شريحة إلكترونية صغيرة تحت جلدها، للتعرف إلى أصحابها فيما لو فقدت، يبدو أن الدور وصل إلى النباتات.

فبسبب التعديات الكثيرة على نباتات الصبار الصحراوي المشهور في ولاية أريزونا الأمريكية، وسرقتها لبيعها إلى الهواة، تقرر حقن هذه النباتات بشرائح إلكترونية، تسهل على رجال الشرطة التعرف إليها من خلال جهاز مسح يحملونه معهم، في كل مرة يواجهون فيها شاحنات أو سيارات تنقل مثل هذه النباتات، وتزعم أنها من إنتاج المزارع.

ففي حين أن إنتاج المزارع من هذه النباتات هو قانوني تماماً ولا اعتراض عليه، فإن اقتلاع نبتة صبار برية من صحراء أريزونا، يعرض الفاعل إلى غرامة تتجاوز المائة ألف دولار والسجن لأكثر من سنة، علماً بأن ثمن مثل هذه النباتات في السوق السوداء لا يزيد على ألفي دولار.

وبالفعل، بدأت السلطات المسؤولة عن صحراء بالم في أريزونا بحقن كل نباتات الصبار هناك بهذه الشرائح الإلكترونية. وفي حال تبين أن النباتات لم تتضرر من هذه الرقائق، فإن المسؤولين عن صحراء ساغوارو سيحذون حذوهم.

3 عقل صغير.. في المكوك الكبير

يُعد مكوك الفضاء الأمريكي أكبر وسيلة نقل صنعها الإنسان، ورحلاته الفضائية أثارت اهتماماً أكبر من حجمه. ولكن كثيرين يشعرون بالصدمة إذا علموا أن الكمبيوتر على متن المكوك الأمريكي الأول هو من طراز آي. سي. إم 5150، الذي كان أسطورة علمية في الثمانينيات من القرن الماضي، ولا يزيد ثمنه اليوم على 20 دولاراً، وأن سعته لا تزيد على نصف الميغابايت الواحد، في حين أن الأولاد اليوم يلهون بأجهزة كمبيوتر ذات سعة أكبر بنصف مليون مرة!

ولإثارة مزيد من الدهشة عند الذين لا يصدقون ذلك، نشير إلى أن الكمبيوتر ذا الاستخدام العام على متن المكوك حالياً الذي يراقب من ضمن ما يراقب مرحلة الإطلاق، هو مجرد نسخة مطورة من الكمبيوتر الذي ظل مستخدماً في الرحلات الفضائية حتى العام 1991م، وكانت سعته 500 كيلوبايت فقط.

وتبدو هذه الأرقام المدهشة في تواضعها ضخمة، إذا علمنا أن الكمبيوتر الذي كان على متن المركبة الفضائية السوفياتية «سويوز» عام 1974م، كان ذات سعة تبلغ 6 كيلوبايت!!

ويفسر العلماء هذا الأمر بقولهم إن رواد الفضاء لا يسجلون أفلام فيديو وأغنيات على أجهزة المركبات الفضائية... وفي حين أن إطلاق المركبات الفضائية يبقى في الدرجة الأولى قائماً على الميكانيك والفيزياء، فإن الكمبيوتر المتطور يلعب دوره على الأرض.

ويكفي أن نشير إلى أن الحسابات التي أجريت على الكمبيوتر في الستينيات وجعلت رحلة أبولو ممكنة، كانت ستتطلب نحو خمسة عقود من الزمن لإجرائها يدوياً.

4 البلاتين.. خادم الصناعة الأمين

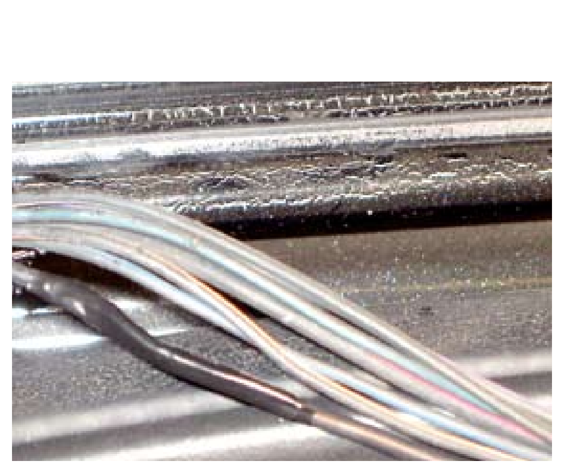
البلاتين معدن ثمين تطالعنا تقلبات أسعاره يومياً على شاشة التلفزيون، وتترافق أخباره مع أخبار الذهب والفضة.

ولهذا المعدن الثمين مواصفات مثل الصلابة ومقاومة الأحماض وعدم قابليته للتأكسد، وما يجعله مثل الذهب (وأغلى منه) في صناعة المجوهرات. ولكن للبلاتين مواصفات فيزيائية وكيميائية أخرى، مكنته من أن يدخل عالم الصناعة حيثما فشلت كل المعادن الأخرى حتى الثمينة منها.

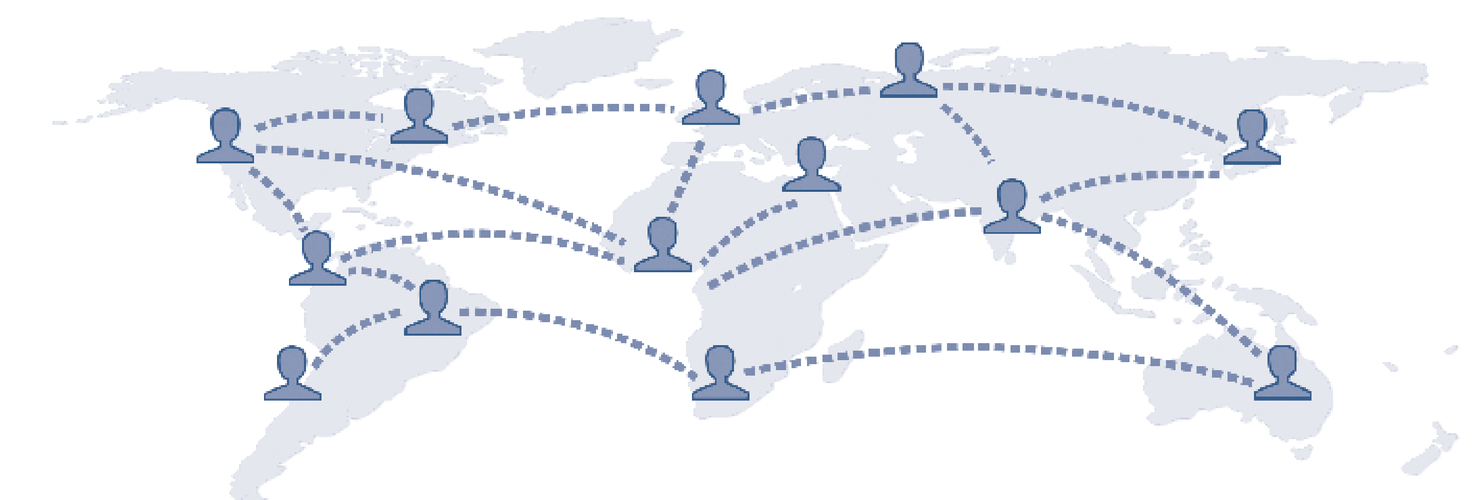
فهو يدخل في صناعة السيارات في موضعين بارزين، إشعال الشرارة الكهربائية اللازمة لتشغيل المحرك، وتحويل الغازات الضارة الناجمة عن احتراق الوقود إلى غازات أقل ضرراً.

ويستخدم البلاتين أيضاً في مصافي تكرير النفط، وكمسرع للتفاعلات الكيميائية، كما يدخل في كل الخلطات المعدنية اللازمة لصناعة أسلاك دقيقة وأوعية مختبرات غير قابلة للتآكل وغير ذلك مما يستحيل تعداده

فمن أصل إنتاج العالم من البلاتين الذي بلغ في العام 2006م على سبيل المثال 239 طناً، استهلكت صناعة السيارات 130 طنا، وصناعة المجوهرات 49 طنا، وصناعة الإلكترونيات 13.3 طن، و11.2 طن في صناعة الكيماويات، وتوزع الباقي على صناعات مختلفة أخرى.



وبعدما بقي سعر أونصة البلاتين لعدة عقود من الزمن يساوي إجمالاً ضعفي ثمن أونصة الذهب، (علماً بأنه أندر من الذهب بنحو 30 مرة) حتى أنه وصل في العام 2008م إلى 2.252 دولاراً للأونصة، فإن الأزمة الاقتصادية التي بدأت قبل بضعة أشهر، خفضت سعره إلى ما دون 1000 دولار، حتى أنه هبط لبضعة أيام دون سعر الذهب.



أمنك الشخصي على المواقع الاجتماعية

لسانك حصانك إلكترونياً

Send Message



مـع تكاثر المواقـع الاجتماعية على شبكة الإنترنـت، والازدياد المتواصل في أعداد الملايين الذين يشتركون فيها، تزايدت الحوادث التي ما كانت لتواجه من واجهها لولا تخليه أمام شاشة الكمبيوتر عن الحذر الذي يلازمه فـي علاقاته بالآخريـن في حياته الواقعية. مـرام عبدالرحمن مكاوي*، تحدثنـا عـن خطـورة الاستهتـار بأي شـيء ندوِّنه عـن أنفسنا علـى شاشة الكمبيوتـر، والثقـة المفرطـة بالقـدرة علـى إبقـاء معلوماتنـا الخاصـة محصـورة ضمـن الأطر التي نريدهـا، وتضرب لنا أمثلة عديـدة عمَّا أدى إليه هذا الاستهتار، وتعرض سلسلة من التدابير الاحترازية التي يتوجب علينـا اتخاذهـا، مع التركيز علـى سبيل المثال، على واحـد من أشهر هذه المواقع وأسرعها نمواً في وقتنا الحاضر: الفيسبوك.

Send Cancel

* كاتبة سعودية وطالبة دكتوراة في علوم الحاسبات في المملكة المتحدة



في صيف 2006م سافر أندرو فيلدمر، وهو معالج نفسي كندي يبلغ من العمر 66 عاماً ويمارس مهنته منذ 38 سنة، إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يعيش اثنان من أبنائه، ففوجئ بأنه أوقف من قبل سلطات الهجرة الأمريكية في المطار، لتبدأ عملية بحث غوغلية عنه (باستخدام محرك البحث غوغل)، وليصدر قرار يفيد بأنه ممنوع من دخول أمريكا!

أما السبب فكان متعلقاً بمقال نشره في دورية علمية خاصة بالطب النفسي عن بعض الأدوية النفسية المحظورة، صرَّح فيها بأنه أجرى بعض التجارب على نفسه باستخدامها في الستينيات من القرن الفائت. وبالرغم من مضي عقود على تلك التجارب، ومرور سنوات خمس على المقال المذكور والمنشور على الشبكة مقترناً باسمه، اتُهم الرجل بأنه يتعاطى عقاقير مخالفة لأنظمة البلاد وأُمر بالمغادرة.

تدل هذه الحادثة على خطورة معلوماتنا المتاحة على الشبكة مقارنة بتلك التي نقولها لشخص ما، أو نكتبها في رسالة، أو تُحفظ عنا في ملف طبي في مستشفى. ففي هذه الأخيرة، يمكنك بسهولة أن تتخلص من الرسالة أو تحذف الملف أو أن تنكر ما قلته، لكن الوضع ليس كذلك على الإنترنت. ومع ظهور ما يعرف بالشبكات الاجتماعية على الويب غدت المشكلة أكثر تعقيداً.

لقد أصبحت الشبكة العنكبوتية في جيلها الثاني منصة وبيئة تفاعل وعمل متكاملة وعلاقتنا بها لم تعد علاقة مستخدم بشري بآلة، بل علاقة مستخدم بمستخدم آخر، من خلال استخدام الكمبيوتر كأداة لهذا التواصل الإنساني. والشبكات الاجتماعية مثل «الفيسبوك» و«ماي سبيس» و«بيبو»، هي أمثلة على التطبيقات التي شكلت وتشكل هذا الجيل.

الفيسبوك: أحدثها وأسرعها نمواً

مضت أقل من سنوات خمس على ظهور موقع الفيسبوك إلى حيز الوجود في فبراير 2004م، وقبلها كان موقع ماي سبيس الأكثر انتشاراً ما بين الشبكات الاجتماعية على الإنترنت، إذ إنه ظهر في 2003م، ولكن في أبريل من العام الماضي، فاق عدد مشتركي الفيسبوك نظيره في ماي سبيس.

ولاقى موقع الفيسبوك تحديداً رواجاً كبيراً بين الشبان والشابات في بلادنا العربية. وهذه الشبكة هي من تصميم وتطوير شاب أمريكي كان طالباً آنذاك في جامعة هارفارد، وعمره اليوم 24 عاماً فقط، ويدعى «مارك جوكربيرج»، وهو حسب مجلة فوربس أصغر بليونير في العالم، إذ تقدر ثروته بأكثر من مليار ونصف المليار دولار أمريكي!

وفكرة الفيسبوك بسيطة جداً، وخلاقة جداً. فهي عبارة عن موقع لشبكة من العلاقات الاجتماعية التي تربط طلاب الجامعات في المقام الأول بعضهم ببعض، وتتيح لهم مشاركة زملائهم وأصدقائهم بصورهم، وأخبارهم، ونشاطهم، وتبقيهم على اتصال حتى بعد أن يتخرجوا. وقد كان هذا الموقع في البداية متاحاً فقط لطلاب جامعة هارفارد، ثم أصبح متاحاً لطلبة جامعات في أمريكا وحول العالم لينفتح لاحقاً على العالم وليصبح متاحاً للجميع.

واليوم، عندما تشترك في الفيسبوك، يصبح لديك ملف خاص أو صفحة إلكترونية مخصصة تتضمَّن صورتك ومعلومات أخرى عنك، كما تحتوي على جدار (افتراضي) تشخبط فيه كما تشاء أو يترك لك أصدقاؤك عليه رسائلهم، وهناك ألبومات صور وملفات فيديو وموسيقى وأمور أخرى. فمثلاً هناك تطبيقات متعددة يمكنك أن تضيفها لتثري صفحتك، وغالباً ما تكون بسيطة ومصممة للمرح ليس إلا، مثل التطبيق الذي يخبرك عن تاريخ زواجك المحتمل، أو ذلك الذي يقول لكِ أيٌّ من أميرات عالم ديزني تشبهين أكثر: حورية البحر أم الأميرة النائمة؟ وكمستخدم للفيسبوك لديك قائمة بالأصدقاء، الذين تضيفهم أويضيفونك، وبالتالي يستطيعون مشاهدة ملفك وكل ما تعرضه في مساحتك وفق ما تسمح لهم بالتحديد. فمن أهم ما يميز الموقع -كما يقول مصمموه- «إنه يوفِّر درجة عالية من الخصوصية» ويتيح للمشترك أن يتحكم بعرض ما يريد عن نفسه للآخرين، أو حجبه، بحيث لا يراه إلا هو فقط، أو هو وأصدقاؤه. وهناك إعدادات أخرى تتيح لك أن تضع أشخاصاً بعينهم ضمن قوائم خاصة تتحكم بموجبها فيما يشاهدونه وما لا يشاهدونه.





للفيسبوك حسناته التي تقف بالأساس وراء شعبيته، إذ إن الكثيرين شعروا بالدهشة والحماسة والفرح، حين وجدوا أنفسهم يتواصلون مع أصدقاء أو زملاء من أيام الطفولة أو الدراسة الذين باعدت بينهم الأيام، على نحو لم يكن متاحاً من قبل. بل إن بعض الجامعات والمؤسسات العلمية ذاتها، قام بنقل بعض مجموعات البحث إلى الفيسبوك، لأنه وجد أنه يتيح تواصلاً أفضل بين الطلبة والباحثين مما حققته أدوات الاتصال الشبكية الخاصة بها.

ويتزايد عدد المستخدمين لهذا الموقع من فئة الشباب بشكل خاص يوماً بعد يوم بل ساعة بعد أخرى. ففي بريطانيا مثلاً وحسب إحصاءات موقع «أوفكوم»، فإن أربعة من بين عشرة بريطانيين يستخدمون هذه الشبكات الاجتماعية على الإنترنت للتواصل، متفوقين بذلك على أقرانهم في دول أوروبية أخرى في فرنسا وألمانيا وإيطاليا. ومع ذلك يبدو أن الكثيرين يقومون بتنحية حذرهم الفطري على أرض الواقع حين يتعلق الأمر بالواقع الافتراضي. فقد أظهر استبيان أجري على ألفي شاب وشابة تراوح أعمارهم بين (17 و25 عاماً)، أن 60% منهم قاموا بنشر تواريخ ميلادهم على هذه الشبكات، و25% صرحوا بمسمياتهم الوظيفية عليها و10% وضعوا عناوينهم البريدية، في حين اعترف ثلثا هؤلاء الذين شملهم الاستبيان بأنهم قد أضافوا أو قبلوا إضافة أشخاص لا يعرفونهم إلى قائمة أصدقائهم على هذه الشبكات. وقبل محاولة إقناع المستخدم بأخذ الاحتياطات اللازمة أثناء استمتاعه بالإبحار والتواصل على الإنترنت، فلا بد من إقناعه أولاً بحجم المخاطر الناتجة عن الإهمال والثقة الزائدة أو اللامبالاة.

مارك جوكربيرج، مؤسس «فيسبوك»

بصماتك وآثار أقدامك في العالم الرقمي

تكمن إحدى مميزات الجيل الثاني من الويب في مقدرة أي شخص على نشر أي شيء في أي وقت على الشبكة، بغض النظر عما إن كان يحق له ذلك قانونياً أو أدبياً أو اجتماعياً أو دينياً (لنتخيل زوجاً يطلّق زوجته ثم ينشر صورها الخاصة على الشبكة بدافع الانتقام!) أو عما إذا كانت صحيحة أو لا. وبالتالي فإن هذه الميزات لا تخلو من العيوب. فبالرغم من أنه يمكن إزالة تلك المعلومات لاحقاً، إلا أنه قد يكون من سوء طالع المرء، على سبيل المثال، أن تكون تلك المعلومة السيئة موجودة حين يكون في دائرة الهجرة أو يستعد لعبور الحدود، لا سيما في عالم اليوم المستنفر أمنياً.

فلنتخيل أن أحدهم قرر أن ينشئ صفحة كاملة عنك (أو عنكِ) على الفيسبوك ويضع فيها صوراً وبيانات لا تمت لك بصلة، فمن سيكون قادراً على تكذيب ذلك، إن لم تدري به أصلاً! وإذا كان ما حصل في قضية المعالج الكندي كشفت بالفعل بأن آثار أقدامنا الإلكترونية لا تُمحى، فإن حوادث عديدة تشير إلى أن الآثار قد لا تكون أصلاً لنا.

تانر آكام هو أستاذ تاريخ تركي كان يعمل كأستاذ زائر في جامعة مينيسوتا الأمريكية، وحين سافر من مينيسوتا إلى مدينة مونتريال الكندية احتجز لثلاثة أيام في المطار من قبل السلطات الكندية للاشتباه في علاقته بالإرهاب. أما السبب، فقد اتضح لاحقاً بأن مخرِّباً يختلف معه في أحد الآراء الأكاديمية البحثية المنشورة في الدوريات العلمية قد قام بوضع معلومات خاطئة عنه على الوكيبيديا تربطه بالإرهاب!

ولهذا السبب، تعد الويكيبيديا مرجعاً غير موثوق أكاديمياً، ومن باب أولى ألاَّ تكون مصدراً موثوقاً أمنياً، بسبب قدرة أي مستخدم (بغض النظر عن مؤهلاته ومعارفه) على أن يغير فيها، وسيمضي بعض الوقت حتى يفطن الآخرون لذلك ويقوموا بإجراء ما يلزم، وأيضاً لطبيعتها المتغيرة (Transitive). فما تستشهد به اليوم في بحث علمي قد لا يكون موجوداً غداً حين يأتي أحدهم ليتأكد من مصادر معلوماتك.

ولذلك يركِّز الخبراء على أنه مع الجيل الجديد من الويب فإن هويات الناس على الشبكة لا يجب أن تؤخذ كمسلمات. وهكذا، فكل ما تطلقه على الشبكة أو يطلقه الآخرون عليها سيطاردك بقية حياتك سلباً أو إيجاباً. وهذا ما يكشف عن مدى الظلم الذي لحق ويلحق بعض الأفراد مادامت سلطات الهجرة في بعض البلدان تستخدم محرك غوغل لتتحكم بحرية الناس في السفر. والأمر نفسه ينطبق على المواقع والشبكات الاجتماعية.

فقد أظهرت تقارير في بريطانيا أن بعض العاملين في مجالات التوظيف والمصادر البشرية يبحثون عن شخصية المتقدم للوظيفة عن طريقة مشاهدة ملفه على الشبكات الاجتماعية. وقد أدى ذلك في بعض الأحيان إلى اكتشافهم جوانب أخرى من شخصيته (ما كانوا ليعرفوها من المقابلة الشخصية أو من ملف السيرة الذاتية) فأدت إلى أن يصرفوا النظر عنه. فلتتخيل مثلاً بأنك (كرب العمل أو موظف في الموارد البشرية) عرفت بأن المرشح للوظيفة أو المنصب له ميول مختلفة عن قناعات المجتمع أو أخلاقيات العمل، فهل ستتغاضى عن ذلك؟

وحتى على المستوى الاجتماعي، هناك بعض القصص المحلية والعالمية التي تروي حدوث حالات طلاق بعد رؤية الزوجة/الزوج لملف الآخر على الفيسبوك، واطلاعهم على شبكة معارفهم. بل الأخطر هنا هو أنه يمكنك أن تدفع حياتك ثمناً لذلك. ولعل الحادثة الأسوأ في هذا المجال هي حادثة قتل السيدة إيما فروستير (34 عاماً وأم لطفلين) من قبل زوجها واين فروستير في مطلع العام 2008م بسبب تغييرها لحالتها الاجتماعية على الفيسبوك من متزوجة إلى عازبة إثر خلاف مع زوجها، وبعد يوم واحد من رحيله عن المنزل، فكانت بذلك أول ضحية حقيقية لسوء استخدام الفيسبوك.

المعلومات التي نضعها على الشبكة تصبح قابلة للاستخدام ضدنا، وهي غير قابلة للإزالة

بعد التجربة الشخصية التي تعرَّض لها كما تقدَّم، قال أندرو فيلدمر: «عليَّ أن أحذِّر الناس بأن البصمات الإلكترونية التي يتركونها على الشبكة سوف تستخدم ضدهم، إنها غير قابلة للإزالة!». ويضيف بأنه في العصر الرقمي يبدو أن لكل منا آثار أقدامه الرقمية، والمشكلة تكمن في غياب ما يثبت بأننا قمنا بأنفسنا بترك هذه الآثار أو اخترعها أحدهم لنا!

وإدراكاً منها لحجم هذه المخاطر على الخصوصية وأمن المعلومات، أطلقت الحكومة الأمريكية تحذيرات رسمية على موقعها الخاص بفريق أمن الحواسيب الطارئ (www.us-cert.gov)، لتؤكد على الثغرات الأمنية التي تتضمنها هذه المواقع، ولتشير بالتالي إلى التحديات الأمنية الحقيقية للشبكات الاجتماعية خصوصاً، والويب عموماً.

الجامعات والشركات: هل المنع هو الحل؟

بالنسبة للشركات، فقد كان عليها أن تواجه بالإضافة إلى مشكلات الشبكات الاجتماعية الأمنية، البعد الاقتصادي المتعلق بإهدار الوقت. فهذه الشبكات وما تتيحه من تواصل وتفاعل متعدد الأبعاد على مدار ساعات اليوم تؤدي ببعض المستخدمين/الموظفين إلى إدمانها. وقد قدِّر حجم الخسائر الناجمة عن إهدار الوقت وانخفاض الإنتاجية بسبب الشبكات الاجتماعية في بريطانيا مثلاً بالملايين في اليوم الواحد. بل أكثر من ذلك فإن بعض التطبيقات المستخدمة على الفيسبوك شكَّلت ضغطاً على اتصال الشركة بالإنترنت. وهذا ما دفع خمسين بالمائة من هذه الشركات إلى منع دخول هذه المواقع من موقع العمل. فهل المنع هو الحل الأنسب؟

قد تكون سياسة الحجب والمنع فعَّالة في الوقت الراهن، ولكن لأمد قصير جداً، لأن هذه الشركات ستكون في مواجهة قناعات ومتطلبات أجيال بكاملها، وضد الطريق الذي تسير فيه التقنية وتطبيقات الجيل الثاني بشكل عام، مما سيؤثر سلباً على سمعة الشركة وعلى رضا الموظفين فيها وبالتالي على ولائهم لها وأدائهم الوظيفي.

ولذلك، يرى البعض أن عمليات الحجب هذه ليست فقط ردة فعل مبالغ فيها، بل قد تفوِّت فرصاً ذهبية على الشركة في مجال الأعمال أيضاً. فكما أن الفيسبوك يمكن أن يستخدم لإرسال تهنئة إلى صديق، أو تبني حيوان أليف تخيلي، فمن الممكن أن يستخدم أيضاً في مجالات الدعاية والإعلان، والعلاقات العامة، وتسويق المنتجات، وبدء شراكات جديدة.

لذلك قد يكون الحل الأنسب في وضع قوانين تنظِّم عمليات الاستخدام خلال أوقات الدوام بدلاً من الحجب. فقد عمدت إحدى الشركات إلى السماح بالدخول إلى الفيسبوك من أجهزة عامة موضوعة في غرف استراحة الغداء، وأخرى ربما تسمح باستخدامه ما لم يتجاوز ذلك وقتاً محدداً. أما بالنسبة للجامعات فكان عليها أن تتعامل مع مشكلات أخرى، وهي سلوكيات الطلبة تجاه بعضهم أو تجاه أعضاء هيئة التدريس أو منسوبيها بشكل عام.

والحقيقة أنه كان على الجامعات أن تتخذ قرارات أحياناً حازمة بشأن بعض ما يعرضه الطلبة كما حصل في جامعة نوتنجهام البريطانية، حيث قامت مجموعة من الطلبة بنشر صور مسيئة لبعض المسؤولين في السكن الجامعي، الأمر الذي ردَّت عليه الجامعة باعتبار كل طالب مسؤولاً عما يقوم به في عالم الفيسبوك، وبأنها لن تتوانى عن تطبيق العقوبات الجزائية على من يسيء استخدام التقنية التي يوفِّرها الموقع.

استفد من هذه المواقع وحافظ على أمنك

بعد إدراكنا مخاطر الشبكات الاجتماعية على خصوصيتنا وأمننا الشخصي في العالم الرقمي بشكل عام، فإننا بلا شك لا نزال نرغب باستخدامها، إذ إن لها أيضاً فوائد، فهي تصلنا بأصدقائنا حول العالم، وتمنحنا فرصة للمشاركة في نقاشات واجتماعات مختلفة. فمؤخراً نجح الشباب من الجنسين في مدينة جدة مثلاً بتسخير إمكانات الشبكة للترويج للفعاليات وأوجه النشاط الاجتماعية الثقافية والدينية والإنسانية. فما الحل الذي يتيح لنا الاستفادة من هذه المواقع من دون التعرض لمشكلاتها الأمنية؟

لا أحد يستطيع أن ينكر أن الفيسبوك مثلاً فكرة إبداعية، والحل لا يكمن في مقاطعتها من قبل الشركات والأفراد، وإنما في أخذ بعض الاحتياطات وإجراءات الأمن والسلامة البسيطة، وفي عدم تخلينا عن حدسنا الفطري بالأخطار لأننا في عالم افتراضي.

اقرأ جيداً شروط الحماية الأمنية، وكن حذراً مما يقوله الآخرون عن أنفسهم

وفي هذا الإطار، يقدِّم ديفيد هوبسون المدير العام لشركة «أنظمة الأمان الشامل» بعض النصائح المفيدة بهذا الخصوص كما ذكرت نشرته الجمعية البريطانية للحواسيب، ويمكن تلخيصها كما يلي:

- إن كل شخص يقوم بإعداد صفحة في «الفيسبوك»، «بيبو» أو حتى «لنكد إن» (وهو موقع يعنى بشكل رئيس بوضع السير الذاتيه عبر الشبكة للتواصل في مجال الأعمال والشراكة أكثر من التواصل على صعيد شخصي واجتماعي كما هو الحال في الفيسبوك)، يحتاج إلى التفكير في الأشخاص الذين سيشاهدون هذه الصفحات بكل ما فيها من صور وبيانات وتعليقات بل ومزحات أيضاً! وهؤلاء المشاهدون قد يشملون الآباء والمعلمين والرؤساء في العمل والأزواج والزوجات والأصدقاء (وأصدقاء الأصدقاء) والأقارب والجيران بل وحتى السلطات. فمجرد الاعتقاد بأنه بإمكان الأصدقاء المقربين فقط مشاهدة ما تضمنه حسابك هو اعتقاد ينطوي على قدر كبير من السذاجة. فعليك أن تتذكر بأن لا شيء على هذه المواقع هو فعلاً خاص، فكل ما تضعه هناك قد خرج عن نطاق سيطرتك، وأصبح ملكاً للعالم ليراه. ولذلك، تأكد تماماً من أن ما تضعه هناك ليس شيئاً يهمك عادة أن تخفيه عن شخص غريب تلتقيه لأول مرة.
- تتضمَّن الشبكات الاجتماعية درجات من الإعدادات المتفاوته الشدة فيما يتعلق بالأمن والخصوصية، وتترك هامشاً لا بأس به للتحكم بهذه الإعدادات، ومن الأفضل أن يتم وضع درجات الأمن في أقصى درجة ممكنة، بحيث تترك لك مساحة لتتحكم في من يطلع على معلوماتك.
- مرة أخرى، كما في كل التطبيقات الأخرى على الشبكة، لا بد من المحافظة على أمن كلمة السر، فلا يطَّلع عليها أحد، ويجب تغييرها بشكل دوري، مع مراعاة خلط الأرقام بالحروف. ومن البديهي القول بألاَّ تختار كلمة السر بناءً على معلومة موجودة على صفحتك في الموقع (مثلاً تاريخ الميلاد).
- لا تقابل شخصاً التقيت به على الفيسبوك أو الإنترنت عموماً للمرة الأولى وحيداً، التق به بصحبة شخص آخر أو في مكان عام. فقد وقعت فعلاً جرائم عديدة من خلال لقاء شخص التقى شخصاً آخر ذا حقيقة مختلفة تماماً عن مزاعمه على الشبكة.
- كن على حذر فيما يتعلق بالمعلومات الشخصية المتاحة على صفحتك. فالكثير منها يمكن أن يستخدم في عمليات انتحال الشخصية على الشبكة. فلا تسجِّل تاريخ ميلادك الكامل، اسمك الكامل (الرباعي مثلاً كما في حالتنا العربية إذ يعتبر الاسم الرسمي في تعاملاتنا الرسمية في المملكة)، أو اسم عائلة الوالدة (في الغرب تغير الأم اسمها بعد الزواج، لكن يظل الأبناء يستخدمون هذا الاسم الذي يصبح بعد فترة منسياً من الكثيرين كأحد المفاتيح الأمنية في البنوك وغيرها). ولذلك يفضِّل ألاَّ تعطى هذه الأسماء الكاملة لا في غرفة محادثة ولا على الصفحة الشخصية أو المدوَّنات أو على الفيسبوك.
- كن حذراً من التطبيقات والبرامج التي تقوم باستخدامها أو تنزيلها على جهازك الشخصي من هذه المواقع. فبعضها يحتوي على ملفات تجسس أو فيروسات، وباستطاعة أي شخص أن يقوم بتطوير ما يريد على هذه الشبكة من تطبيقات ويجعلها متاحة (مجاناً) لجمهور المستخدمين! وبالتالي فكيف لا تخشى من برامج غير مرخصة ؟ وهي تختلف حتى عن برامج المصادر المفتوحة التي تلتزم بميثاق شرف وتخضع لقوانين خاصة للملكية الفكرية. بعض هذه التطبيقات تستحيل إزالتها بالفعل بعد ذلك إلا من خلال إعادة تهيئة شاملة للجهاز.
- لا تصدق كل ما يقوله الآخرون عن أنفسهم على هذه الشبكات، فكما أن هناك من يكذب ويضخم ويبالغ بل ويحتال في الحياة الحقيقية، فإن هؤلاء موجودون أيضاً على الشبكة. وقد اعترف مشاهير ونجوم تلفزيونيون بقيامهم بذلك. فالكذب على الشبكة يغدو سهلاً جداً،

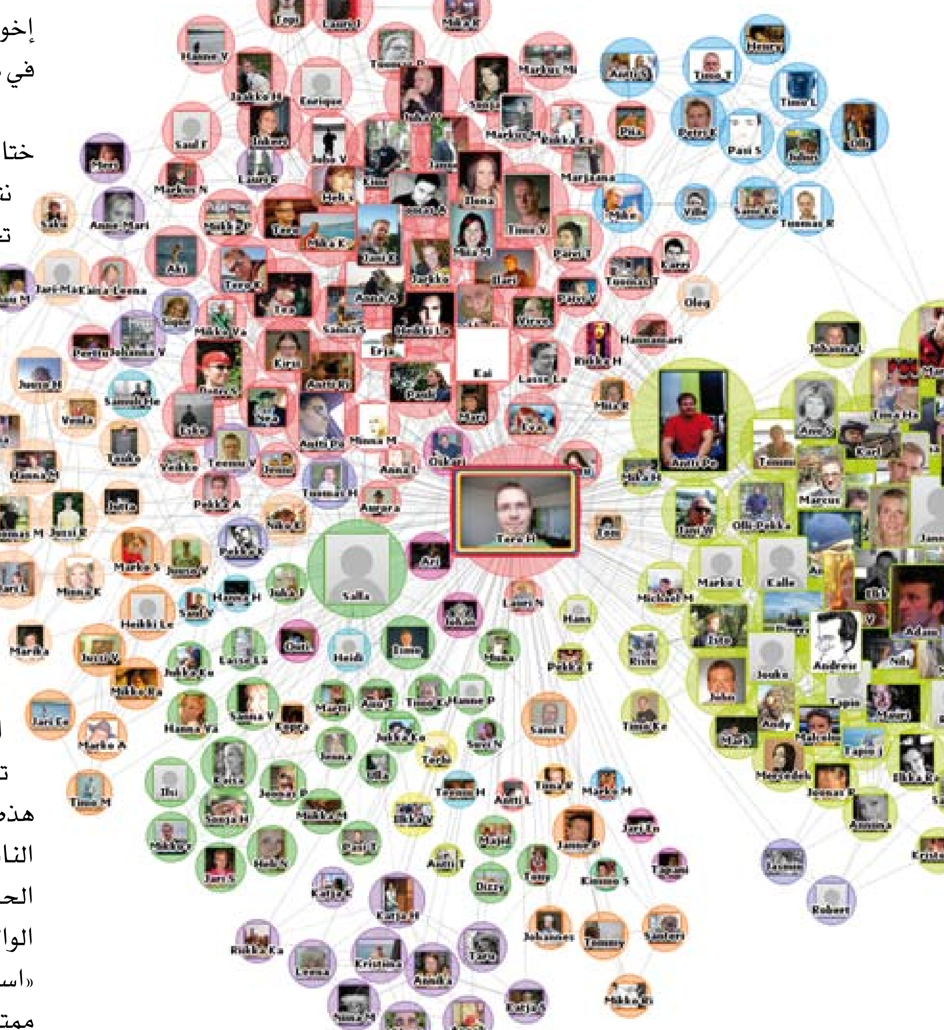


إذ أي شخص يمكنه أن يدعي أنه شخص آخر.

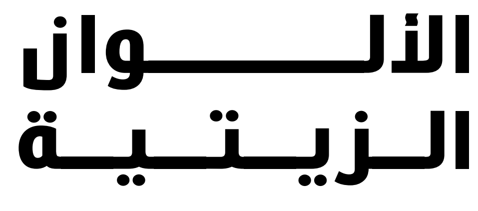
- اقرأ اتفاقية الحماية الأمنية المتعلّقة بخصوصية المعلومات للشبكات التي تقرر الاشتراك فيها. ولا تعتقد تلقائياً بأنهم يعطونك ضماناً لسرية المعلومات. فبعضها ينص صراحة على أن هذه المعلومات ستكون متوافرة لشركائهم أو للشركات الإعلانية وغيرها. وبالتالي فهي مسؤوليتك أنت أن تقرر ما يناسبك، وأن تحمي نفسك.
- تذكر دائماً مرة أخرى، أن أي شيء تجعله متاحاً على الشبكة قد خرج عن سلطتك، وعن ملكيتك الفكرية، وصار «متاحاً» بدوره للجميع على الشبكة. فبالرغم من أنك قد تقوم بإجراء حذف أو تطوير أو تغيير لموقعك الإلكتروني على الخادم المستضيف، إلا أن المعلومات التي سبق وأن وجدت على هذا الموقع ستكون قد حفظت على خوادم أخرى في عملية الكاشنغ (Cashing) التي تهدف إلى جعل الوصول إلى صفحة ما أسرع وأسهل، بتقديمها من الخادم المحلي عوضاً عن الضغط على الخادم الأصلي.
- يجدر بك أن تتذكر أيضاً أنه يمكن للشركات أن تغيِّر مستقبلاً من إتفاقياتها وقوانينها. وكما يمكنها أن تحتفظ بمعلوماتك و«بصماتك الإلكترونية» إلى الأبد، يمكنها أن تقوم أيضاً بحذف أو تضييع معلوماتك من دون سابق إنذار. فلا تستخدمها كمستودع وحيد لتخزين صورك المميزة.
- المزعجون الذين يقومون بتصدير «السبام» أو البريد غير المرغوب فيه، يجدون الكثير من المعلومات المفيدة لهم في هذه الشبكات مثل البريد الإلكتروني، وبالتالي توقع الكثير من الرسائل المزعجة تملأ صندوق الوارد أو ملف السبام!

وسأضيف هنا نقطة خاصة بنا كمجتمع عربي تشكِّل فيه المرأة الحلقة الأضعف وتثير أية قضية متعلقة بها حساسية خاصة، وهي أنه ينبغي توعية المراهقات بشأن هذه المخاطر، بحيث لا يحرمن من استخدام هذه الشبكة مثل إخوتهن الذكور، ولكن ربما من الأفضل أن يكن أكثر حذراً في هذا المجال.

ختاماً، هناك حقيقة يجدر بنا جميعاً أن نتذكَّرها حين نتعامل مع هذه الشبكات الاجتماعية، وهي أنها لم تخترع لتجعل حياة الناس أفضل، أو على الأقل إنها لا تبقى على قيد الحياة بفضل ذلك فقط. بل إنها تدر أموالاً طائلة من المعلنين وغيرهم (مدخولاتها تقدَّر بالبلايين)، ولذلك ليس من المستبعد أن تبيع معلومات مشتركيها في سبيل ذلك. قد لا يُعد ذلك بالضرورة شيئاً سيئاً، فهناك من يعتبر أن قدرة المعلن أو صاحب الخدمة أن يقوم بتخصيص الإعلانات التي تصله وفقاً لهواياته هي أمر جيد، بل ومطلوب. وهذه مدرسة فكرية معتبرة، لكن في الوقت نفسه إن كنت من المدرسة الأخرى التي ترى بأن أي تسريب لمعلومات شخصية، على تفاهتها (مثل أن فلان يحب القراءة) هي انتهاك شديد لخصوصية المرء، فقد تكون في أوج غضبك الآن وتطالب بمقاطعة شاملة لكل هذه الشبكات (وربما للإنترنت ذاته!). والراجح أن معظم الناس ستكون في حالة وسط بين المدرستين، وفي هذه الحالة، فإننا لا نملك إلا أن نعيد على مسامعك نصيحة الوالدة في أول يوم تركتك تذهب فيه وحدك إلى المدرسة: «استمتع بيومك وانتبه لنفسك»، ولذلك نتمنى لك إبحاراً ممتعاً.. مفيداً و...آمناً!



قصة ابتكار





عندما نشتري اليوم ببساطة شديدة علبة ألوان زيتية من إحدى المكتبات، فإننا نشتري في الواقع خلاصة جهود بذلها كبار عباقرة فن الرسم خلال قرون، وكان لمجرد وضع هذه الألوان داخل أنابيب صغيرة، أثره الكبير على تاريخ فن الرسم بأسره. فمنذ بدء عصر النهضة في أوروبا سعى الفنانون إلى استنباط نوع من الألوان يسمح لهم بالانتقال التدريجي من لون إلى آخر بخلاف المواد التي كانت مستعملة آنذاك، ولا يجف بسرعة كي يتمكنوا من تعديل الرسم إن شاؤوا ذلك، ويمكن إزالته أو وضع لون آخر فوقه.

وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، كان الفنانون الإيطاليون قد طوروا بعض الألوان (على شكل مسحوق) يمكن خلطها بالزيت، واستخدموها جزئياً في بعض لوحاتهم. وبحلول عام 1410م، رسم الفنان الهولندي جان فان إيك أول لوحة بالألوان الزيتية الخالصة. ولأن الزيت لا يجف بسرعة، استطاع هذا الفنان إضافة بعض المواد إليه لتجعله يجف خلال أيام معدودة.

وتوالت الجهود التي شغلت كل كبار الفنانين من دون استثناء، فأضاف أنطونيللو دي ميسينا إلى المزيج أوكسيد القصدير، بحيث أصبحت الألوان أكثر كثافة، وتجف في فترة أسرع. واستنبط ليوناردو دي فينشي طريقة تسخين الألوان حتى حرارة متوسطة، لتلافي اسودادها فور انتهاء اللوحة، كما انصرف تيسيان وتينتوريه وجيورجيوني إلى استنباط طرق خاصة في تركيب الألوان الزيتية، في حين اختار الهولندي روبنز الاعتماد على زيت الجوز دون غيره لمزج الألوان به. وبحلول القرن التاسع عشر، كانت تركيبات الألوان قد استقرت على معادلات محددة: زيت (الكتان غالباً) وألوان جاهزة في المتاجر على شكل مسحوق يجب خلطه بالزيت.

في العام 1841م، ظهرت في سوق باريس أنابيب صغيرة يحتوي كل منها على لون محدد تم خلطه بالزيت مسبقاً، وأعفى الرسامين من مهمة تحضيره. وهذا الابتكار الصغير غيَّر مجرى تاريخ الفن. فلم يعد الفنان أسير الاستديو، ولم يعد يخشى أن يبعثر الهواء في الخارج مسحوق الألوان قبل تحضيره. فحمل الفنانون لوحاتهم والألوان الجاهزة المحفوظة في هذه الأنابيب وخرجوا إلى الطبيعة يرسمونها مباشرة. وفي هذا الصدد يقول الفنان رينوار: «لولا أنابيب الألوان، لما كان هناك انطباعية في الفن».

تجدر الإشارة أخيراً إلى أن أنابيب الألوان الزيتية صُنعت أولاً من البلاستيك، والتحول الوحيد الذي طرأ عليها كان في صناعتها لاحقاً من الألمنيوم الذي يمكن عصره «حتى آخر نقطة». أما التركيبة الكيمائية لكل لون، فتختلف من مصنع إلى آخر، ولكنها ما زالت تتطور كلها في اتجاه هدفين: أولهما تقديم ألوان ثابتة أكثر بمرور الزمن، وثانيهما إخضاع الوقت اللازم لجفاف اللون بعد الرسم لمشيئة الفنان. 

قصة مبتكر

تشارلز ميريل
الذي غيَّر وجه الاقتصاد

حتى أواسط العقد الثاني من القرن العشرين، كان شراء الأسهم من البورصات حكراً على كبار الأثرياء القادرين على تلبية الشروط اللازمة وأقلها تقديم ضمانات مالية كبيرة، وتأمين الحضور في ردهة البورصة، ناهيك عن استطلاع أخبار الشركات ومسارات أعمالها. ولكن رجلاً واحداً استطاع أن يغيِّر هذا العالم، وأن يفتح أبواب البورصات أمام صغار المستثمرين: تشارلز ميريل.

ولد تشارلز ميريل في عام 1885م بولاية فلوريدا الأمريكية، وعمل منذ نشأته في الصيدلية التي كان يملكها والده الطبيب الذي يحمل الاسم نفسه. وتنقَّل مع والديه في أكثر من ولاية، إلى أن تخرج في العام 1907م من كلية القانون في جامعة ميشيغان.

انتقل تشارلز في العام 1909م إلى نيويورك حيث عمل في مكتب «جورج بور وشركاه» لبيع السندات. فبرع في عمله، ولكنه اكتشف أنه كان محكوماً بالترويج لأسهم في شركات على حافة الإفلاس، وأن عليه في بعض الأحيان أن يبلِّغ بعض المستثمرين أنهم خسروا كل أموالهم. وكان يكره هذه المهمة كرهاً شديداً، فاستقال من وظيفته هذه مشمئزاً في عام 1913م.

بعد ذلك بسنتين، أسس تشارلز مع صديق له من أيام الدراسة ويدعى إدموند لينش مكتباً يقوم على فكرة كانت ثورية آنذاك: تقديم الاستشارات وبيع الأسهم بالمفرق لصغار المستثمرين، بما يغنيهم عن التعامل المباشر مع البورصة الذي لا يقدرون عليه. ورفع شعاراً يقول: «تحقق ثم استثمر».



وأضاف تشارلز على مكتبه الذي عرف باسم «ميريل لينش»، قيمة دفعته إلى النجاح بسرعة صاروخية: «الاستقامة في التعامل». ففي العام 1928م مثلاً، كان يقول لكل زبائنه إن أسعار الأسهم وصلت إلى مستويات مبالغ فيها. ونعته البعض بالمجنون. وتوكيداً على قناعته، باع كل أسهمه وخرج من السوق في ربيع العام 1929م، قبل الانهيار الكبير الذي حصل في أكتوبر من العام نفسه.

خلال فترة الكساد الكبير، عمل تشارلز لبضعة سنوات في إدارة شركة التجزئة «سيفواي»، ليعود في العام 1940م إلى سوق الأسهم، مستفيداً من الطفرة الصناعية التي حصلت بسبب الحرب العالمية الثانية.

وعندما توفي تشارلز ميريل في العام 1965م، كانت شركة ميريل لينش أكبر سمسار أسهم في أمريكا، يبلغ عدد زبائنها نحو نصف مليون مستثمر، وما زالت كذلك حتى اليوم.

وتشير الإحصاءات إلى أن المستثمرين في سوق الأسهم الأمريكية كانوا في العام 1940م نحو 16% من عدد السكان، وازدادت نسبتهم اليوم إلى نحو 50% بفضل مفهوم التعاضد الذي ابتكره تشارلز، وتخفيض كلفة الاستثمار، وتوفير نتائج الأبحاث النزيهة للعامة.

نوبل العالم الموازي

د. حذيفة أحمد الخراط*

هذا نوع من الدعابة الإعلامية أو المبالغة التي يغلب عليها طابع الإثارة، إلا أن الأمر في الحقيقة واقعة طريفة تجري أحداثها في شهر أكتوبر من كل عام وتحمل اسم جائزة «إج نوبل» (Ig Nobel Prize).

وجائزتنا هذه محاكاة ساخرة لجائزة نوبل الحقيقية، وقد بدأ نشاطها في عام 1991م، وتضمّ عشرة مجالات بحثية مختلفة، كالطب والفيزياء والكيمياء والأدب والسلام، وتقام سنوياً لأجلها مراسم خاصة تغطيها أجواء من الفكاهة وطقوس من المرح، على خشبة مسرح ساندرس الشهير بجامعة هارفارد، ويتمّ بثها عبر الهواء مباشرة عن طريق موقع الإنترنت الخاص بالجائزة، كما يتمّ تسجيل وقائعها وبثّها لاحقاً عبر موجات الراديو.

لعلّ المقدمة قد شدَّتنا لمعرفة بعض النماذج البحثية التي أقرَّتْ بفوزها لجنة التحكيم، وأصدرتْ عليها حكمها النهائي بضعف مادتها العلمية وافتقارها للفائدة الجادة، ونجاحها في إرسال رسالة من الدعابة اللماحة نحو جمهور القراء والمستمعين.

قام عالمان نرويجيان بتقديم دراسة حول تأثير القشطة الحامضة في نظام الغذاء الخاص بحشرات القمل الطفيلية، ومدى تغيير تلك القشطة لشهيتها تجاه الأكل، واستحقَّا بذلك الفوز في فرع الجائزة المخصص لعلم الأحياء عن عام 1996م، وكانا جديرين فعلاً بالفوز. فما قدماه من معلومات بحثية طريفة أثار الفضول والدهشة، وبسببها تعرفنا إلى جانب خفي من شهية الديدان الطفيلية تجاه الأكل، ورأينا كيف يمكن للعلم الحديث فتح شهية الحشرات وتأمين غذاء دسم مقدَّم في صورة طبق القشطة الشهي.

ومن جامعة بريستول يزهو عالم آخر ببحث علمي، تحت عنوان «استعمال المغناطيس في رفع الضفدع في الهواء»، واستحق هو الآخر أن ينال الجائزة بجدارة في مجال علم الفيزياء لسنة 2000م. وفي عام 2008م، فاز في مجال أبحاث التغذية بحث مقدَّم من أستاذ جامعي إيطالي وآخر بريطاني، يدور حول طريقة ما، تجعل رقائق البطاطا تقرمش بشكل أوضح ويصدر عنها صوت يخدع من يأكلها وتوحي إليه بأنها طازجة.

يمكننا تخمين ما سيطبعه بحث كهذا في جبين قارئه من علامات التعجب والحيرة والاستفهام التي سبقتها ابتسامة عريضة نجح البحث في رسمها، بعد الانتهاء من الاطلاع على نتائجه وتوصياته المثيرة، التي جعلتْ لجنة التحكيم ترشِّحه بحثاً ملائماً لمزاج جائزة رفيعة كتلك.

قائمة الفائزين طويلة، والأبحاث بها كثيرة، وتعكس جهوداً كبيرة أضفتْ جواً من المرح والدعابة. وقد تكون محاولةً نجحتْ في كسر حدة الطابع الجاد الذي يلفّ العلماء عادة، والذي يغلِّف الكثير من أبحاثهم. وكما تقول اللجنة المنظمة للجائزة، بأنها تُمنح للإنجازات العلمية التي لا يمكن، أو لا يجب، أن يعاد إنجازها! إنجازات تجعل الناس يضحكون أولاً، ثم يفكرون.

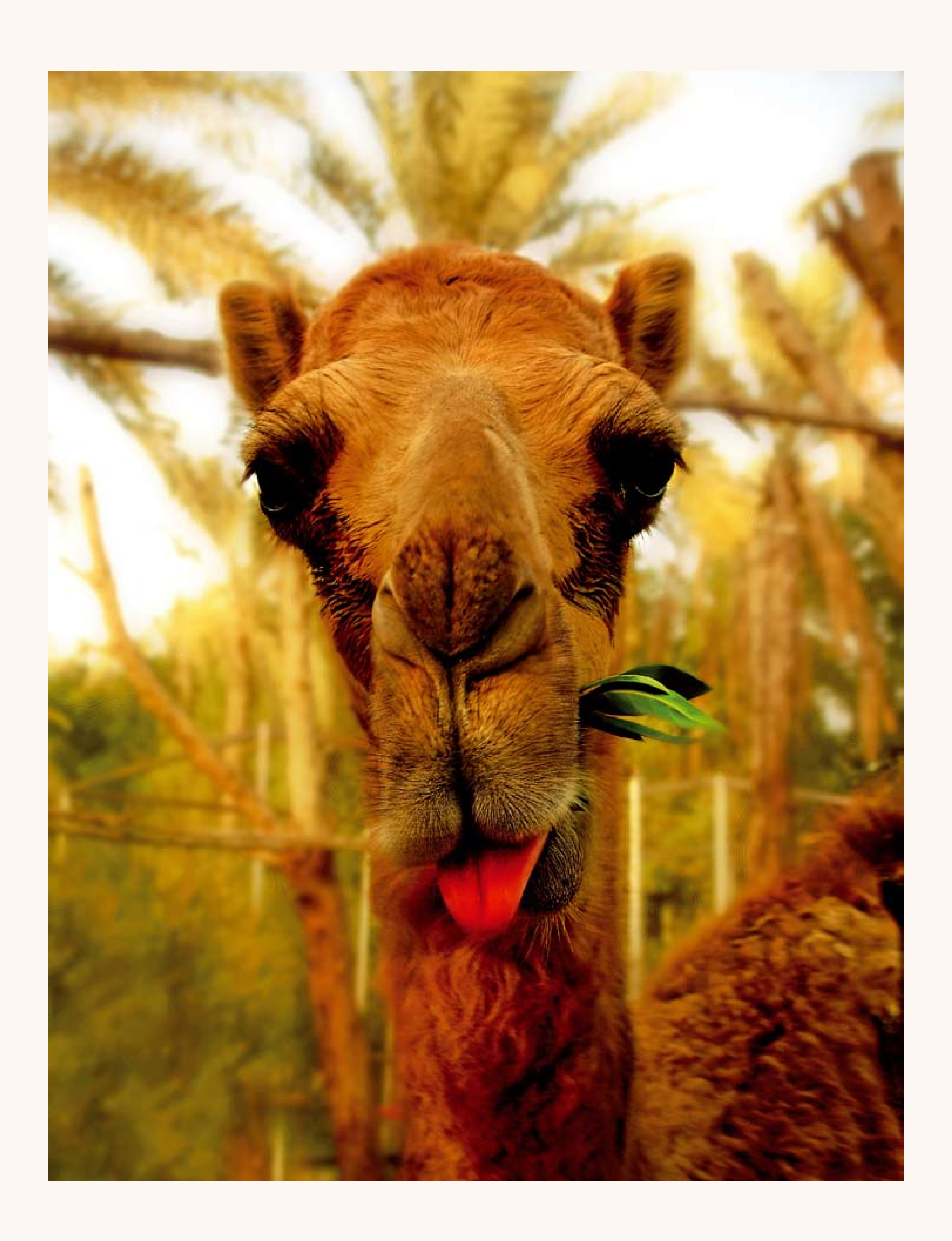
تبقى جائزة «إج نوبل» درساً خفيف الظل ينصح بتوخّي الحذر في طرح الموضوعات العلمية، وحين تمنحها لجنة الحكم هنا كجائزة، فإنّها تدعو الباحث إلى أن يفكر في النتائج المرجوة من بحثه، وأن ينتقي ما يقدِّمه من معلومات قبل أن يبذل في إخراجها جهده ووقته ومداد أقلامه.

أن يتم تخصيص جائزة لأفضل بحث علمي في موضوعات مقترحة من قبل لجنة تحكيم عليا، هذا من محبّذ الأمور ومستحسن الأفكار، والعديد من الجوائز تكرِّم العلماء وتعترف بجهودهم فيما بذلوه في أقبية مختبراتهم من جهود كبيرة أرادوا بها خدمة العلم، وأمضوا لأجل الحصول على نتائجها سنوات عجافاً، ليهدوها في النهاية إلى من يفيد منها من بني البشر. أما أن نقول إن هناك جائزة عالمية مخصصة للأبحاث ذات الفائدة الضحلة التي تنقصها بعض الجدية العلمية أحياناً، فهذا من عجائب الأخبار وغرائب الروايات. وقد يعتقد البعض أن

* طبيب جرَّاح من سوريا

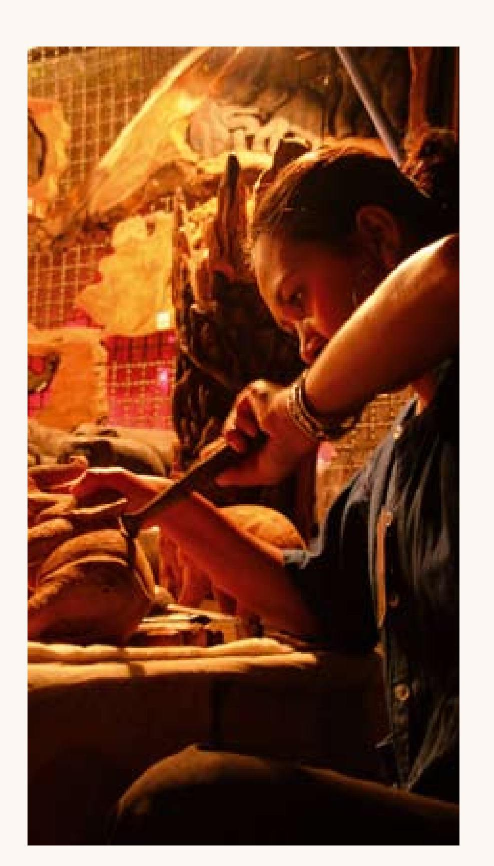
لماذا تسخر مني أيها الجمل؟
قذفت الأمواج مركبي إلى الشاطئ،
ألقيت عليه بردتي وتركته بما حمل،،
بهارات وعنبر وطيب.
والعصفور ينتظرني هناك.
على رجل واحدة،،
إلى أن أعود!

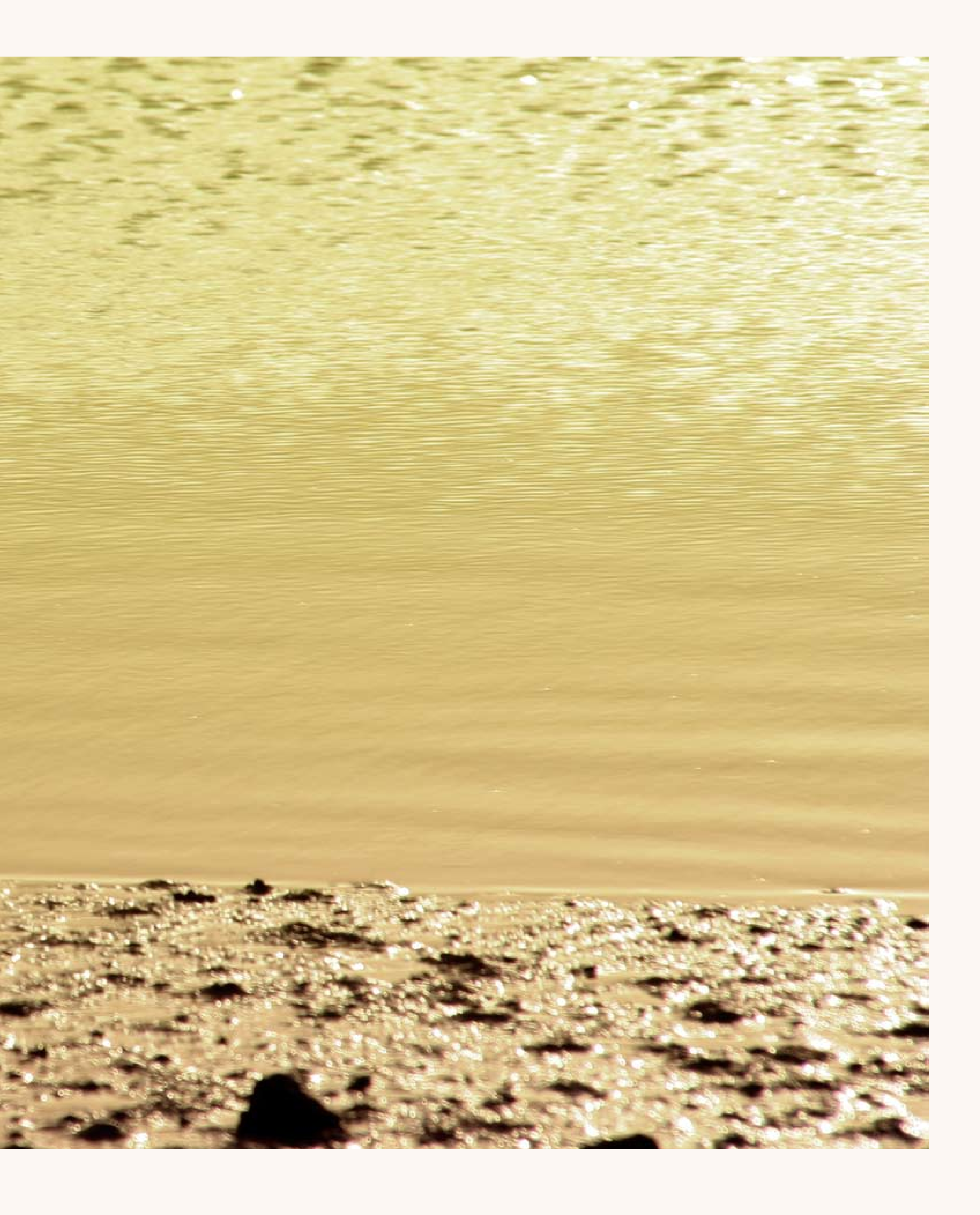


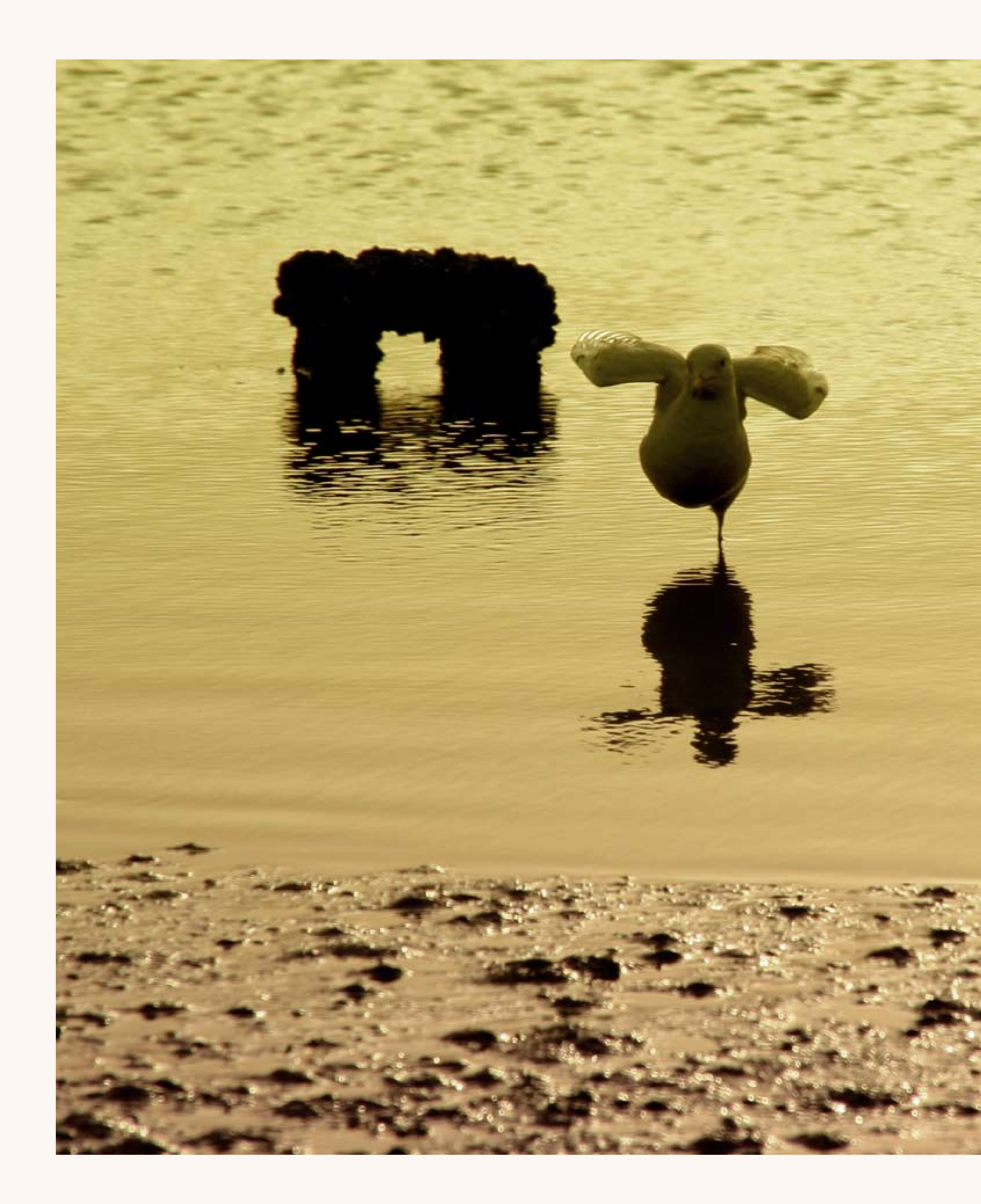


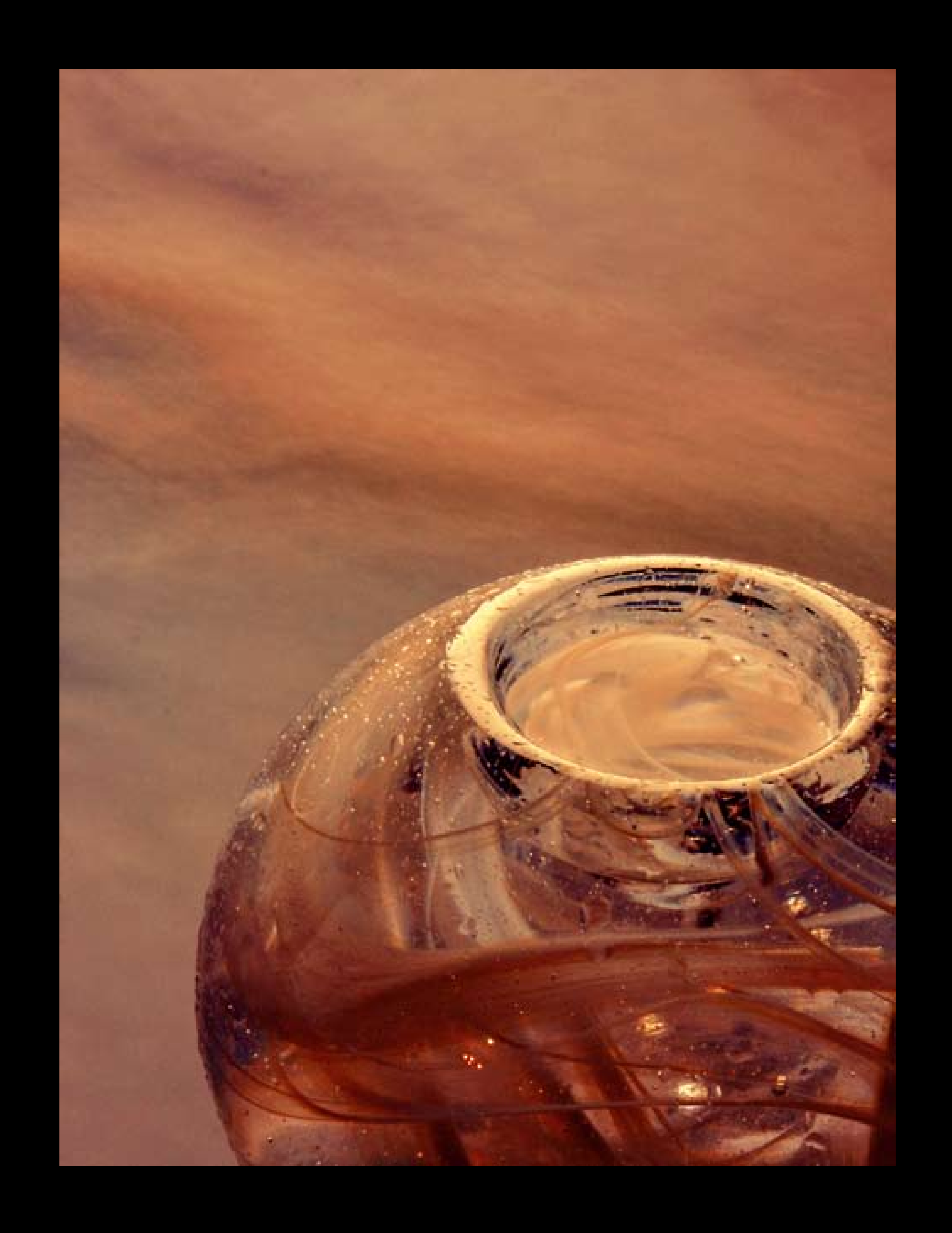

خطمي
ورق جوافة
ورق نيلو
حب الحنظل
مقل ازرق











فاطمة جعفرآل صويمل

من المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، تهوى التصوير منذ الصغر، ودرست مبادئ وأساسيات فن التصوير الفوتوغرافي. اشتركت في مسابقتين وأحرزت المركز الثالث في كلتيهما، مسابقة «قرقيعان 2006» و«المسابقة الأولى للتصميم والتصوير CDPIC 2007». كما تم اختيار بعض أعمالها للمشاركة في معرض «عدسات عربية 2007 (لحظات من الحياة)». شاركت أيضاً في معرض «عيون نسائية 2008» بأربعة أعمال حاز أحدها جائزة تقديرية من مجلة القافلة.

الرسائل في الوسائل

ينظر «المُرسل» إلى الوسيلة ويقرر ما إذا كانت مناسبة أم لا.

وكم من مرسل لهدية شخصية تراجع -على سبيل المثال- عن بطاقة فاخرة كبيرة، وقرر الكتابة على بطاقة صغيرة ليكتب فيها ما كان مكتوباً في الكبيرة، وذلك لأنه شعر أن ما يريد أن يقوله يكون أوقع وأصدق في البطاقة الصغيرة.

واليوم، مع تعدد وسائل التراسل والمخاطبة وتعاظمها، يجد كل واحد منا «مينيو» تراسل طويلة يختار منها، بدءاً بالرسالة المكتوبة باليد (وما زالت متوافرة) إلى الفاكس إلى الإيميل إلى رسالة الجوال إلى رسالة «تخاطب» عبر الكمبيوتر.. والحبل على الجرَّار. والناس بلا شك يدرِّبون أنفسهم على معرفة خصائص كل واحدة من هذه الوسائل.. حسناتها وسيئاتها.. مزاياها، وأوجه تصورها.

وهنا أيضاً يختلف وقع القول من وسيلة إلى أخرى، حتى لو كان الكلام واحداً أو يكاد. فنوع الجهد الذي يفترضه

إذا قرأت كتاباً مقسماً على مقالات متتابعة في جريدة، فإن وقع مضمون النصوص عليك يختلف عما لو قرأتها كما هي في الأصل ضمن الكتاب المجموع نفسه. فنص على صفحة كتاب مكتمل، غير نص على صفحة جريدة يومية. ومن المعروف في الأوساط الصحافية أن المقال حين يُقرأ مكتوباً باليد، غير المقال الذي يظهر في اليوم التالي في الجريدة. فلعامود الجريدة بدوره رهبة أخرى، والكلام المصفوف حروفاً طباعية يُدخل على النفس غير ما يدخله نص بخط اليد، وكأن نفس الكلام في الحالتين يختلف معناه وتختلف مدلولاته رغم تطابق الكلمات.

والناس تحس بهذه الفوارق، وتتصرف بناءً على هذا الإحساس في حياتها اليومية، من أبسط الرسائل الحميمة حتى أبلغ الخطابات. وبعد أن تكون الصياغة قد اكتملت

المستلم بالمرسل يؤثر بمضمون الرسالة، ويكون اختلافه أكبر أيضاً باختلاف المرسل إليه. فرسالة ترسلها من خلال الجوال وتصل إلى الفريق الآخر وتُقرأ عبر الشاشة يختلف مضمونها بسبب اختلاف أسلوب قراءتها عما لو أرسلتها هي نفسها عبر الإيميل.

فشخصية الشاشة الصغيرة تؤثر في وقع مضمون الرسالة. كما أن برنامج المراسلات عبر الإيميل يضفي شيئاً من شخصيته على رسالة وصلت عبره.

ولا شك في أن جزءاً من الاختلاف يعود إلى حيثيات أخرى، منها الافتراض الذي يكونه المستلم تلقائياً عن اختيار المرسل لهذه الوسيلة أو تلك، وانعكاس ذلك على معنى موقفه من موضوع الرسالة!

حين طرح «مكلوهن» نظريته المعروفة في الستينيات حول دور التلفزيون كجهاز في حياة المجتمع المعاصر، ورفع شعار «الرسالة في الوسيلة»، وجد الناس صعوبة في الإمساك بهذه النظرية رغم أنها ذاعت وشاعت. ولربما قصد مكلوهن أن التلفزيون يمثل نمطاً متكاملاً للحياة الاجتماعية وأسلوباً في التفكير، كما أنه يقدِّم فلسفة في التسلية وحياة المجتمع الاستهلاكي. وعندما أختار التلفزيون كوسيلة لي، فهذا اعتراف مني بقبول المجتمع الذي خلق التلفزيون وقبول أسلوب حياته.

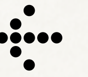
ولاشك في أن هذه النظرية زئبقية بشكل أو بآخر، إذ يأتي المرء ليضرب مثلاً حول صدقها فيجد أنه أقرب إلى من يحاول مسك الهواء. وعلى الرغم من ذلك، وجدت هذه النظرية الكثيرين ممن اقتنعوا بأنها أصابت هدفاً.. دون أن يرى أحد زجاجاً مكسراً على الأرض!

فما من شك في أن الوسيلة تؤثر في المضمون الذي تحمله، وتصبغ عليه من كيانها وشخصيتها شيئاً، قل أو كثر. فالعصر قد وضع بين يديك كل أنواع الوسائل.. وترك لك أن تختار الرسالة.

كميل حوا 

اختفت الأفلام وكثرت الكاميرات

التصوير في عصره الرقمي



بسرعة، مثل لمح البصر أو ومضة الفلاش، انتهى عصر التصوير بالفلم وانتقلنا إلى عصر التصوير الرقمي. وبسرعة «مؤثرة» في نفوس أصحاب الحنين إلى الأيام الخوالي، اختفت أكوام الأفلام من الدكاكين والبقالات.. حتى أننا لم نعد نجدها اليوم حتى في بعض محلات التصوير الفوتوغرافي التي لا تزال تحتفظ على واجهتها بشعار إحدى الشركات الصانعة للأفلام.

فريق القافلة يتناول هنا التطور الكبير الذي طرأ على التصوير الفوتوغرافي وانتقل به من عالم إلى عالم مختلف تماماً، مستعرضاً بشيء من التفصيل أوجه الاختلاف ما بينهما، خاصة وأن آلة التصوير تعرف منذ سنوات رواجاً لم تعرفه في تاريخها (بعدما أدمجت بأجهزة الهاتف). وأن ملايين الشبان الذين يقتنونها اليوم لم يكونوا يوماً على علاقة بصناعة الصورة في عصرها ما قبل الرقمي.



سعود المحجوب

حتى أشهر قليلة خلت، لم يصدِّق الناس، وخاصة هواة التصوير ومحترفيه على حد سواء، أن ما يحدث في عالم التصوير يحدث فعلاً، وأن الفلم سيختفي من عالم الصورة بهذا الشكل الكاسح، إلا حين أعلنت كبرى الشركات العالمية المنتجة للأفلام الجدول الزمني لإغلاق مصانعها، وتحولها إلى صناعة «منتجات تصويرية» أخرى.

وكانت هذه الشركة قد بدأت في السنوات الأخيرة، ونتيجة لوعيها بما سيؤول إليه عالم التصوير، بصناعة طابعات رقمية منزلية أو متخصصة والورق اللازم لطباعة الصور، حتى أنها خاضت صناعة آلات تصوير رقمية، وهي التي قلَّما اقتربت سابقاً من صناعة هذه الآلات، إذ إنها كانت تعتمد على سمعة أفلامها ومختبرات تظهيرها لتكون قبلة المصورين في العالم، مهما كان نوع الكاميرات التي يستخدمونها.

فقلَّما شهد تاريخ الصناعة تطويراً لمنتج أدى بمثل هذه السرعة إلى مثل هذا الانتصار للجديد على القديم، واكتساحه حتى القضاء عليه بشكل شبه تام. ولعل أهم ما في التصوير الفوتوغرافي في عصره الرقمي هو انتشار آلته وشيوعها بين أيدي الناس بشكل غير مسبوق. خاصة بعد دمج آلة التصوير بجهاز الهاتف المحمول، فصار كل شخص مصوراً يلتقط من الصور ما يشاء حينما يشاء.

ولكن قبل التوقف أمام التصوير الفوتوغرافي الرقمي بما له وما عليه، فإن إلقاء نظرة على عالم التصوير بالفلم الذي هُزم أمام التصوير الرقمي، يمكنه أن يشكِّل مدخلاً لفهم الأسباب التي زادت من زخم هذا التحول وسرعته، بحيث أن الجيل نفسه الذي استخدم آلات التصوير الخشبية هو نفسه الذي يستخدم الآلات الرقمية اليوم.

زوال عالم من المهارات والمهن

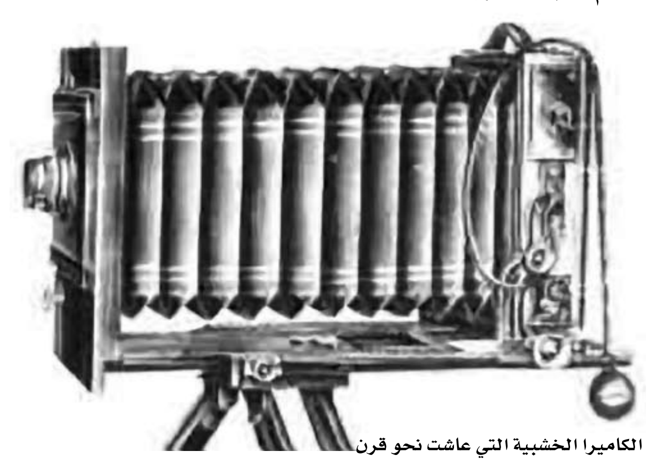
يحدد المؤرخون ظهور التصوير الفوتوغرافي بتلك الصورة التي التقطها جوزف نيسافور تيابس عام 1814م، لمشهد من مدينة باريس. ولكن الصورة التي التقطها آنذاك (وهي أقرب إلى أن تكون شبح صورة) تطلَّبت بضعة عقود من الزمن لكي ينضج الاختراع. وفي سنة 1888م، سوَّقت «كوداك» آلة تصوير بسيطة الاستخدام، وكانت مكعباً من خشب وجلد، وكان على المصور أن يرسل الكاميرا كلها إلى الشركة لتظهير الصورة.


wikimedia

التصوير في الأستوديو الذي عاش طوال القرن العشرين

وراحت صناعة آلات التصوير تتطور، وكلها تقوم أساساً على ضبط وصول صورة المشهد إلى الفلم الذي يحفظها بفعل تفاعل كيميائي ما بين مكوناته والضوء. وعلى مدى قرن ونصف القرن كانت نوعية الآلات والأفلام (وبالتالي الصور) تتحسن باستمرار. ولكن أين كانت ذروة ذلك العالم عشية ظهور التصوير الرقمي؟

محمد ناجي مصور مخضرم يستخدم اليوم الكاميرات الرقمية ويقول إنه بدأ مهنته باستخدام كاميرا خشبية ثقيلة محمولة على ثلاثة قوائم وكان يغطي وجهه بقماش أسود يحجب الضوء القوي ليتمكن من رؤية المشهد المطلوب تصويره من دون إفساد الصورة. ويضيف أن التصوير خارج الأستوديو كان يتطلب عملاً شاقاً. ولكنه كان يتطلب أيضاً الكثير من المهارات والفن. كما أن الصورة كانت تبقى مجرد أمل وخيال في ذهن المصور حتى تحميض الفلم وطباعته لرؤية النتيجة.



الكاميرا الخشبية التي عاشت نحو قرن

أما غسان شبارو الذي تخرج من «كلية لندن للطباعة» عام 1972م ودرس أيضاً فرز الألوان في معهد «بيرا»، فيقول إنه بدأ أيضاً التصوير الفوتوغرافي بكاميرا خشبية. ولتحسين نوعية الصورة بحيث تصبح صالحة للطباعة، كانت هناك محلات متخصصة خارج المطابع حيث تجري التحسينات (رتوش). فكانت الصورة تصلَّح بقلم ذي ريشة دقيقة تشبه رأس قلم الرصاص. أما «التلوين»، لأن الاثنين عاصرا أيضاً فن تلوين الصورة يدوياً، فكان يتطلب ذوقاً ومهارة لدى الملون، لاختيار لون الشعر والوجه والعينين والملابس.. حتى أن ساعات من الجهد والتشويق كانت تفصل ما بين التقاط الصورة والحصول عليها مطبوعة.

لا تعالي المحترفين ولا توزيع الأفلام مجاناً استطاعا أن يوقفا زحف التصوير الرقمي

ويقول ناجي: «إن ظهور الفلم الملون والضوء الآلي الذي يرافق التقاط الصورة وفرَّا علينا نحو 95% من وقت تلوين الصور وضبط الضوء. أما شبارو فيرى أن ظهور الفلم الملون والماسح الإلكتروني وتطور الآلات الطابعة شكَّلت مرحلة انتقالية، لأنها كانت من الخيوط الأولى التي ربطت عالم التصوير بالتكنولوجيا المتطورة». وهنا يضيف ناجي: «إن ظهور آلات التصوير الرقمية كان صدمة لنا. وتطلب الأمر منا سنتين قبل استخدامها للمرة الأولى».

تطور الرقمي في عقد يفوق «الفلمي» في قرن

تأخر الكثير من المحترفين في تبني الكاميرا الرقمية والتصوير الرقمي لسببين. أولهما أن النماذج الأولى من هذه الآلات على حسناتها كانت قليلة الوضوح، خاصة إذا ما تطلَّب الأمر طباعة الصورة بمقاييس كبيرة، كما أن قدراتها (رغم حسناتها الكثيرة)، كانت محدودة. أما السبب الثاني، فكان في نظرة الازدراء التي تطلع بها المحترفون إلى هذه الآلة التي تزعم لنفسها قدرة تتحدى احترافيتهم والدور الذي تلعبه خبراتهم ومواهبهم وأذواقهم الشخصية خلال التصوير وتحميض الفلم، وخاصة ما يتعلق بالتصوير الفني بالأسود والأبيض.

ولسنوات، ظلت مسابقات التصوير الفوتوغرافي ترفض أية مشاركات رقمية لاعتبارات عديدة، منها قدرة المصور الرقمي على التدخل في تعديل الصور من خلال معالجتها بواسطة برامج الكمبيوتر مثل برنامج «فوتوشوب» و«بيكتور بروجكت» وغيرهما.. بحيث بات باستطاعة المصور أن يغيِّر في ألوان الصورة ووضوحها، وتحويلها من صورة بالألوان، إلى صورة بالأبيض والأسود، وحذف بعض التفاصيل الظاهرة فيها إن لم تعجبه وغير ذلك الكثير. وما زالت هذه المشكلة قائمة إلى حد بعيد، رغم تطوير برنامج يستطيع أن يكشف «الغش الفوتوغرافي»، من خلال رصد شبكات النقاط الرقمية التي تتكون منها الصورة، ليعرف بالتالي ما إذا كان المصور قد أجرى عليها تدخلاً رئيساً.

ولكن، لا تعالي المحترفين ومنظمي مسابقات التصوير الفني ولا العروض الترويجية للأفلام التي صارت توزع مجاناً (فلم مجاني مقابل تظهير أي فلم) استطاع أن يوقف زحف الرقمي. ففي كل شهر على مدى السنوات السبع أو العشر الماضية، كانت المجلات المتخصصة والعلمية عموماً تطالعنا بأخبار طرز جديدة من الآلات الرقمية أكثر تطوراً من النماذج التي ظهرت في الشهر السابق. ووصل مستوى وضوح الصور، وتطور البرامج المدمجة بالآلة إلى مستوى هو أقرب إلى الخيال الذي لم يراود أشد المصورين طموحاً قبل سنوات عشر فقط..

متاعب الفلم إلى غير رجعة

فبموازاة تمسك المصورين المحترفين والفنانين منهم بالفلم لبعض الوقت، وحنينهم إليه اليوم بعدما أصبح من الماضي، يقر الجميع أن انتصار التصوير الرقمي ورواجه على كافة المستويات، يعود أساساً إلى معالجته الجذرية لمتاعب التصوير بالأفلام، وهي كثيرة. فهناك أولاً التكلفة المادية (ثمن الأفلام وكلفة تحميضها وطباعتها). وهذه التكلفة كانت تبقى في بال المصور، فيبقي عدد اللقطات ضمن حدود المعقول. أما اليوم، فبإمكانه أن يلتقط بالآلة



الفلم.. في ذمة التاريخ؟



Flickr

المختبر.. حيث كان المصور الفنان يتدخل في صناعة الصورة

الرقميـة آلاف الصـور مـن دون أية تكلفـة إضافية على ما تكلفة الصـورة الواحدة، ويمكنه أن يمحو فوراً كل اللقطات التي لا تعجبه ليحتفظ بالجيد منها.

كان التصويـر الفلمي يحرم المصور من رؤية نتيجة عمله فـوراً، وكان عليـة الانتظـار إلى مـا بعد تحميض الفلم. وإذا كانـت اللقطة غير موفقة، فهـذا يعني أن عمله ذهب سـدى، لأن التصوير بالأفلام، كان فعلاً «تصوير الفرصة الواحـدة». أما الآلـة الرقمية فتظهر النتيجـة فوراً، وتتيح للمصـور إعـادة التقـاط الصورة بشـكل أفضـل إذا شاء ذلك.

وحتى لـو افترضنا جدلاً أن المصور علـى درجة كبيرة من الدرايـة بمهنته، فإنه يبقى في مواجهة حوادث غير متوقعة تطيـح بجهده، منهـا: انتهاء الفلم في لحظـة حرجة، فراغ جعبته من الأفلام، الأخطـاء البشرية المتعددة في تركيب الفلم بسرعة بحيث يبقى طرفه الآخر غير عالق بالأسطوانة وتكـون كل اللقطات «علـى مافيش»، أو فتـح الكاميرا خطأ وفقـدان الصور إلى غير رجعة، أو أي حادث غير متوقع في المختبر.

وتؤكـد تجـارب المحترفين أنهـم كلهم اصطدمـوا أحياناً بعوائـق لم يكن بمقدورهم تجاوزها، مثل الحاجة المفاجئة إلى نوعية محددة من الأفلام، إما لجهة حساسيتها للضوء، وإمـا لجهـة كونهـا ملونـة أو بالأسـود والأبيض، ولم يكن بإمكانهم الحصول على حاجتهم هذه في الوقت المناسب. كل هذه الهواجس والعثرات تجاوزتها الكاميرا الرقمية إلى حـد كبير. وهي لا تزال في تقدم مضطـرد وفائق السرعة، وهذا ليس بمستغرب وسط ما نراه من التقدم قفزاً في دنيا المعدات الإلكترونية.

اختصار مراحل الطباعة

إذا كان مـا تقدَّم هو ما يلحظـه أي شخص استخدم نمطي التصويـر هذين (الفلمي والرقمـي)، فثمة تحولات جذرية لا يعرفهـا غيـر المتخصصين، وطرأت علـى بعض المهن التـي تحتاج إلى الصور الفوتوغرافية، ومنها بطبيعة الحال دور نشـر الكتـب المصورة والمجـلات والمنشـورات على اختلافها.

ومـن بـاب إشباع الفضـول، أو لفـت النظـر، نشير إلى أن الانتقال مـن التصوير بالفلم إلـى التصوير الرقمي أدى، مـن جملة ما أدى إليه، إلى إنهاء مهنة فنية وتقنية متطورة رافقـت صناعة الطباعة الملونـة منذ ظهورها قبـل حوالي قرن من الزمن، ألا وهي مهنة «فرز الألوان» ومعالجتها.

فقد كانـت مهمة الدور المتخصصة بهـذه العملية معالجة الصـورة الملونـة وتهيئتها كـي تصبح طباعتهـا ممكنة في كتاب أو مجلة أو ملصق. ومن دون الخوض في تفاصيل هذه الحِرفـة الحساسة، يمكن إيجاز مـا كان مركز فرز الألوان يقـوم به بالقـول إنه كان يأخـذ الصورة الملونـة، ويحولها مـن صورة ذات ألوان متصلة، إلى صـورة منقطة، ثم يوزع نقاطهـا على أربعة أفلام، يمثـل كل واحد منها أحد الألوان الرئيسة الأربعـة: الأحمر، الأصفـر، الأزرق والأسود. ومن دون هـذه العمليـة، كان مـن المستحيل طباعـة أية صورة ملونة في كتاب أو مجلة.



إضافة الألوان يدوياً قديماً

والواقع أن التصوير الفوتوغرافي الملون نفسه، كان يقوم في بداياته على الأساس نفسه، ولكن بالاتجاه المعاكس. إذ كان يقضي بأن يثبِّت المصور الكاميرا والمشهد أمامه، ليلتقط أربع لقطات متتابعة، مستخدماً في كل لقطة فلتر (مصفاة لونية) لواحد من الألوان الرئيسة الأربعة.

ويمكن للقارئ الذي يرغب في أن يشاهد نموذجاً واضحاً، أن يأخذ عدسة مكبرة ويتطلع من خلالها إلى صورة مطبوعة في مجلة، ليرى أنها في الحقيقة مكونة من نقاط صغيرة ملونة ومتداخلة. ولكنه لن يرى هذه النقاط لو تطلع إلى صورة ملونة كان قد التقطها بفلم، إذ سيطالع ألواناً متصلة لا نقاط صغيرة فيها.

إن ما أنجزته الكاميرا الرقمية هو نصف ما كان يقوم به مركز فرز الألوان. فحين تلتقط صورة بأية كاميرا رقمية كبيرة كانت أم صغيرة، فالصورة تكون منقطة. وتسمى هذه النقاط «بكسلز». ويرتبط وضوح الصورة وقابليتها للتكبير بكثافة عدد البكسلز في المساحة المحددة. ولهذا راحت الشركات المنتجة لآلات التصوير الرقمي تسعى إلى زيادة عدد هذه النقاط حتى وصلت إلى كثافة في بعض الآلات الاحترافية إلى إمكانية تكبير الصورة حتى مقاييس تكيَّل بالأمتار من دون أن تفقد وضوحها.

أما مراكز فرز الألوان فإنها تستمر اليوم في تأدية المرحلة الأخيرة من مهامها التي كانت تقوم بها قبل ابتكار الكاميرا الرقمية. ألا وهي معادلة ألوان الصور وتعديل إضاءتها وتحسين وضوحها. وكان لهذا العمل ولا يزال دور كبير في تحسين نوعية المطبوعات المصورة، لأنه يقوم على حرفية عالية وذوق مرهف ونظر حساس، ويلعب دوراً مهماً للغاية في جعل الصورة الملونة (وحتى تلك التي هي بالأبيض والأسود) في الكتب والمجلات على مثل هذه الدرجة من الجودة والجمال.

ولكن لا يجب على العاملين في مراكز فرز الألوان الاطمئنان كثيراً إلى بقاء «نصف المهمة» التي يؤدونها اليوم إلى الأبد لأن برامج تعديل الصور وتحسينها تتطور من يوم إلى يوم، فإضافة إلى برنامج فوتوشوب المعروف، صارت آلات التصوير الرقمي تأتي مصحوبة ببرامج خاصة يمكن خلال إنزالها على الكمبيوتر معالجة الصور الملتقطة بالآلة نفسها، وصولاً إلى جعل صورة التقطت ليلاً، تبدو وكأنها التقطت نهاراً.. ناهيك عن برامج التحسين والتعديل المدمجة بالآلات المتطورة.

والمصور الجوال انقرض فجأة

طوال القرن العشرين، وبسبب تكلفة اقتناء آلة تصوير وممارسة هذه الهواية، كان هناك مصورون محترفون يحملون آلاتهم ويتنقلون بها ما بين الأماكن السياحية لالتقاط الصور التذكارية لسياح لا يحملون آلات تصوير،

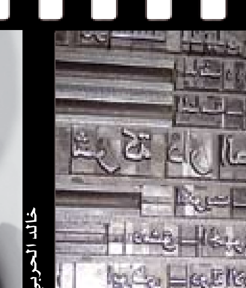
عالم شاسع يتبدَّل مع زوال الفلم



Magnum

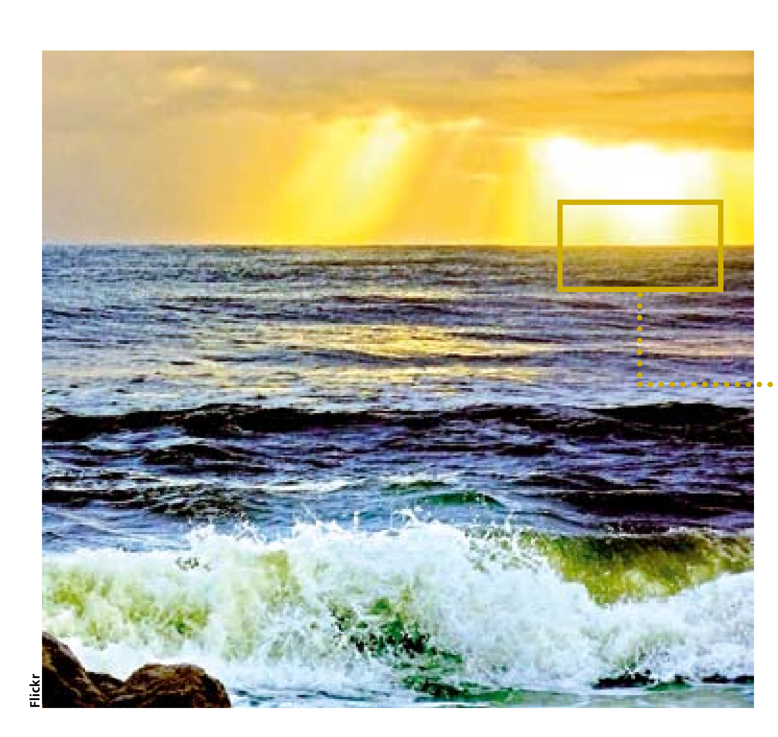


Flickr





خالد الحربي



عملية فرز الألوان

والقـرى النائيـة لالتقـاط الصـور التذكاريـة لأهاليها في مناسبات محددة مثل الأعياد والأعراس وما شابه.

ولكـن الانتشـار الهائـل لآلات التصويـر الرقمـي، وخاصة تلك المدمجـة بأجهزة الهاتـف المحمول، أدى إلـى الاستغناء المفاجـئ عن المصور الجوال، واختفائه بسرعة حتى من الأماكن السياحية، طالما أن السياح صاروا يحملون عَرَضاً آلـة تصوير (من خـلال هواتفهم) تغنيهم عن معـاودة الاتصال بالمصور بعد وقت للحصول على الصور بعد تحميضها.

ولكن، أيهما أمتع، تفحص ألبوم الصور، أم مشاهدتها على الكمبيوتر؟

وعلى غرار المصـور الجوال الذي نعرفـه جيداً، انقرضت مهـن وأعمـال كثيـرة كانـت قائمة بعيـداً عـن بصرنا في مصانع الأفلام ومختبرات التحميض. كما طرأ تحول كبير على تجارة آلات التصوير بحد ذاتها إذ ان عدد قطع الغيار والاكسسـوارات التي كانت تملأ الرفوف في هذه المحلات، بـات يتضاءل يوماً بعد يوم لأن البرامج الكمبيوترية صارت تؤدي الأدوار التي كانت هذه «الاكسسوارات» تؤديها.

الرمق الأخير في حياة الفلم

حتى وقت قصير جداً مضى، كان أنصار التصوير التقليدي بالفلـم يـرددون أن نوعيـة التصويـر الرقمـي لـم تبلغ في جودتها النوعية العاليـة التي يمكن أن توفرها آلات تصوير احترافية مثل «هاسلبلاد» و«لايكا» لجهة تعاملها مع الألوان غير الطبيعية. وبسرعة تلقّى هؤلاء رداً من هاتين الشركتين بتبنيهمـا التقنية الرقمية في تقديـم آلات تصوير لا تتفوق فقط علـى الآلات التجارية من المـاركات الأخرى، بل على الطرز التي أنتجتها قديماً للتصوير بواسطة الأفلام. بحيث لـم يعد أمـام أنصار التصويـر الفلمي اليوم غيـر الزاوية الضيقـة المتمثلة في التعليـم والتدريـب. إذ ان كل معاهد تعليـم التصويـر الفوتوغرافـي، لا تزال تتبـع مناهج تقوم أساساً على التصويـر بالأفلام (وربما حتى مستقبل قريب ومحـدود)، وحجتها في ذلك أن على المصور المحترف أن يفهـم أدق التفاصيل التـي تدخل في صناعـة صورة جيدة ومميـزة، وأن يتعلـم قيـاس المسافة ودورهـا، وقوة الضوء ونوعـه وتأطيـر المشهد المطلـوب وغير ذلـك. ومثل هذه الحجج تبدو منطقية ولها ما يبررها.. ولو إلى حين!

مخزنك «كمبيوترك»

وقلب التصوير الرقمي طريقـة حفظ الصور رأساً على عقب، بعدمـا أصبـح الكمبيوتـر هو مخزنهـا. ومنه يمكـن نقلها إلى قـرص مدمج، أو إلى شريحة ذاكرة خارجية (U.S.B)، أو إلى البريد الإلكتروني كوسيط لإرسالها إلى الجهة أو الجهات التي نريد إرسال هـذه الصورة إليها. فالتقنية جعلت توزيع ملايين النسـخ من الصورة الواحدة على عدد غير محدود من الناس، أمـراً يسيراً أمـام كل الناس. ولا يتهدد هـذا المخزن الجديد وقدراته غير الحوادث النادرة مثل إصابة ذاكرة الجهاز بعطل يستعصي إصلاحـه، تضيع معه كل ما تحمله هذه الذاكرة من صور فوتوغرافية وغيرها من المعلومات المحفوظة فيه.

ومن جملة ما أدى إليـه هذا المخزن الجديد، القضاء شبه المبـرم على ألبوم الصور الورقية الجميل، وعلى الاستمتاع التقليدي بتصفحه، واختفاء علب الكرتون الحافظة للصور مـن البيوت، وتوقـف رفوف قاعات الأرشيـف في الصحف والمجـلات والمؤسسات عـن التمدد، بعدمـا أصبح قرص



صلب بحجم راحة اليد قادراً على تخزين صور كانت في حلتها الورقية تحتاج إلى قاعات كبيرة لتخزينها.

ولكن.. هل كل ما في الرقمي أفضل؟

لو تطلعنا اليوم إلى تعامل الناس في حياتهم اليومية مع الصور التي يلتقطونها إما بواسطة آلات التصوير أو بواسطة هواتفهم الجوالة، للاحظنا فرقاً مهماً مع ما كان يحدث بالأمس.

فاستعراض الصور بات يتم اليوم على شاشة الكمبيوتر، وليس من خلال تداول الصور الورقية كما كان الحال في الماضي. فإذا كنت في زيارة صديق في بيته أو مكتبه وأراد أن يريك صور التقطها في رحلة أو صورة ابنه مثلاً، لدعاك إلى الانتقال حيث الكمبيوتر. وإن أراد إرسال صورة إلى ذويه أو أصدقائه، لفعل ذلك بواسطة البريد الإلكتروني. وهذا يعني أن على هؤلاء أن يشغلوا أجهزة الكمبيوتر عندهم ليتمكنوا من مشاهدتها.

من جهة أخرى، أدى دمج آلات التصوير في الهواتف المحمولة إلى تطبيق فعلي للشعار القائل «كاميرا جاهزة لكل من ليس لديه كاميرا». الأمر الذي حوَّل كل الناس إلى مصورين. ولكن أمام



الطابعات الجديدة.. التي حلَّت محل المختبرات

هذه الطفرة العالمية والشاملة يمكننا أن نتساءل كم من ملايين الصور الملتقطة ينتقل فعلاً إلى الكمبيوتر؟ وكم منها يطبع لاحقاً على الورق ليصبح متداولاً بسهولة بين الأيدي؟

ليس من السهل استعراض الصور على شاشة الكمبيوتر أينما شاء صاحبها. أولاً لأن هذا الكمبيوتر يجب أن

ضحية تقنية أم اقتصادية؟

في 18 ديسمبر من العام الماضي 2008م، أعلنت شركة «بولارويد» إفلاسها رسمياً في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ظهر الخبر في وسائل الإعلام في خضم الأخبار عن عمليات الإفلاس والخسائر التي بدأت تعصف بالاقتصاد العالمي منذ نهاية صيف ذلك العام. الأمر الذي جعل الكثيرين يردون السبب في إفلاس «بولارويد» إلى المناخ الاقتصادي العام دون غيره. ولكن الواقع يشير إلى غير ذلك.

فقد بنت هذه الشركة مجدها على ابتكار التصوير بالفلم الفوري، أي قدرة آلاتها وأفلامها على طباعة الصورة تلقائياً بعد التقاطها من دون الحاجة إلى المختبرات، وذلك منذ العام 1937م، وطوال السنوات اللاحقة من القرن العشرين. فعلى مدى سبعة عقود تقريباً استخدم هذه الآلات المميزة الهواة في منازلهم والمصورون الجوالون في الأماكن السياحية، مثلهم مثل المحترفين الذين كانوا يلتقطون صوراً بآلات «بولارويد» للمشاهد الثابتة التي يريدون تصويرها لدراسة الإطار وتركيب المشهد وتعديله قبل التقاط الصور النهائية بأفلام شديدة الوضوح وجيدة النوعية. واعتبرت هذه التقنية ملكية خاصة بهذه الشركة دون غيرها، حتى أنها استطاعت من خلال معركة قضائية في 18 يناير 1986م إجبار شركة «كوداك» على سحب آلة تصوير مماثلة كانت قد طرحتها في الأسواق.

وعلى الرغم من أن «بولارويد» كانت من الرواد في تطوير الكاميرا الرقمية، إلا أنها فشلت في انتزاع حصتها من السوق، وبقي اعتمادها على تسويق آلتها التقليدية للتصوير الفوتوغرافي بالفلم. الأمر الذي أدى بها إلى إعلان إفلاسها للمرة الأولى عام 2001م، وبيع أصولها لـ «بنك وان».

وأقرت هذه الشركة بنوعية التحولات التي طرأت على عالم التصوير. فأعلنت آنذاك عزمها على التوقف عن إنتاج آلات التصوير الفوري في عام 2007م، والأفلام في عام 2009م. ولكن يبدو أن تحولات السوق كانت أعنف من أن تمهل الشركة ما يكفي لدخول السوق الرقمي، فأعلنت إفلاسها الأخيرفي نهاية العام الماضي.


Getty Images

شاهد النتيجة فوراً

يكون متوافراً، وأن يكون صاحبه بمزاج مستعد لتشغيله. إضافة إلى أن الصور المطبوعة والمنظمة في «ألبوم» هي أسهل بكثير على التصفح. كما أن إمساك صورة باليد والتطلع إليها يختلف تماماً عن رؤيتها مضاءة على شاشة.

من جهة أخرى، فإن التقاط الصور الذي بات سهلاً جداً بالآلات الرقمية، يختلف عن تخزينها وطباعتها. وربما كان التخزين يتطلب خبرة في الحفظ و«الأرشفة»، وجهداً أكبر من الجهد المطلوب لإرسال فلم إلى مختبر التظهير. فالفلم الذي انتهى صاحبه من تصويره هو جسم صلب موجود وملموس على عكس آلاف الصور المخزنة في ذاكرة الكاميرا أو الكمبيوتر نفسه حيث هي حقيقة افتراضية، ربما نراها يوماً، وربما تتوه في غياهب الخزائن الإلكترونية، حيث تتراكم هذه الصور إلى ما لا نهاية، من دون أن تفيض بالضرورة.

معركة أخرى حسمت بين جديد وقديم

لا شك في أن المعركة بين التصوير بالفلم والتصوير الرقمي قد حسمت بشكل نهائي لصالح الأخير، في حين أن معارك أخرى ما زالت قائمة ما بين بعض الابتكارات التقليدية وأخرى تم تطويرها اعتماداً على التكنولوجيا الرقمية.

ولهذا الحسم حسنات كثيرة. ولكن فيه بعض الخسارة التي لا تعوَّض، لأمور قد لا يعرف قيمتها إلا من له علاقة حميمة بفن التصوير الفوتوغرافي، هذا الفن العريق والمعاصر في آنٍ واحد، لأنه لم يكن موجوداً قبل اختراع آلة التصوير التقليدية.

ليس الموضوع مجرد «نوستالجيا»، أي حنين إلى جمال الأشياء القديمة والأيام الخوالي مثل المقارنة بين السيارة وعربة الخيل، أو الهاتف الثابت والهاتف المحمول.. فهناك أشياء نفتقدها من دون أن نستطيع أن نحصيها أو أن نتعرف إليها بدقة، أو حتى أن نعرف ما إذا كان لهذه الخسارة أي أثر مهم في تقدم المجتمع والثقافة. فمن المعروف أن فن التصوير الفوتوغرافي هو فرعان: التصوير الملون والتصوير بالأسود والأبيض. ولكل منهما جمالياته وفنه. ورغم انحسار الأبيض والأسود لحوالي عقدين من الزمن، إلا أنه عاد بقوة كالشاهد الأهم على فن التصوير الفوتوغرافي، لا يعطي جماله ووقعه لأي فن آخر. وطبعاً، للتصوير الملون لمعانه وجاذبيته هو الآخر. لكن هل يا ترى سيعود التصوير بالفلم يوماً كفرع ثالث، مدعياً الاحتفاظ بجمالية خاصة لا يستطيع التصوير الرقمي تحصيلها ضمن قدراته؟

وقد يقول حاملو راية الفلم إن المصور حين يلتقط صورة واحدة، يعرف أنه يصعب عليه التقاط الثانية مباشرة بعدها، كما أنه لا يستطيع التقاط عشرين صورة دفعة واحدة كما هو الحال في الكاميرا الرقمية. وبالتالي تكون نفسه مركزة على مهمته بقوة، تجعل من اختيار لحظة الضغط على زر التقاط الصورة أشد تجاوباً مع التركيز العاطفي والإحساس باللحظة والمشهد، مما هو عليه الحال مع «ضرتها» الجديدة. من يدري؟ ولكن، ولو حصل الأمر وعاد الفلم إلى آلة التصوير بعد غياب أو شبه غياب، فلن تكون له إلا مساحة صغيرة في زاوية الملعب.

التصوير الرقمي
من المهد إلى أيدي الجميع



Flickr

ظهرت أول كاميرا رقمية في السوق عام 1986م، وكانت دقة التسجيل الرقمي 1.4 Mega pixel، أي مليون وأربع مئة ألف نقطة في الصورة. وفي العام 1991م أنتجت شركة «كوداك» بالاشتراك مع شركة «نيكون» كاميرا احترافية متخصصة للمصورين الصحافيين.

ومن ينظر إلى عالم التصوير الفوتوغرافي في أيامنا هذه يكاد لا يصدق سرعة التطور والتغير التكنولوجي الذي لحق بهذا الفن. كذلك قد لا يصدق المتابعون لهذا التطور السريع أن إنتاجاً جديداً بات يظهر كل بضعة أشهر، في هذا المضمار. ولأن هذا التحول أُلحق بالكمبيوتر الذي صار متداولاً بين عامة الناس، ولأن الهواتف المحمولة ربطت بعالم التصوير، فباتت الصورة جزءاً من وسائل الاتصال، أصبحت الصورة كلاً متكاملاً ووسيلة للاتصال بين البشر، وأضحى حضورها فاعلاً وأساسياً في حياتنا اليومية، يتداولها عامة الناس والمحترفون على السواء.

في الماضي القريب، أي منذ سنوات عشر، لم يكن التصوير الفوتوغرافي متداولاً بين عامة الناس كما هو اليوم، ولم يكن يحمل الكاميرا إلا المحترفون أو الذين يهتمون بمتابعة فن التصوير الفوتوغرافي أو يمارسون هذه المهنة من مصوري الصحف أو الأستديوهات. بينما نرى اليوم أن الكاميرا الرقمية أصبحت موجودة في كل الأوقات ومع عامة الناس، حتى أصبح كل حامل للجوال مصوراً.

وتتجلى قيمة التصوير الرقمي ودوره، في تلبية حاجة الصحافة إلى توفير الصور في الوقت المناسب لإصدار الصحيفة، أي يمكن تلقي الصورة ونشرها في الصحف، في الربع الساعة الأخير قبل الطباعة، وهنا دور التصوير الرقمي. كذلك تضمن الصورة الرقمية حضورها على صفحات الأخبار الإلكترونية، أي المواقع على الشبكة الدولية. وتتفوق الصورة في التواصل ونقل الأخبار والمعلومات، بسبب ضرورة وصول الصور الأولى عن وقوع الأحداث العالمية، والكوارث الطبيعية والهجمات، التي التقطتها عدسات المصورين محترفين وهواة. فباتت هذه الصور مصدراً أول للأخبار في العالم، بصرف النظر عمّن التقطها، هاوياً كان أم محترفاً، صادف وجوده في قلب الحدث.

وليس مبالغة القول اليوم، إن الصورة صارت اللغة الأسهل والأسرع في العالم، التي لا تحتاج إلى ترجمة. إنها صلة وصل مباشرة بين الشعوب كلها. كذلك تعدّ الصورة اللغة المشتركة لكل أنواع الصحافة المكتوبة والمرئية، وكذلك في الصحافة الإلكترونية والمدوّنات.

ومن حسنات التصوير الرقمي أنه يسمح للمصور، الذي يلتقط صوراً لحدث ما، بمراجعة ما التقطته عدسته ومدى نجاحه بالتقاط الصورة أو المشهد الذي يطمح إليه. وبذلك، تسنح له فرصة تصحيح الخطأ إذا وُجد، من حيث نقاء الصورة وسرعة الضوء والزاوية التي اعتمدت لأخذ الصورة. فيتيح هذا إنتاج المزيد من اللقطات الجيدة نوعاً، بصرف النظر عن موضوع الصورة.

كذلك من حسنات التصوير الرقمي أنه تفادى استعمال الأفلام (النيغاتيف Negative) التي كانت تتعرض للخدش والتلف والاتساخ. أما سيئات التصوير الرقمي ففي مقدمها طفرة شيوع آلات التصوير حتى في الهواتف النقالة، حتى ظهر أناس يحسبون أنفسهم مصورين، على حساب جودة الصورة من الناحيتين التقنية والجمالية، واختيار الإطار والزوايا والأبعاد المختلفة في صورة متكاملة.

وتبقى الصورة الصدى المدوي في الصحافة المكتوبة والمرئية. فنحن نعيش عالماً كله صور، ومهما كثر عدد المصورين، فستبقى الصورة الجميلة فاعلة مؤثرة في الرأي العام، تاركة أثراً لا يمحى من ذاكرة المجتمع.

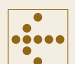
جمال السعيدي
نقيب المصورين في لبنان

صورة شخصية



لو كان شغف يوسف زيدان بالمخطوطات العربية مجرد هواية، لكان واحداً مثل الألوف غيره. ولكن الرجل جعل من حبه للكتاب، وللمخطوطة بشكل خاص، محور حياته ومشروع عمره. فأعاد إلى المكتبة العربية الكثير من كنوزها الضائعة، جمعاً وتصنيفاً وتحقيقاً، كما تبيِّن لنا ابتسام محمد* هنا من خلال هذا العرض الموجز لصورة واحد من أكبر حماة المخطوطات العربية في عالمنا اليوم.

يوسف زيدان
عندما يصبح الشغف نمط حياة



ولد يوسف محمد أحمد طه زيدان في سوهاج سنة 1958م، ثم انتقل للأسكندرية مع جدته لأمه بعد ولادته مباشرة ليعيش معها هناك إثر خلاف حدث بين جده لأبيه وجده لأمه سماه «اختلاف الجبابرة». وكان الحاج أحمد أمين -جد يوسف لأبيه- من أسرة ثرية من بلدة العوامية بالصعيد. أما جده لأمه فهو من بلدة طهطا وهي بلدة بالصعيد أيضاً ولكنه تركها في شبابه بعد أن ضاقت به الحال وانتقل إلى العيش في الأسكندرية. وهناك، أصبح صاحب مقهى في منطقة غيط العنب. ثم بعد عام ونصف العام من ذهابه إلى الأسكندرية لحقت به ابنته، وهي والدة يوسف، وكانت حاملاً بأخيه الأصغر بعد أن طلقها والده.

* صحافية سعودية

فقد استطاعت هذه الأسكندرانية إقناع والد يوسف بالذهاب معها إلى السينما في سوهاج؛ وهذا أمر لا يغتفر عند الحاج أحمد، فأرغمه على تطليقها طلاقاً بائناً عقاباً لهما على ذلك. وبقي أبو يوسف في الصعيد حيث تزوج ست مرات بعد أم يوسف لينجب عشرة أبناء كلهم إخوة يوسف.

طريقه إلى نهاية الكون

كان يوسف يعاني وحدة قاتلة في صغره بسبب الحصار الذي فرضه عليه جده لأمه. وفي السابعة من عمره قرر الذهاب إلى نهاية الكون. ومن دون أن ينتبه إليه أحد؛ غافل من حوله وتسلل إلى منطقة «غيط العنب» وظل يمشي مبتعداً عن العمران حتى إذا ما بدأ الظلام يغزو السماء وصل يوسف إلى وجهته أو هكذا ظن عندما سد عليه الطريق سور عالٍ ممتد إلى ما لا نهاية. وقتها، علم أن الإنسان يستطيع الحصول على ما يريد إذا سعى بجد ومن دون كلل أو تقاعس. علماً بأنه يعرف اليوم أن ذلك السور لم يكن غير سور شركة الغزل والنسيج وليس نهاية الكون كما كان يعتقد.

التحق يوسف بمدرسة خاصة، وعندما حان وقت انتقاله إلى الصف الثالث، أخرج من المدرسة ليلتحق بمدرسة راغب الابتدائية الحكومية لأسباب مادية. وطبقاً لأنظمة الحكومة، فقد تعيَّن عليه أن يعود للصف الأول حسب عمره، وقد كان يتعجب من بكاء الأطفال لفراق ذويهم بقدر ما كان يتعجب

مـن تفاهـة الواجبات التـي كانـت تفرض عليهم.

لـم يتأقلـم يوسف مـع زملائـه، حيث كان يشعـر أنـه أكبر منهم رغم أنهـم في العمر نفسـه. ولكن شغفـه بالقـراءة أكسبه وعياً وثقافة أضافت إلى عمره سنوات. وقد كان خالـه فتحي هاشم يصطحبـه معه وهو في سـن الحادية عشرة تقريباً إلى قصر ثقافة الحرية. فأكمل قراءة جميع الكتب في مكتبة الأطفـال هناك في شهريـن فقط. ثم صار يتسلـل خفية إلى مكتبـة الكبار حيث الكتب الحقيقية من وجهة نظره. وقد شهدت مكتبة الكبار بالقصـر حبه الأول وهـو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمـره حين شكته موظفة المكتبـة إلى المديرة بسبـب تسلله المتكرر إلـى قسم الكبار رغـم إخراجه من المكتبة عدة مرات. وحين نظرت إليه مديرة المكتبة، رأى يوسـف وقتها بحراً من عسل الجنة كما يقـول: «وابتسمت .. فانطلقـت أغنيات من خلف الكـون، وشعرت بـأن الأشياء تلاشت من حولـي، أفقت حين توجَّهت بكلامها إليَّ مستفسرة عـن الموضوع، رجوتها -بكلمات لا أذكرهـا الآن- أن تسمـح بدخولي مكتبة الكبـار فوافقت، ودعتني لحضـور ندوة في اليوم التالي لمناقشة رواية دافيد كوبرفيلد. فقرأت الرواية في النهـار، وشاركت الكبار في مناقشتها في المساء، فأعطتني المديرة فـي نهاية الندوة قلماً بديعـاً مزخرفاً هدية من القصـر».

شغفه بالكتاب:
من القراءة إلى المخطوطات

حين التحـق يوسـف بمدرسـة العطارين الإعداديـة لـم تعـد مكتبة قصـر الثقافة تكفيـه. فاستـدل علـى ميـدان المحطة، حيـث كان تجـار الكتـب يبيعـون الكتاب الواحـد بخمسـة وسبعيـن قرشـاً، وحين إرجاعـه ينقصـ ثمنه عشـرة قروش هي ثمن قراءته. فكان يقـرأ كتابين في اليوم حيـن توصل إلى اتفاق بعـد مفاوضات مع تجار الكتب وهو أن يعيروه الكتاب بخمسة قروش فقط.

استمر على هذه الحال حتى التحق بثانوية العباسية وصار يهرب من المدرسة للبقاء فـي مكتبة بلدية الأسكندريـة لأطول وقت ممكن لاستهانتـه بالمقـررات الدراسية. وقد كانـت كتب الفلسفة متعتـه الحقيقية خاصـة كتـب نيتشـه، ومن بعدهـا الكتب اليونانيـة القديمـة والغربيـة الحديثـة. ثـم حصل لاحقـاً علـى درجـة الدكتوراة فـي الفلسفـة الإسلاميـة مـن جامعـة الأسكندريـة عـام 1989م، ثـم درجـة الأستاذيـة في الفلسفـة وتاريخ العلوم في ديسمبر 1999م، بإجمـاع لجنة الترقيات بالمجلس الأعلى للجامعات. وكان أول كتبه المنشورة تحقيق «المقدمة في التصوف» لأبي عبد الرحمن السلمي.

بدأ اهتمامه بالتراث من صالات المزادات فـي منطقة العطاريـن بالأسكندرية، وهي منطقة قديمة تنتشر بها محلات العاديات والتحـف الأثريـة بالإضافـة إلـى صالات ودكاكيـن للمـزادات. كان شغوفاً بالتجول فيها عندما كان صغيراً لقربها من المنطقة التـي نشأ فيهـا، وقـد كان يشتـري بعض الأشيـاء القديمة إذا سمحـت له ميزانيته بذلك ويقـوم بإصلاحها وإعـادة تلميعها. وهكـذا استمر شغفه بكل ما هو قديم حتى أثار ابن النفيـس اهتمامه، فبدأ بجمع كل ما ينتمي إلى ابن النفيس من مخطوطات، حتـى أصـدر عنـه أربعـة كتب نالـت عام 1994م جائـزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية / مؤسسـة الكويت للتقدم العلمي، في مجـال الفقـه الطبي وتحقيـق التراث وفق أصول فن التحقيـق. ثم قام في إطار اهتمامـه بابن النفيـس بجمع مخطوطات «الشامـل» -وهو موسوعـة صيدلانية لابن النفيـس- مـن مكتبـات العالـم وخزانات المخطوطـات العتيقة كافة. وظـلَّ يجتهد فـي استكمـال الأجـزاء المتناثـرة حتـى اجتمع بين يديه أربعون كتاباً من موسوعة «الشامل»، وقام بتحقيقهـا ودراسة نصها المخطوط، إلى أن صدر الكتاب في ثلاثين جـزءاً نشرهـا المجمع الثقافـي بأبوظبي إيمانـاً بأهميتها.

عمـل الدكتور يوسـف مستشـاراً لمشروع المخطوطـات بمركـز المعلومـات، كمـا أشـرف على سلسلة كتـب الفلسفة والعلم التـي تصدرهـا الهيئـة العامـة لقصـور الثقافـة، وزارة الثقافـة المصريـة. كمـا قـام -منذ مطلـع التسعينيـات- بفهرسة حوالـي 18.000 مخطوطـة موزَّعـة علـى مكتبات مصر. وأشـرف على سلسلة كتب تراثنـا التي تصدرهـا دار الأمين ومطابع سجل العرب بالقاهـرة، إضافة إلى عمله كمستشـار للتراث والمخطوطات ومشرف على قسـم المخطوطات والكتـب النادرة بمكتبـة الإسكندريـة، وأمينـاً للتزويـد بالمكتبـة منـذ عام 1994م، لـه ما يقرب مـن 52 كتابـاً مـا بيـن دراسـة وتحقيـق وتأليف، و600 مقالة منشورة في الجرائد والمجلات، فضـلاً عما قدَّمـه عبر عالم الإنترنـت والبرمجيـات فـي محاولة لسد الفراغ فيمـا يتعلق بالتراث والمخطوطات العربية والإسلاميـة على شبكة الإنترنت. ومـن ضمـن إسهاماتـه في هـذا المجال موقـع الدكتـور يوسـف زيـدان المجانـي على شبكة الإنترنـت بجهد شخصي منه. وهو خلاصـة رحلتـه الثقافيـة على مدى 20 عامـاً، إضافـة إلـى إصـدار مجموعة أسطوانـات رقميـة تحتـوي علـى بعض المخطوطـات القيِّمـة كنصوص كاملة مع برنامج تصفح للمخطوطـة مثل: قصيدة «البُـردة» للبوصيـري، و«التاريـخ الكبير» للمقريـزي، و«ديوان الأريـب في مختصر مغنى اللبيب»، وغير ذلك..

يعمـل الدكتـور يوسـف زيـدان الآن مديراً لإدارتـي المخطوطـات والتزويـد بمكتبـة الإسكندريـة، ونشرت دراسـات عديدة عن أعمالـه مثل (عاشـق المخطوطات، دراسة فـي أعمـال يوسف زيـدان التراثيـة). كما ترجمت بعض أعماله إلى لغات أجنبية. من أعمالـه الأدبية رواية «ظـل الأفعى»، ورواية «عزازيـل»، الصادرتـان عـن دار الشروق. وقد أثـارت روايـة «عزازيل» جـدلاً واسعاً، ورشحـت من ضمن 131 رواية لجائزة بوكر للرواية العربية لعام 2009م.



فن قوامه الذكاء ومزاج المجتمع

النكتة.. أصلها وحقيقتها

تكاد النكتة أن تكون لوناً من ألوان القصص القصيرة جداً جداً.. حتى أن بعضها يتألَّف من جملة واحدة. ومع ذلك، فهي غالباً ما تتضمَّن بداية وحبكة ونهاية، حتى ولو اختزلت الكثير من التفاصيل؛ لأنها تفترض أن المستمع يعرفها. أما السمة الأساسية لهذه الميكروقصة فهي في هدفها: إضحاك المستمع. ولكن لماذا تضحكنا بعض النكات دون غيرها أو أكثر من غيرها؟ وما هو قوام النكتة «الأدبي» حتى تتمكن من تأدية دورها؟ عبدالله الهاشمي* يتناول هنا تاريخ النكتة منذ ظهورها في أقدم الحضارات وتطورها حتى عصرنا، ويعرِّج على أبرز أنماطها، وعلاقتها بالوجدان الثقافي لدى كل شعب على حدة.



هناك أسئلة عديدة تواجه الباحثين في طبيعة هذا الفن الشعبي الساخر الذي نسميه «النكتة». وحيث تتعذر الإجابة عن هذه الأسئلة، أو تندر بسبب ندرة المصادر التي تتناول هذا المجال، تبقى النكتة تقنية لغوية بالغة التكثيف والسخرية، شديدة النفاذ بمضامينها المركزة التي تغني الواحدة منها عن مقال كامل أو حديث مسهب.

فهي موقف صاغه عقل جماعي مجهول بمفردات بسيطة قوامها المفارقات المكثفة التي تعج بها وقائع الحياة اليومية. إنها المنشور الذي ينفذ بسخريته اللاذعة إلى الأعماق، والصحيفة غير المدونة والأداة التي يبدد بها الناس همومهم خصوصاً البسطاء الذين لا يجيدون تدبيج المقالات ولا الخطب والتحليلات العميقة التي تشرح الواقع المعقَّد. فمن خلالها هم يضحكون من عجزهم ومن أنفسهم ويروِّحون هموم الحياة بجوانبها المختلفة.

تُعد النكتة أحد الثوابت الثقافية للمجتمعات حيث تصعد وتهبط مع صعود وهبوط الحضارات. وما يميزها عن الحكايات الطريفة، هو كثافتها الشديدة وحملها للمعنى في سطور قليلة وقدرتها على النفاذ. فالنكتة في شكلها

* باحث ومترجم من السودان

الكلاسيكي مختصرة جداً على غرار: «كنت قبيحاً جداً حينما ولدت، لدرجة أن الطبيب صفع أمي!». في هذا المقال، سوف نحاول القيام بحفريات عميقة لسبر أغوار النكتة في جوانبها التاريخية والفلسفية والنظريات التي تفسِّر طبيعتها، مع التطرق لآخر البحوث في هذا المجال.

تاريخ النكتة الأوروبية

ورد في التاريخ الإغريقي، أن بلاميدوس، بطل حرب طروادة، هو أول من اخترع النكتة. وكان في أثينا حينئذ نادٍ كوميدي يسمَّى «مجموعة الستين»، ويقال إن هذا النادي تسلَّم مبلغاً طائلاً من المال من فيليب حاكم مقدونية لأجل تدوين نكاتهم. لكن الكتاب فُقد في عصور لاحقة، على الرغم من أن بعض المؤرخين يقولون بعدم وجود هذا الكتاب في الأصل.

وفي روما، أشار بلاتو في اثنتين من مسرحياته لكتب طرائف. ويؤكد ذلك سوتنيس عن أحد أساتذة الإمبراطور أوغسطس واسمه ميليس، إذ ألَّف الأخير كتاباً يحوي 150 نكتة مختارة. ولكن رغم ذلك، فقد ورد إلينا كتاب واحد عن النكتة باللغة الإغريقية يعود إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادي ويشتمل على 264 نكتة بعنوان «الحبيب

الضاحك» (Philogelos). أتت طبيعة النكات في هذا الكتاب مختصرة ومركزة مثل: «سأل حلاق أجيراً: كيف تريدني أن أقص شعرك؟ فأجاب الأجير: في صمت!!». ويجدر بالذكر أن هذه النكتة تُعد من ضمن أقدم عشر نكات مدوَّنة في التاريخ. كما يشتمل الكتاب على عدة أنواع من النكات تدور حول شخصيات مثل: البخيل والمتبجح ورأس البيضة أو الغبي. وللأسف، اختفى الكتاب تماماً في العصور المظلمة لأوروبا ومعه اختفى فن النكتة كما يبدو.

بقيت النكتة حيَّة مع ازدهار الحكايات الشعبية العربية في الجزء من أوروبا الذي كان تحت سيطرة العرب، حيث انتشر هذا الفن ووصل حتى إسبانيا وإيطاليا. أما في بقية أجزاء أوروبا المظلمة فلم تعاود النكتة ظهورها إلا مع بدايات عصر النهضة على يد الإيطالي بوجيو.

ولد بوجيو براسكيلوني في عام 1380م وتوفي في 1459م. وخلال حياته، أمضى 50 عاماً في خدمة الكنيسة المضطربة آنذاك. قام بوجيو بنشر كتابه بعنوان «Liber Facetiarum»، والمعروف اختصاراً باسم «Facetiae»، أي الفكاهة في عام 1451م. ويحتوي الكتاب على 273 نكتة جمع أغلبها من خلال رحلاته العديدة في أنحاء أوروبا، ويعود البعض منها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وقد ظهر جلياً فيما جمعه من طرائف تأثر النكتة الأوروبية بالفكاهة العربية وكذلك بحكايات ألف ليلة وليلة.

تتمثل أهمية الكتاب في كونه الأول الذي تمت طباعته مع أول ظهور لحرفة الطباعة، مما أدى إلى سهولة انتشاره على مستوى واسع. إذ سرعان ما تمت قراءته في كل أنحاء أوروبا. إلا أنه بالمعايير الحالية، تُعد النكات الواردة في هذا الكتاب طويلة جداً خصوصاً مع الشروح التي أوردها بوجيو بين جنباته. ولعل ذلك يعود لتأثره بالحكايات العربية، كما أسلفنا. ومن أمثلة النكات التي وردت في الكتاب نذكر التالية: «كان رجل بالغ البدانة مسافراً إلى فلورنسا في إحدى الأمسيات. وفي الطريق سأل أحد الفلاحين: هل تعتقد أنني أستطيع الدخول عبر بوابة المدينة؟ وكان يعني هل يستطيع الدخول قبل إغلاق البوابات. فرد عليه الفلاح متهكماً من بدانته: لم لا. إذا كانت عربة من التبن تستطيع ذلك، فسوف تستطيع أنت أيضاً!».

وفي الفترة نفسها تقريباً في إنجلترا، قام وليام كوكستن، وهو أول ناشر إنجليزي، بطباعة أول كتاب للنكات في عام 1484م. حوى هذا الكتاب بعض النماذج من نكات بوجيو. ومع هذا التطور الذى صاحب ظهور حرفة الطباعة، صارت النكات في عهد شكسبير شديدة الرواج، لدرجة أنه أورد بعضاً منها في مسرحياته.



حدث التطور التالي في فن النكتة مع بدايات القرن السابع عشر حين بدأت النكتة تنحى للقِصر والتركيز، خلافاً لما كانت عليه في عهد بوجيو. في ذلك القرن، قام كاتب مغمور يسمى هيروكليز بنشر كتاب سماه «تعليقات على كلمات فيثاغورث الذهبية» ضمَّنه العديد من نكات بوجيو. وسرعان ما انتشرت نكاته في أنحاء أوروبا أيضاً. لكن التغير الأبرز الذي طرأ على «النكتة الإنجليزية» كان مع ظهور أعمال جو ميلر، الممثل المسرحي اللندني المغمور، بعد نشر كتابه بعنوان «نكات جو ميلر» في عام 1739م والذي طبع في العام الذي تلى وفاته. يحتوى الكتاب نكات مثل: «سُئلت سيدة كيف أحبت رجلاً يغني ورائحة فمه كريهة. فأجابت: الكلمات جيدة ولكن الهواء لا يطاق!».

النكتة البذيئة.. ماذا يكشف تحليلها

ظلت النكتة القذرة من ضمن الثقافة الشفهية لشرائح محددة من بعض الشعوب. ورفضتها جملة وتفصيلاً الشعوب المتمسكة بالقيم الأخلاقية التي تصوغ سلوكها اليومي ولغتها وأدبها. لكن في عام 1960م، قام الأمريكي جيرشن ليقمان بجمع أول كتاب ونشره تحت عنوان «الأساس المنطقي للنكتة البذيئة»، ثم أردفه بكتاب آخر عام 1975م بعنوان «شيء جدي إلى حد بعيد». وحوى الكتاب الأخير أكثر من ألف صفحة من النكات الأكثر بذاءة مقارنة بالكتاب السابق. أراد ليقمان بكتابيه تحليل الجوانب النفسية في النكتة وما تحويه من عنف لفظي موجه من الرجال ضد النساء في الغالب. إذ يؤمن ليقمان بأن النكتة البذيئة هي انعكاس للحالة النفسية للراوي من حيث شعوره اللاواعي بالذنب. وكان من الطبيعي أن يتعرض ليقمان للإقصاء من جانب مجتمع المثقفين بعد نشره لتلك الكتب، كما صُنف «رجلاً خطراً» من جانب مكتب التحقيقات الفيدرالي، حتى أنه اضطر تحت كل تلك الضغوط إلى شد الرحال نحو فرنسا. وفي الوقت الحالي تُعد آثار ليقمان ذات أهمية كبيرة لدى الدوائر المهتمة بالفولكلوريات، إذ استطاع الرجل أن يجعل من هذا النوع من النكات علماً قائماً بذاته يشرح الجوانب السرية للمجتمع.

> **النكتة تتطور ولا تُخترع، ومعظم النكات المحكية اليوم تعود إلى مئات السنين!!**

وفي أمريكا أيضاً، اشتهر آلان دنديز، من جامعة كاليفورنيا، بكتاباته عن النكتة من منطلق أنها جزء من الفلكلور الشعبي. وحاز لقب «أستاذ النكتة» حتى وفاته أمام طلابه في عام 2005م وعلى لسانه نكتة لم يكملها. والمعروف عن دنديز أنه ركَّز في عدد من مقالاته المنشورة في الصحف المهتمة بالفولكلور على موضوعات قذرة ومحددة مثل «نكات المرحاض».

النكتة تتطوَّر ولا تُخترع

يؤمن الفولكلوريون بأن النكتة لا يتم اختراعها ولكن تتطوَّر. وبحسب ليقمان «لا توجد نكتة محكية لأول مرة». فمعظم النكات المتداولة حالياً تعود في أصولها إلى مئات السنين، ولكنها قد تظهر في كل مرة بثوب مختلف بحسب ما يخلع عليها الوسط الثقافي المتداولة فيه من مظهر جديد. وبشكل عام، تظل النكتة الغربية مدينة إلى بوجيو الذي أعاد بعث هذا الفن في الغرب من خلال ما جمعه في كتاب «الفكاهة» عقب فترة ركود حضاري عاشتها أوروبا لنحو عشرة قرون فيما يعرف بالعصور المظلمة.

فلسفة النكتة

تقوم أركان الفلسفة التقليدية على ثلاثة مبادئ هي الحقيقة والجمال والخير. وفي العصر الحالي يُعد مجال مصطلح «جمال» أكثر ضيقاً ليحوي كل ما يمنحنا المتعة من فن وطبيعة. لذا يتحدث الفلاسفة عن مصطلح جديد هو «القيمة الجمالية» (Aesthetic Value) وما تخلفه على مستوى الفرد من «تجربة جمالية» (Aesthetic Experience). والأخيرة هي الأعراض الجسدية المرافقة للإحساس بالجمال، مثل انتصاب شعر الجسم حين الاستماع لمقطع من الشعر أو قطعة موسيقية لباخ مثلاً. وبما أن النكتة هي أحد الفنون ذات القيمة الجمالية، فردّ الفعل الحركي لها هو الضحك، الذي يحرِّك خمس عشرة عضلة في الوجه. من الناحية الصحية، تفيد هذه التجربة الجمالية الجسم في إمداد الدم بالمزيد من الأكسجين وتقليل هرمونات التوتر وتقوية مناعة الجسم. لكن هذه التجربة الجمالية هي خطرة بمقاييس كثافتها، حيث إنها قد تودي إلى إصابات جسيمة بالعضلات أو حتى الوفاة في حال زيادة كثافتها عن المعدل الطبيعي!

بهذا الطرح، فإن الضحك عبارة عن تجربة جمالية تنساق من الداخل إلى الخارج، أي من متعة ذهنية صرفة يعبر عنها برد فعل حركي يعرف بالضحك وذلك خلافاً لتجربة التمتع بمشاهدة لوحة فنية جميلة مثلاً، حيث تنساب المتعة الجمالية من العين إلى الدماغ، أي من الخارج نحو الداخل.

ومع العلم أن الضحك ذو ارتباط وثيق بالنكتة أو الطرفة، إلا أن بعض الأشخاص ليست لديهم قابلية لهذه التجربة الجمالية. فقد ورد أن إسحق نيوتن لم يضحك في حياته غير مرة واحدة عندما سئل عمَّا وجد في مبادئ إقليدس. كذلك جوزيف ستالين فمن النادر أن رآه أحدهم يضحك. وهكذا رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت تاتشر والتي يبدو أنها لم تنل لقب «المرأة الحديدية» جزافاً. وعلى الرغم من أن الضحك -مثلما اللغة- من الملامح المميزة للكائنات البشرية، إلا أن الفلاسفة لم يتيحوا له المساحة الكافية في دراساتهم مقارنة بما أتيح للغة من دراسات منهجية محكمة.

قد نستغرب لذلك، ولكن ربما يعود هذا إلى جذور الفلسفة نفسها، حيث اعتبر بلاتو الضحك «عيب وعمل أحمق» حريٌّ بالإنسان تفاديه ما أمكن. أما أرسطو فقد عدَّه ابن القبح وليس من ورائه طائل غير الإساءة إلى الآخرين. أما سبينيوزا -بحسب أصدقائه- فكان يضحك فقط حينما يرى العناكب وهي تتقاتل حتى الموت! وهو

الـذي سجَّل في كتاب «الأخلاق» أن الضحك متعة صرفة وأنهـا في حـد ذاتها خيـر. أما بقيـة الفلاسفـة الكبار أمثـال إمانويل كانـط وشوبنهور وهوبـس فلهم نظريات غامضة في فلسفـة الضحك، وردت مصادفة بين طيات أعمـال أخرى كبيرة، ولم تكـن بأي حال من الأحوال من الفلسفات المكتملة.

وفـي تحليـل السبـب مـن وراء إحجـام الفلاسفـة عن دراسة النكتة والضحـك بصورة متأنية، نجـد أن هناك عدة أسبـاب مجتمعة من ضمنها المبدأ القائل إنه كلما كان الشيء ممتعاً كانت فلسفته أقـل إمتاعاً والعكس صحيـح. مثـلاً الفن جميل ولكـن فلسفة الفـن مدعـاة للملـل، أما القانـون فممل ولكـن فلسفـة القانون في غايـة الإمتاع. وأيضاً هنـاك الإحساس القائل إن كشف سـر شيء جميل مثل الضحك قـد لا يعود بالفائدة عليه بقدر ما قد تؤذيه.

العلم يعثر صدفة على موقع محدد في الدماغ مسؤول عن تجاوبنا مع النكتة

النكتة واللاوعي

لـم يسبق لأحـد في التاريـخ أن وضـع تحليلاً ثابتـاً للنكتة والضحك كما فعل المحلل النفسي الأشهر سيجموند فرويد في كتابه «الأحلام وعلاقتها باللاوعي».

لـم ينبـع اهتمام فرويـد بالنكتة من علاقاتهـا الفلسفية ولكـن لارتباطها الوثيق مـن عدة جوانـب بالأحلام التي هي مجـال بحثه. وهو يعتبـر أن النكتـة والحلم يحملان معانـي مكثَّفة مستبدلة، وأن الأشيـاء يشار إليها بطريقة غيـر مباشرة أو بأضدادها، وأن النكات تظهر فجأة ويتم نسيانها مثل الأحلام. من هذه التشابهات افترض فرويد أصـلاً واحـداً لهما فـي اللاوعـي. ولكن الفـرق الوحيد بينهمـا هو أن النكتة وُجدت كـي يتم استيعابها أي فهمها وهو السبب الأساسي لوجودها أصلاً. على العكس تماماً، فـإن الحلم قـد يتعذَّر فهمـه حتى على صاحبـه، أو حتى على محلل نفسي. بمعنى آخر فإن الحلم عبارة عن «نكتة بايخة» لم يتم فهمها.

مـن المؤكـد أن الفلاسفة كانوا أقـل شجاعة من فرويد في البحث عن نظرية النكتة. حتى أن بعضهم يظن أنه من غير المثمر البحث عن هذه النظرية. وفي ذلك يقول تيد كوهين الفيلسـوف المعروف بجامعة شيكاغـو «إن أية نظرية عامة عن النكتة معروفة بالنسبة لي هي خطأ». وبغض النظر عن كلام تيد سوف نستعرض هنا النظريات الثلاث المتنافسة في تفسير فن النكتة.

- **نظرية التفوق**

اقترحـت «نظرية التفوق» بعدة أشكال بواسطة بلاتو وهوبس والفرنسي بيرغسون. وتفترض هذه النظرية أن لـب الدعابة هـو في «السعـادة المفاجئة»، حسب تعبيـر هوبـس، التـي نشعر بهـا عندما -قـل مثلاً- نـرى شخصـاً رصيناً وقـد رُشق بقالب مـن الحلوى علـى وجهـه. وتفتـرض النظريـة أن كل دعابـة هي سخريـة واستهزاء في الأساس ولا تحمل غرضاً غير الإضحاك.

- **نظرية التنافر**

ويتبناهـا باسـكال وكانـط وشبنهور، وتقـول إن الدعابة تنشـأ حينمـا يمتزج اللائـق المنطقي علـى نحو مفاجئ مـع الوضيع والعبثـي. مثل النكتة القائلـة: «سئل أحدهم هـل تؤمن بأنديـة الأطفـال؟ أجاب: فقـط حينما يفشل العطف!».

- **نظرية الترويح**

حاولـت «نظرية الترويح» شرح العلاقـة ما بين الضحك والدعابـة. بحسـب فرويـد، فـإن النكتة الماكـرة تحرر الضاحـك من نير القلق والأفـكار السلبية، والنتيجة هي استبعاد طاقة التوتر مـن خلال عضلات الوجه والجهاز التنفسـي حيث تعمـل الضحكة على غسـل الدواخل مما يجري فيها من عواطف سالبة.

تعـود جـذور الفكـرة القائلـة إن النكتـة تسيء إلـى جوهر الأخـلاق، إلى بدايـات العصـر الفيكتوري حيـث ارتبطت بالتطـاول علـى القيـم الدينيـة والأخلاقيـة. وكمـا لاحظ الفولكلوريـون فإن أغلبية النكات التي تـم تداولها في ذلك العصر كانت عن أمور يحظر المجتمع عُرفاً الحديث عنها، مما أضاف مزيداً من الإساءة لهذا الفن. وقد لا ينطبق هذا الـرأي على الإنجليز فقـط ولكن الشاعـر الفرنسي بودلير يـرى أن النكتـة تنبع مـن شعور بالتفوق مـن ناحية واحدة. ويظـل دومـاً من الصعـب بمكان تحديـد روح النكتـة لأنها لا تبقـى علـى حال واحدة حيـث إنها شـكل تاريخي متحول يتطور مع الوقت.

فلسفة الضحك والمتعة العقلية

أول مـا يتبـادر إلـى الذهن هو السـؤال عن ماهيـة المتعة العقلية التي تنتزع ذلك الفعل التشنجي العنيف الذي يسمى الضحـك. يقول مارفن مينيسكي وهو أحد الآباء الشرعيين للـذكاء الصناعـي، إن النكتـة تطـورت لتبيـان الخطأ في منطقنـا. أي عندما يضل منطقنـا، فإن الضحك يعيد لفت تركيزنا إلى الخطأ.

بيد أن الباحث الإنجليزي في المخ جون ماكرون يقول إن الضحك لا يحدث فقط حين نكتشف خطأ أو مفارقة قد تم علاجها بطريقة ذكية، لكن يبدو أن المتعة العقلية ناتجة عن الوصول إلى روابط أو مفارقات حيث لا نتوقع ذلك. وتتم هذه العملية في الجزء المتطور حديثاً من أدمغتنا وهو القشرة العلوية بحسب الدراسات التي أجريت حديثاً في هذا المجال. وقد تم التوصل إلى تحديد المنطقة المسؤولة عن الضحك في الدماغ عن طريق الصدفة. وتبيَّن أنه من خلال استثارتها بتيار كهربائي خفيف، فإن الشخص يجد كل ما حوله مضحكاً!

النكتة العربية

مرَّت النكتة العربية بتطور منذ أن كانت مظهراً من مظاهر البذخ في القصور والديوانيات الأنيقة، إلى أن صارت متنفساً يروِّح الناس به عن أنفسهم أوقات الضيق. والنكتة عند العرب دليل على النضج والسماحة والميل إلى السلام والقدرة على التفاهم العقلاني. يقول مثل عربي قديم «إن الرجال لفي سجن إلى أن يغمرهم الظرف».

من أشهر كتب الطرائف في التاريخ العربي القديم كتاب «أخبار الحمقى والمغفلين» لأبو الفرج بن الجوزي و«البخلاء» للجاحظ. إلا أن أشهر الشخصيات الفكاهية على مر التاريخ العربي كانت شخصية جحا التي نسجت حولها الطرائف كل شعوب آسيا تقريباً. ويقال إن اسمه الحقيقي هو أبو الغصن دجين الفزاري، كما يقال دجين أبي الغصن ابن ثابت الفزاري البصري. عاصر هذا الرجل الدولة الأموية ومات في خلافة المهدي عن 90 عاماً. ويمثل جحا شخصية الرجل العاقل الذي يصبح مجنوناً أو يتظاهر بالجنون، ليستطيع التعامل مع عالم من حوله مليء بالمفارقات. كما زخرت الذاكرة العربية بطرائف أشعب والبهلول وأبو العتاهية.

وفي شأن جحا نذكر هذه النكتة وإن كنا لا ندري صحة نسبها إليه «اصطحب أحمقان وبينما هما يمشيان في الطريق يوماً قال أحدهما للآخر تعال نتمنى. فقال الأول أتمنى أن يكون لي قطيع من الغنم عدده 1000 وقال الآخر أتمنى أن يكون لي قطيع من الذئاب عدده 1000 ليأكل أغنامك. فغضب الأول وشتمه ثم تضاربا، مر جحا وسألهما فحكيا له قصتهما وكان جحا يحمل قدرين مملوءين بالعسل فأنزل القدرين وكبهما على الأرض وقال لهما: أراق الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين».

أقدم نكتة مكتوبة في التاريخ

في عصرنا الحاضر، تتميز جامعة ولفرهامبتون بامتلاك قسم متخصص يقوم على عاتقه دراسة تاريخ النكتة وعلاقاتها بالطبيعة البشرية. ولا شك في أنه من خلال دراسة هذا الفن يمكن دراسة الأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية ككل لأي مجتمع. ونحن نعتقد أن النكتة هي المختصر المفيد عن الوضع الذي تعيشه أية جماعة ذات ثقافة مشتركة. بكلمات أخرى، فإن النكتة هي الدليل إلى واقع الناس وآمالهم.

وعن الدراسة التي أجرتها الجامعة المذكورة عن أقدم نكتة مدوَّنة في التاريخ يقول الدكتور بول ماكدونالد المحاضر في الجامعة إن الدراسة أظهرت اختلاف النكات عبر الحقب. حيث يتخذ بعضها طريقة السؤال والجواب والأخرى شكل مَثَلٍ طريف أو لغز. لكن ما يربط هذه الأشكال كافة هو استعدادها للتعامل مع المحظورات وعلى درجة من التمرد على الأعراف والقوانين. على أية حال، كشفت الدراسة عن أقدم عشر نكات مدوَّنة في التاريخ أوردنا واحدة وسوف نورد بعضاً منها فيما يلي. الأقدم، هي سومرية وجدت مكتوبة في أحد الحمامات ويعود تاريخها لحوالي سنة 1900 قبل الميلاد. وهي عبارة عن مثل سومري قديم. ولطبيعة هذا المثل-النكتة فلا نستطيع إيراده هنا من

بـاب الحشمـة. أما أقدم ثانـي نكتة مدوَّنة فـي التاريخ فهي فرعونية يعـود أصلها إلى 1600 قبل الميلاد وتقـول نسختها المعدَّلة:
«كيف ترفع معنويات الفرعون سنوفرو حين يذهب لصيد السمك؟ الجواب: ترمي أحد العمال من دون أن يدري ثم تصيح بأعلى صوتك هناك سمكة كبيرة يا سيدي!!».

قـد تكـون هـذه أقـدم نكتـة سياسـية مكتوبـة فـي التاريـخ، وهـي من النـوع الذي بـرع فيـه الإنجليز فـي عصرنا الحالـي بفضـل مـا اكتسبوه من معارف عبر ماضيهم الاستعماري الحديث.
أمـا بقية النكات العشر الأقـدم في التاريخ والتي توصلـت إليها الدراسـة، فقد اخترنا لكم منها ما يلي:

تختلف أمزجة الأفراد والشعوب في تجاوبها مع النكتة، وما يضحك واحداً، قد يبدو تافهاً لآخر

- «مـا هو الحيـوان الـذي يمشـي علـى أربع فـي الصباح وعلـى اثنتين في الظهر وثلاثة فـي المساء؟ الجواب هو: الإنسان. يمشي على أربع وهو طفل وعلى رجلين في شبابه ويستخدم عصا في الشيخوخة». (429 قبل الميلاد).
- «حاول فلاح تعليم حماره أن يعيش من دون طعام، لذا لم يقـدِّم له أي طعام لفترة من الوقت. وعندما مات الحمار من الجوع. قال الرجـل: واحسرتاه.. لقد خسرت خسارة كبيـرة. فقد مـات الحمار في اللحظة التـي تعلَّم فيها أن يعيش بلا طعام!» (تعـود للقرنين الرابـع والخامس بعد الميلاد).

أطرف نكتة في العالم

في بحث استغرق عاماً كاملاً قامت به «الرابطة البريطانية لتطويـر العلوم» وأجرت خلاله استطلاعاً عبر الإنترنت عن أطـرف نكتة في العالم شـارك فيه أكثر من مليوني شخص عبـر العالم بأكثر مـن أربعين ألف نكتة، تـم اختيار النكتة التالية: «كان صيادان فـي الغابة ووقع أحدهما فاقد الوعي وتوقف تنفسه وجحظت عينـاه. اتصل زميله بالنجدة وقال لاهثـاً للموظف الـذي رد عليه: صديقي مـات ماذا يمكنني أن أفعـل؟ ورد عليه الموظف في هـدوء قائلاً: فلتهدأ.. أولاً تأكـد أنه مات بالفعل. وساد الصمـت للحظة قبل أن يسمع دوي طلقة ويعود الصياد إلى هاتفه ليقول: الآن تأكد موته.. ماذا أفعل؟!».

قـد لا تكون هذه النكتة طريفـة بحسب ما تعود عليه القارئ العربي، ولكن خلاصة البحث تفيد بوجود فروق واضحة في النكات التي يجدها النـاس مضحكة بحسب الثقافات التي ينتمون إليهـا. فالبريطانيـون والإيرلنديـون والأستراليون والنيوزيلنديـون يفضلـون النـكات التـي تشمـل اللعب على الألفـاظ، بينما يفضِّل الأمريكيـون والكنديون النكات التي يبـدو أبطالهـا أغبياء، أما فـي بقية أجـزاء أوروبا فيفضل الكثيرون النكات ذات الطابع الذهني.

شخصيات فولكلورية ومسرحية كثيرة وُلدت من النكتة

هل هي فن بريء؟

لا يمكـن تبرئة فـن النكتة تمامـاً ودائماً، كونـه يعتمد على السخريـة والشماتـة والتشفـي أو تحقيـر مشاعـر وأفكار الآخريـن أو حتى الذات. كما تتضمَّـن بعض النكات تطاولاً علـى القيم أو جانباً عنصرياً. كما أن كل الشعوب تستهدف في نكاتها فئات معيَّنة على أساس عرقي أو ديني أو مناطقي يتم نسج النكات عليها بشكل ثابت. مثلاً، أغلبية النكات في بريطانيا تبدأ بالقول «هناك رجل أسكتلندي أو إيرلندي» أو حتى «امـرأة من ويلز». وفي مصر تبـدأ بالقول « في واحد صعيـدي».. وقد لا يدرك سارد النكتة أنه بهذا الفعل يحاول تبرئة نفسـه ومستمعيه مقدماً، واختصار نواقص المجتمع في فئة بعينها.

خلاصـة القول إنـه رغم مظهـر النكتـة البسيـط وطبيعتها المركزة ونتيجتها الباسمة، إلا أنها وسيلة تعبير قوية، تتضمَّن كافـة الآراء والمواقـف البشريـة فـي قالب شديـد التناقض وصـادم للمنطق المتعارف عليه. وهي بالتأكيد ابتكار إنساني بالـغ الـذكاء، كونها فـي طبيعة ذاتهـا تركيبة لغويـة وعقلية وثقافيـة بالغة التعقيد. ومن المهـم أن يمتلك كافة الأطراف فيهـا «المُلقي والمتلقي» قـدراً متساوياً مـن الثقافة والذكاء والمعرفـة المشتركة تمكن المُتلقي مـن فهم مغزى حديثك، مثلاً، عن حذاء الطنبوري. وبمناسبة الحديث عن الطنبوري، من منكم يعرف أين استقر حذاء الطنبوري؟!

ديوان الأمس



يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.

ديوان اليوم

ضيف العدد

القاص صالح علي البيضاني

قاص وصحافي يمني. من مؤسسي نادي القصة اليمني (إلمقه)، ورئيس تحرير صحيفة «سرد»، وكاتب في عدد من الصحف والمجلات اليمنية والعربية. صدر له عدد من المجاميع القصصية والكتب، وحائز على جائزة رئيس الجمهورية اليمنية في الآداب والفنون (مجال القصة) للعام 2003م



قصائد تروي (حكاية شاعر ومكان)



استطاع شعراء العرب دون سواهم أن يجعلوا من الشعر العربي واحات وفروع مستقلة في صحراء كانوا هم سفينتها وكانت نخلاتها أجمل ما تركوه وراءهم لطالب فيء .. برعوا في أن جعلوا من الشعر أنهاراً وينابيع تشق رمال الصحراء لتحقيق أغراضهم التي باتت اليوم أغراضاً للشعر.. كالوا المدح حيناً والقدح أحايين ..رثوا من أحبوا ومن كرهوا وتغزلوا بذوات الحسن ووافرات المال ووصفوا المها والذئاب.. وماتوا بعد ذلك، لكن قصائدهم لا تزال سامقة كنخل قائم في واحة الذاكرة يستفيء بظله المسافرون في هذه الدنيا منذ مئات السنين.

ذهب الشعراء وذهب من استمع إلى قصائدهم وحفظها. وها نحن اليوم نقف أمام بعضها وقفة إعجاب.. بعض مما علق في الذاكرة والتصق بالقلب .. ليس في الغالب إعجاباً بمضامينها التي قد لا نتفق معها ولكن تقديراً للوحات نصية رائعة، استطاعت أن تطوع اللغة وتحقق أغراضها، وتبقى كل هذه السنين كألواح من المرمر الموشاة بخيوط الذهب والغائصة في رمال الصحراء ليس تماماً.

المعري .. نقمة لا تنتهي

كان الشاعر العباسي أبو العلاء المعري (أحمد ابن عبدالله بن سليمان التنوخي) يعيش حالة من التساؤلات الوجودية التي لا تنتهي. وقد استطاع أن يخلق حالة خاصة في الشعر العربي لم تأخذ هذا الوضوح الفلسفي والديني إلا على يديه، حيث عاش ساخطاً على الدنيا ناقماً عليها. وقد دأب على مخاطبتها في الكثير من قصائده بندية بينة كأنه صنو لها.. طارحاً العديد من التساؤلات في قصائده التي حملت في طياتها كوميديا كالحة السواد، إذ يدعو في الكثير من أشعاره لهجر الدنيا والمرور عليها من دون ترك أثر إن أمكن ذلك.. فهو صاحب المقولة التي تضمنتها إحدى قصائده «هذا جناه عليَّ أبي وما جنيت على أحد» والتي تكررت في قوالب وصور مختلفة في شعره كما هو الحال في قصيدة (اللزوميات):

إذا لم تكُنْ دنيـاكَ دارَ إقامةٍ
فما لكَ تبنيها بنَـاءَ مُقيمِ؟

ويقول في قصيدة أخرى في سياق نقمته على الدنيا التي غدت طابعاً للكثير من قصائده:

دُنيـاكَ غـادرةٌ، وإن صادتْ فتىً
بالخَلق، فهي ذميمةُ الأخلاقِ
سَتمطِـرُ الأغمارُ مـن لذَّاتها،
سُحُباً تُليحُ بمومِضِ ألاَّقِ

وفي ترحيبه بالموت كمخلص من محبس الدنيا يقول المعري:

والروحُ طائرُ محبَسٍ في سجنه،
حتى يَمُنَّ رَداهُ بالإطلاقِ

ويقول مرحباً بالموت الذي ظن أنه الخلاص الوحيد من محبسيه اللذين عرف بهما (العمى والحياة):

يا مرحباً بالموت من مُتنظّرٍ،
إن كان ثَمَّ تعارف وتلاقِ
ساعاتُنا، تحتَ النفوس، نجائبٌ،
وخَدَتْ بهنَّ بعيدةَ الإطلاقِ
ألقِ الحياةَ إلى الممات، مُجرَّداً
إنَّ الحياةَ كثيرةُ الأعلاقِ

البحتري .. ذئب جائع

احتلت قصيدة الشاعر العباسي البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي)، التي يصف فيها صراعه مع الذئب، مكانة مهمة في شعره، الذي وصف بسلاسل الذهب. إذ استطاع البحتري في قصيدته هذه وربما بدون قصد ولكن بدافع من الخوف الشديد

بحسب رأيي، أن يتقمص روح الذئب الجائع الذي وصف صراعه معه من أجل البقاء في قصيدة تعد من أجمل قصائده، لما تضمنته من صور جديدة ومبتكرة تتوالى كشريط سينمائي من خلال الأبيات التي يصف فيها وقت الصراع مع الذئب، حيث يلتمع الصبح من بين عتمة الليل كبقية من حد سيف يتوج بريقه:

وليلٍ كأنَّ الصُبح فـي أخرياته
حُشاشَةُ نَصلٍ ضمَّ إفرِندَهُ غِمْدُ

ثم يصف البحتري الذئب الذي زاد من وحشة الليل الذي غشيه لينكشف عن ذئب جائع كان شديد التوثب للانقضاض عليه بكل جوارحه التي يصفها الشاعر بدقة دون أن ينسى اتباعها بوصفه لمناقبه هو في مقابل صفات خصمه في المعركة:

تسربلتُهُ والذئبُ وسنانُ هاجعٌ
بعينِ ابنِ ليلٍ ما له بالكرى عهدُ
أُثيرُ القطا الكدريَّ عن جثماته
وتألفني فيه الثعالبُ والرُبْدُ

ويبرع البحتري في رسم صورة واضحة لشكل خصمه تدخل القارئ في تفاصيل المعركة بينه وبين الذئب الذي كساه اللون الرمادي وبرز صدره الناحل وبرزت أضلاعه من فرط الجوع وتقوس ظهره وتدلى ذيله كحبل بئر أخذ يجره خلفه:

وأطلسَ ملءِ العينِ يحملُ زُورَهُ
وأضلاعُهُ من جانبيه شَوىً نهدُ
لـه ذَنَبٌ مثل الرشاء يجرُّهُ
ومتنٍ كمتنِ القوسِ أعوجَ منأدُ

وينتقل البحتري إلى وصف حالة الذئب الذي استحكم فيه الجوع وبلغ مبلغه حتى سمع قرقعة أسنانه التي لا تختلف عن اصطكاك الأسنان من شدة البرد:

طواهُ الطوى حتى استمرَّ مريرهُ
فما فيه إلا العظمُ واللحمُ والجلدُ
يقضقضُ عُصْلاً في أسرَّتها الردى
كقضقضة المقرورِ أرعَدَهُ البردُ

ويصف البحتري حالته التي لا تختلف كثيراً عن حالة الذئب في مقاربة ربما تعلل سبب انتصاره على الذئب حيث يقول:

سما لي وبي من شدة الجوع ما به
ببيداءَ لم تُعرَفْ بها عيشةٌ رغدُ
كلانا بها ذئبٌ يحدّثُ نفسه
بصاحبه، والجِدُّ يُتعِسُهُ الجَدُ

وتتجسد عبقرية القصيدة في دقة الوصف للصراع مع الذئب من أجل البقاء وبأسلوب رائع تجتمع فيه بلاغة الشاعر وقدرته على إعادة تشكيل المشهد بلغة شعرية تخلَّصت إلى أبعد الحدود من عوائق وأساليب الشعر العربي القديم الذي كانت ضروراته وقواعده تأتي أحياناً على حساب أغراض القصيدة ذاتها:

عوى ثمَّ أقعى فارتجزتُ فهجتُهُ
فأقبلَ مثل البرقِ يتبعُهُ الرعْدُ
فأوجزته خرقاءَ تحسبُ ريشها
على كوكبٍ ينقضُّ والليلُ مسودُّ
فما ازدادَ إلا جُرأةً وصرامَةً
وأيقنتُ أنَّ الأمرَ منه هو الجدُّ
فأتبعتها أُخرى فأضللتُ نصلها
بحيثُ يكونُ اللبُّ والرعبُ والحِقدُ
فخرَّ وقد أوردتَهُ منهل الردى
على ظمأٍ لو أنَّهُ عَذُبَ الوِردُ

ويلاحظ في الأبيات السابقة حرص الشاعر على تضمين أبسط التفاصيل. وكأنه يرسم سيناريو لقصة الصراع من أجل البقاء في تتابع مدهش للصور على الجانبين حيث يصف لحظة انقضاض الذئب بكل جزئياتها: عوى ثم أقعى (ارتكز على مؤخرته). ثم يصف، وبتماثل لفظي بين ردة فعله التي تختلف كثيراً عن الذئب: «فارتجزتُ فهجتُهُ».. وهنا تتوالى أروع الصور في التشبيه الذي ربما كان مرده الحالة المشدودة للبحتري، حيث يصف هجوم الذئب عليه في السرعة مثل تتابع البرق والرعد ويصف سهمه الذي أصاب به الذئب فزاده عنفاً ليتبعه بسهم آخر في قلبه كان حصيلة لرعبه وحقده معاً.

ثم يصف البحتري لحظة أكله للذئب الذي أوقد النار من تحته وأكل منه «خسيساً» كناية عن احتقاره وعدم استمتاعه بما أكله ليقوم مخلفاً وراءه رأس الذئب معفراً في التراب!:

وقُمتُ فجمعَّتُ الحصى وَاشتَوَيتُهُ
عليه وللرمضاء من تحته وقْدُ
ونِلتُ خسيساً منه ثمَّ تركته
وأقلعتُ عنه وهو منعفرٌ فرْدُ..

الحارث .. الحليم إذا غضب

كان الحارث بن عباد من أحلم العرب وأحكمهم وقد تكثفت في قصيدته الشهيرة التي رثا فيها ولده بجيراً والتي يكرر فيها (قربا مربط النعامة) صورة الحليم حين يغضب ويطلب الثأر لولده..

تمتزج في هذه القصيدة صور الرثاء بطلب الثأر والوعيد بشكل متفرد في الشعر العربي كما هو الحال في مطلعها الذي يواسي فيه أم ولده بجيراً الذي يبكيه بحرقة لم نعهدها على لسان شعراء العصر الجاهلي:

قل لأم الأغر تبكي بجيراً
حيل بين الرجال والأموال
ولعمري لأ بكين بجيراً
ما أتى الماء من رؤوس الجبالِ
لهف نفسي على بجير إذا ما
جالت الخيل يوم حرب عضالِ
وتساقى الكماة سماً نقيعاً
وبدا البيض من قباب الحجالِ

ويصل الحارث إلى الجزء الشهير من قصيدته، الذي يبدأ فيه معظم أبياته بالقول (قربا مربط النعامة مني). والنعامة هي فرس الحارث، وفي مطالبته بتسليمه زمام الفرس نوع من التوثب الكبير للقتال الذي لا يعوقه إلا تعاظم حجم الحزن الذي خلفه مقتل ولده، وكرهه المتأصل للدخول في هذه الحرب (البسوس) التي كان أحد من حاولوا إطفاء نيرانها. وذلك ربما ما يفسر طلبه المتكرر بتمكينه من فرسه (النعامة)، التي لم يعد يفصله عن خوض غمار المعركة إلا امتطاء صهوتها. وفي هذا الجزء من القصيدة، يردف البيت الأول (قربا مربط النعامة مني) الذي يكرره مرات ومرات بسرد ما أحدثه فيه مقتل ولده معدداً مناقبه متوعداً قاتله بالثأر:

قربا مربط النعامة مني
ليس قولي يراد لكن فعالي
قربا مربط النعامة مني
شاب رأسي وأنكرتني الغوالي
قربا مربط النعامة مني
طال ليلي على الليالي الطوال
قربا مربط النعامة مني
كلما هب ريح ذيل الشمال
قربا مربط النعامة مني
لبجير مفكك الأغلال
قربا مربط النعامة مني
لا نبيع الرجال بيع النعال

أبو البقاء الرندي .. رثاء أمة

بنفس قوة وحرقة الحارث ابن عباد حين رثى ولده بجيراً كتب الشاعر الأندلسي صالح بن يزيد ابن صالح ابن شريف الرندي، قصيدته في رثاء أمة، وزوال مجد العرب في الأندلس حين تهاوت آخر قلاعهم بسقوط (غرناطة).. وتتميز القصيدة بصدق المشاعر التي تتسرب لمن يقرؤها .. حيث يبدأ الرندي قصيدته بما بات حكمة شهيرة حيث يقول:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ
فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دُولٌ
مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحد
ولا يدوم على حالٍ لها شان
يُمزق الدهر حتمًا كل سابغة
إذا نبت مشْرفيَاتٌ وخُرصانُ

وتتداعى أبيات ابن الرندي بعد ذلك متسائلة عن حال كل مدينة من مدن الفردوس المفقود مستنهضاً همم «راكبين عتاق الخيل» و حاملين سيوف الهند» وكذلك الـ «راتعين وراء البحر في دعة»:

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ
إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ
وماشياً مرحاً يلهيه موطنهُ
أبعد حمص تَغرُ المرءَ أوطانُ؟
تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها
وما لها مع طولَ الدهرِ نسيانُ
يا راكبين عتاق الخيل ضامرةً
كأنها في مجال السبق عقبانُ
وحاملين سيُوفَ الهند مرهفةً
كأنها في ظلام النقع نيرانُ
وراتعين وراء البحر في دعة
لهم بأوطانهم عزٌ وسلطانُ
أعندكم نبأ من أهل أندلس
فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ؟

البردوني..
شاعر ينسى أن يموت

على الرغم من فقدانه البصر في وقت مبكر من حياته إلا أن الشاعر الكبير عبد الله البردوني (1929 - 1999م) استطاع أن يكون (الرائي) في زمن العميان ..فقد تحوَّل بفعل بصيرته النافذة إلى متنبئ لهذا العصر.. رجل حمل في هيئته روح شعراء العرب المخضرمين لكنه تجاوز الكثير من شعراء هذا الجيل والأجيال القادمة -ربما- بقدرته الفائقة على الجمع بين شكل القصيدة العربية الكلاسيكية ومضمون القصيدة الأحدث..لقد كان البردوني، كشخص، قصة تروى وقصيدة شجية لعبقرية نادرة لم تأخذ حقها كما ينبغي.

ترك البردوني 12 ديواناً شعرياً مطبوعاً والكثير من الكتب النقدية والسياسية.. إنه البردوني الذي ما زالت أشعاره ترقص حية على شفاه محبيه ونياط قلوبهم والذي رغم موته (ينسى أن يموت):

أنسى أن أموت*

عبد الله البردوني

تمتصني أمواج هذا الليل في شرهٍ صَموت
وتعيد ما بدأت.. وتنوي أن تفوت ولا تفوت
فتثير أوجاعي وترغمني على وجع السكوت
وتقول لي: مت أيها الذاوي... فأنسى أن أموت

***

لكن في صدري دجى الموتى وأحزان البيوت
ونشيج أيتامٍ ... بلا مأوى... بلا ماء وقوت
وكآبة الغيم الشتائي وارتجاف العنكبوت
وأسى بلا اسم.. واختناقات بلا اسم أو نعوت

***

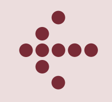
من ذا هنا؟ غير ازدحام الطين يهمس أو يصوت
غير الفراغ المنحني.. يذوي .. يصر على الثبوت
وتعبّهُ الآحاد والجمعُ العوانسُ والسبوت
ودم الخُطى والأعين الملأى بأشلاء الكبوت

***

من ذا هنا؟ غير الأسامي الصفر تصرخ في خفوت
غير انهيار الآدمية... وارتفاع (البنكنوت)
وحدي ألوك صدى الرياح وأرتدي عري الخبوت

* من ديوان لعيني أم بلقيس، القاهرة 1971م

ديوان الأمس ديوان اليوم



تنضم رواية «العمامة والقبعة»، آخر أعمال الروائي العربي المعروف صُنع الله إبراهيم، إلى مجموعة الروايات والأعمال الأدبية التي تتناول الحوار ما بين الشرق والغرب وصدامهما، من خلال أحداث، نصفها حقيقي والآخر متخيل، تجري في مصر إبان الحملة الفرنسية عليها في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التالي.
أشرف إحسان فقيه يقدِّم قراءاته لهذه الرواية، ويختار لنا فصلاً معبِّراً عن مناخها العام.

جديد الروائي صُنع الله إبراهيم

«العمامة والقبعة»



قد لا تكون «العمامة والقبعة» أعظم روايات صنع الله إبراهيم، الذي يُعد أحد أشهر الروائيين العرب وأكثرهم إثارة للجدل؛ لكنها تظل عملاً جديراً بالقراءة والتأمل لمؤلف طالما أجاد اتخاذ وجهات مغايرة وجديدة.

فهذا القاص الذي ترك آثاره على المشهدين الثقافي والسياسي عبر أعمال من قبيل «شَرَف» و«اللَّجنة»، والذي برع في استنبات القيمة التاريخية من السيرة الذاتية في «التلصُّص» و«أمريكانلي/أمريِّ كانَ لِي».. وكان قبل هذا وذاك سبّاقاً في الترويج للقيمة العلمية ولأدب المغامرات في كتاباته القديمة الموجَّهة للناشئة كما القرّاء المحترفين، يعود في روايته «العمامة والقبعة» الصادرة طبعتها الأولى في 2008م عن «دار المستقبل العربي» ليمزج كل صنوف القصّ الواردة أعلاه وأكثر.

الشرق والغرب يتصادمان مجدداً

تدور أحداث الرواية في مصر إبان الحملة الفرنسية (1798–1802م). وكما يوحي العنوان، يوظف المؤلف هذه المرحلة التاريخية ليخوض في تفاصيل العلاقة بين الشرق والغرب كمسألة ملحّة وأثيرة لدى المثقف العربي الذي تتجاذبه نوازع الصراع الحضاري. ولعلنا نذكر أن نفس التيمة كانت هي محور رواية بهاء طاهر «واحة الغروب» التي نال عليها جائزة «بوكر» العربية في نسختها الأولى سنة 2008م.

لأول وهلة، تبدو «العمامة والقبعة» رواية بسيطة ومباشرة بشكل مدهش. فالمؤلف اختار أن ينقل لنا الأحداث مستخدماً ضمير المتكلم –الذي برع فيه دوماً– ومتحدثاً بلسان بطل رفض أن يعطيه اسماً. والسرد الروائي يتوالى على هيئة يوميات بقلم هذا البطل الذي يعايش تفاصيل الحياة تحت الاحتلال.

لكن التأمل في الكتاب، بُنية ومادة، يستحضر كشوفاً مثيرة بخصوص الأفكار التي بذرها إبراهيم في ثنايا عمله. فبدءاً من الغلاف، يضعنا المؤلف في جَوّ المرحلة والعمل. وبالرغم من أن الحملة الفرنسية قد وقعت في أواخر القرن الثامن عشر، إلا أن التصميم الفني للغلاف ليس مستقى بأكمله من الطراز الكلاسيكي الذي طغى على الفن الأوروبي في ذلك الزمن، ولا هو مستوحى تماماً من النمط الفني الشرقي أو المملوكي الذي ساد مصر في تلك الفترة، بل هو مزيج من هذا وذاك وضمن إطار حداثي واضح أيضاً. هذا «الكولاج» من الرسائل البصرية سيولِّد لدى المتلقي حالة ارتباك وقد يبدو له كاريكاتورياً.. وهو المطلوب بالضبط؛ لأنه يعبّر عن أزمة الصدام بين الحضارات في صيغتها الأسوأ، وما ينتجه الاحتلال من توالف قسري وممسوخ بين الأذواق.

تصميم الغلاف هذا والمُهدى للمؤلف من الفنان محيي الدين اللباد، حافل أيضاً بالمرجعية التاريخية والعلمية التي تتجلى عبر الرواية بأسرها، والتي هي سمة أكيدة في مجمل أعمال صنع الله إبراهيم. الرسوم على الغلاف مقتطفة من أعمال لرسامِين فرنسيين: سينيه وغيرين وتارديو. وحروف الطباعة التي كُتب بها العنوان واسم المؤلف كلها صُممت أيام الحملة الفرنسية وجرى استخدامها وقتها في طباعة بيانات نابليون وأوامره.

قراءة في التاريخ الذي لم يُكتب

تبدأ اليوميات/الرواية بتاريخ 22 يوليو 1798م، بخبر هزيمة جيش المماليك في إنبابة كما يورده البطل راوي الأحداث. ومثل كل الأعمال الإبداعية القائمة على وقائع تاريخية، تتمازج الأحداث الحقيقية مع تلك التي ابتكرها المؤلف لتشكل رؤيته ورسالته. الكيفية التي صاغ بها صنع الله إبراهيم شخصية بطله جاءت مدهشة. فهو من جهة مجرد فتى عادي ساقته الأقدار إلى أن يكون شاهد عيان على تفاصيل المرحلة. ومن جهة أخرى، فهو فتى محظوظ لأنه -كما قرر المؤلف- تلميذ ملازم لمعلمه الذي ليس إلا واحداً من أبرز رجالات تلك الفترة: عبد الرحمن الجبرتي، المؤرخ المصري الكبير الذي عاصر الحملة الفرنسية ووصفها بدقة في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» والمعروف اختصاراً بـ«تاريخ الجبرتي».

الرواية صيغت على شكل يوميات تتداخل فيها الحقائق التاريخية مع خيال الكاتب

إن ابتكار المؤلف لشخصية خيالية لتعيش في ظل أخرى حقيقية، ونسجه أحداثاً على هذا المنوال، أتاح له أن يسترسل في التعليق على الأحداث الحقيقية وأن يعيد سردها من زوايا مختلفة وبشكل أكثر حيادية دون التقيد بالصيغة الرسمية للتاريخ. وتوليفة شخص البطل سمحت لنا بالتنقل عبر عوالم ثلاثة متضاربة ومتداخلة: عالم النخبة الحاكمة التقليدية من مماليك وعثمانيين، عالم المستعمر الفرنسي الوافد، وعالم المواطن المصري المتورط بين هذين الكيانين.

وأكثر من ذلك، فإن البطل وعبر ثلاثة أعوام من التدوين الدقيق لأحداث حياته تحت الاستعمار، متأثراً في ذلك بأستاذه، ترك لنا عبر الرواية تاريخاً موازياً لذلك الذي وصلنا عبر الجبرتي. بل ان الرواية بأسرها تضعنا أمام سؤال كبير ومخيف حول تاريخنا المدون: عن مدى دقته ومصداقيته وعن كنه المنتصرين الذين كتبوا صيغته النهائية؟

فعبد الرحمن الجبرتي، مثلاً، كان عضواً في «الديوان الوطني» الذي أنشأه الفرنسيون كبرلمان صوري ونُظر إليه من قبل البعض على أنه عميل وخائن. وثمة من يرى بأن تدويناته التي نشرها تحت عنوان «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» كانت تهدف إلى استرضاء العثمانيين الذين عادوا إلى حكم مصر بعد جلاء الحملة. وهو الرأي الذي يؤيده صنع الله إبراهيم في روايته.

طرح جديد لأسئلة قديمة

غير أن «العمامة والقبعة» لا تقدِّم أية إجابات نهائية للأسئلة العالقة. إنها على العكس تمارس إسقاطاً مباشراً لوقائع الماضي على الحاضر، وتكشف لنا من خلال يوميات بطلها، كيف أن الدهشة والخوف اللذين أثارهما (الآخر) وحضارته المغايرة قبل أكثر من قرنين من الزمان ما زالتا موجودتين ومسيطرتين، مثلما يعاملنا هذا الآخر الأجنبي بذات الفوقية المشوبة بالانبهار والغرائبية حتى الآن.

في عين التاريخ، كانت حملة نابليون على مصر وغزوته لفلسطين محض فشل عسكري. لكن الحملة نفسها مهَّدت لموجة من الحراك الثقافي والإداري الذي كرَّس مكانة مصر الريادية في المنطقة خلال المرحلة التالية. هزيمة المماليك المدوية في «معركة الأهرام» كانت أول صفعة نبَّهت الشرق إلى عمق الهوة العلمية والتكنولوجية بينه وبين الغرب.

هكذا يجادل كثير من المؤرخين بخصوص الحسنات المفترضة للحملة الفرنسية. الفرنسيون كانوا أول من جلب المطبعة الحديثة وأول من فهم اللغة الهيروغليفية. الجيش الفرنسي تبعه فريق كامل من علماء الطبيعة والآثار والمترجمين الذين رسموا الخرائط ودرسوا النبات والحيوان ودونوا طبائع الناس على نحو غير مسبوق بتاتاً في تاريخ المنطقة. هذه الجهود وإن كانت مبذولة في الأساس لتثبيت قدم الاحتلال، إلا أنها واجهت السكان الأصليين بصدمة حضارية كبرى. ووضعتهم أمام معضلة إنسانية كبرى. فهم من جهة قد استبدلوا حكم المماليك وقسوتهم باحتلال الفرنسيين الذين لم يكونوا دوماً أكثر رأفة.. وهم مع رفضهم للمستعمر الجديد، كانوا مبهورين بمنظومته الحضارية وبمفهوم «التقنية الحديثة» الذي يعرفونه لأول مرة وعاينوا تأثيره الباهر على أرض المعركة.

المستعمر من جهته يعميه انتصاره الكاسح، فيتمادى في الاستخفاف بخصمه على نحو يستجلب عليه سخريته وازدراءه. قائد الحملة نابليون بونابرت يدخل القاهرة لابساً الجبة والقفطان ويخاطب المصريين متزلفاً، وزاعماً أن مهمته تكمن في تخليصهم من بطش المماليك، مبدياً استعداده لاعتناق الإسلام. وفي الوقت الذي ينشر فيه

جنـوده الرعب عبر دروب القاهرة، يـدور حوار مطول بينه وبيـن شيوخ الأزهر لإيجاد مخرج من مأزق (الختان) الذي يواجه هذا المسلم الجديد!

علـى هذه الخلفيـات تتوالى يوميات البطل فـي سرد رشيق حافـل بالتفاصيـل والعِبـر التراكميـة. وقد قـام صنع الله إبراهيـم بمهمتـه ببراعة متناهيـة هنا. ويتجلَّـى ذلك في طريقتـه فـي وصف الأجـواء، واعتمـاده لغة ذلـك العصر بمفرداتها وأساليبها كما نقلها عن الوثائق القديمة.

ببراعة متناهية، اعتمد المؤلف لغة ذلك العصر بمفرداتها وأساليبها كما نقلها من الوثائق القديمة

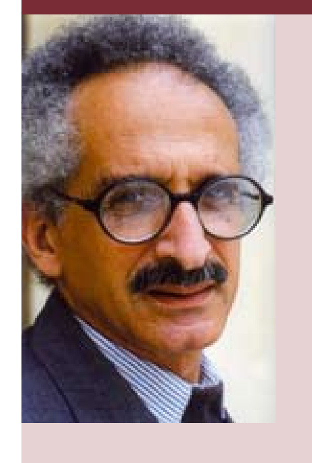
علـى أن الروايـة تتجـاوز محـض السـرد التاريخي. فالقيم الحقيقية التي تتبدى فيها ملكـة قاص من عيار صنـع الله إبراهيم هي قيم بشرية. وصف نـوازع النفس وتفاعلات العلاقـات بيـن النـاس فـي هـذا المرجـل الكبيـر.. مصريـون وفرنسيـس ومماليـك، مسلمـون وأقباط وغيرهـم، أسياد وتابعون، رجال ونساء في خضم الحرب والحب والمصالح المشتركة والمتنافرة معاً. في «العمامة والقبعة»، وعبر شخص البطل، نعيش دوامة التناقضات في أقسـى صورها وأكثرها واقعية أيضـاً. الأزمـة الكبـرى في التعايش مـع المستعمر وكرهه في الوقـت نفسه، وتصوير هذا الانقـلاب اللحظي وتذبذب النفس علـى نحو خفي حتـى على البطل نفسـه. براغماتية النخبة المثقفة وتساوقها مع كل طارئ، وجدية المستعمر في حماية رعيته الجديدة من ظلمها لنفسها.. من التجار الذين يستغلون الأزمة ليكدسوا السلع، ومن الطبقة النافذة التي لا يعنيها إلا أن تحمي نفوذها، وأن تركب موجة الوطنية طالما هـي مواتية لمصالحهـا. التناقض الذي يعيشـه الفرنسيون أنفسهـم والخارجـون لتوهم من ثورة دامية نـادت بالحرية والإخـاء والمسـاواة ليلقـوا أنفسهـم مجرد محتليـن وقتلة يخدمون طموحات قنصلهم بونابرت. هنـاك أيضاً الفوضى الأخلاقية التي يشيعها قـدوم الأجنبي وتمكنه.. والتي تمثل هاجسـاً أكبر لـكل مناوئـي التعايش بين الحضـارات حتى السـاعـة. هذه كانت محورية في الرواية.. هي وعلاقة الحب التي تجمع بين البطل وواحدة من أفراد المحتل.

حتـى حـد بعيـد، يسعنـا أن نقـول إن صنـع الله إبراهيـم يستحضـر فـي روايتـه خيـالات الماضـي وأحداثـه ليعقد محاكمتين اثنتين في الحاضر: محاكمة للشخصية العربية التي لا تزال توّاقة للنهضة وبعيدة عنها، ومحاكمة ثانية لروح الإمبرياليـة ولثقافة العَولَمـة المعاصرة الساعية في أصلها إلـى الهيمنـة على مقـدرات الشعوب، والتـي مثلت مغامرة نابليون في الشرق إحدى مظاهرها المبكرة. وهي محاكمة تظل فصولها معقودة حتى مع انتهاء فصول الرواية.

يتعمـد المؤلـف أن يذكِّرنـا بكم هـي معقَّدة تلـك القضايا وموغلـة في القـدم والمصالـح المتقاطعة. إنه فـي روايته هذه يتركنـا معلَّقين بين حقيقتين متضاربتين وأساسيتين: كم نحـن مختلفون ومتنافرون بحكم الأعـراق والمعتقدات والمصالح، وكـم نحن متشابهون ومتقاربون بحكم انتمائنا لذات الجنس البشري ووقوعنا تحت رحمة العواطف والفِطَر ذاتها. إننا.. وكما يشير عنوان الرواية.. نرتدي كلنا أغطِية الرأس. بعضنا يسميها «عمامة».. وعند البعض الآخر فهي محض «قُبعة».



صُنع الله إبراهيم



كاتب وروائي مصري. ولد في القاهرة في 1937م. صدرت له منذ 1964م أعمال عدة منها «ذات» و«تلك الرائحة» و«نجمة أغسطس» و«بيروت بيروت» و«اللجنة» و«وردة» و«أمريكانلي». كما جاءت روايته «شرف» ضمن قائمة (أفضل 100 رواية عربية) الصادرة عن (اتحاد الكتّاب العرب). أثار ضجة كبرى عام 2003م حين أعلن رفضه استلام (جائزة الرواية العربية) التي يمنحها (المجلس الأعلى للثقافة) بمصر، وذلك في لحظة تقديمها له.

مقتطفات

«العمامة والقبعة»
فصول من الرواية

الأحد 11 نوفمبر

استمرت حوادث الاعتداءات على الفرنساوية في القليوبية والجيزة والبحيرة ودمياط والمنصورة. وأحرق الفرنساوية القرى التي تسببت في هذه الاعتداءات. أما في المدينة فقد قلعوا أبواب الدروب والحارات الصغيرة غير النافذة وكسروها، ورفعوا أخشابها على العربات إلى حيث أعمالهم بالنواحي والجهات، وباعوا بعضها حطباً للوقود، وكذلك ما بها من الحديد وغيره.

وخرجت جنودهم لقمع الفتنة في السويس بعد أن استولوا على جمال السقائين فشح الماء وبلغت القربة عشرة بارات.

واليوم ألصقوا أوراقاً بالأسواق والشوارع بها كلام على لسان المشايخ سجلت منه العبارات التالية: «نعرِّف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية، وأشرار الناس، حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية، بعدما كانوا أصحاباً وأحباباً... وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته، وارتفعت هذه البلية، لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين، ومحبة إلى الفقراء والمساكين، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة... إن الله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء، ويحكم ما يريد... ونصيحتنا لكم ألا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم، وادفعوا الخراج الذي عليكم، والدين النصيحة والسلام»

الخميس 15 نوفمبر

اكتشفت أن أستاذي أوجز الحديث في أوراقه عن المشايخ المقتولين بالقلعة ولم يذكر أسماءهم.

الأحد 18 نوفمبر

عند عودتي من الخارج اليوم وأنا أرتعش من البرد القارص لم أتمكن من فتح باب غرفتي بالمفتاح. ناديت على جعفر ففشل هو أيضاً في فتحه.

أحضرنا القفّال فرطب المفتاح بلعابه وهزه كي يحرك الأسنان التي تقفله. لم تنجح المحاولة فانتزع القفل الخشبي بالكمّاشة وركب قفلاً جديداً.

أغلقت باب حجرتي بعد انصرافه. كنت أترك أوراقي دائماً تحت وسادتي مرتبة حسب التاريخ. استخرجتها فوجدت صفحاتها مختلطة. كنت مرتاباً في أن جعفر يفتش حاجياتي. لا يعرف القراءة لكن ربما أخذ الأوراق إلى الشيخ. وربما كان من فتش غرفتي هو خليل أو الشيخ نفسه.

اقتربت من الحائط وشببت على أصابع قدمي. أزلت الأتربة من شق بين الأحجار. طويت الأوراق ودسستها في الشق. لن يتمكن جعفر من بلوغها بسبب قصر قامته. لكن الشيخ قد يطولها. ثم إن الشق لا يتسع لمزيد من الأوراق.

استعدتها ووقفت أجول ببصري في الغرفة. لم يكن هناك ما يسمح بالغرض. ووقع نظري على الصندوق الخشبي الذي يضم أغراضي والكسوة التي يصرفها لي الشيخ. انحنيت فوقه وقلبته. كانت هناك مسافة مقدار ثلاثة قراريط بين قاعه والأرض. وكانت المسافة تتسع لأوراقي. أوشكت أن أضعها ثم فكرت في عمليات الكنس والمسح. فربما حرك الخدم الصندوق من مكانه أو دلقوا ماء في الأرض.

خرجت إلى الحوش. لم تكن هناك بادرة على وجود أحد. فتشت في أركان الإسطبل حتى عثرت على أربعة مسامير. التقط حجراً من ركن الحوش وعدت إلى غرفتي. أغلقت بابها. قلبت الصندوق ودققت مسمارين في كل جانب على مسافة قيراط من الأرض. ثم دسست الأوراق بين المسامير وقاع الصندوق. وهززته حتى تأكدت من ثبات الخبيئة. ثم أعدته إلى مكانه.

بالليل وأنا على أهبة النوم تخيلت أن الأوراق تراكمت بحيث صارت كتاباً يحمل اسمي.

الجمعة 30 نوفمبر

ذهبت إلى أستاذي قبل العصر إلى الأزبكية حيث تجمع الناس والكثير من الإفرنج. وكان الفرنساوية قد أعلنوا عن تطيير مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة، ويجلس فيها أنفار من الناس، ويسافرون في الهواء إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار، وإرسال المراسلات.

شهدنا قماشاً على عمود قائم، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دائرة الغربال، في وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها إلى الدائرة، وهي مشدودة ببكر وأحبال، وأطراف الأحبال بأيدي أناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها.

وبعد نحو ساعة أوقدوا الفتيلة، فصعد دخانها إلى القماش وملأه فانتفخ وصار مثل الكرة التي ارتفعت عن الأرض، فقطعوا تلك الحبال فصعدت إلى الجو مع الهواء، ومشت هنيهة لطيفة، ثم سقطت طارتها بالفتيلة، وسقط أيضاً ذلك القماش.

فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها، ولم يتبين صحة ما قالوه. وقال أستاذي في سخرية إنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح.

السبت أول ديسمبر

أرسلني أستاذي لأعاين التعديلات التي أدخلها الفرنساوية على شوارع المدينة. وجدت أنهم أحدثوا طريقاً جديدة فيما بين باب الحديد وباب العدوي حيث معامل الفواخير، وردموا جسراً ممتداً ممهداً مستطيلاً يبتدئ من الحد المذكور، وينتهي إلى جهة المذبح خارج الحسينية، وأزالوا ما يتخلل بين ذلك من الأبنية والغيطان والأشجار والتلول. ومدوا طريقاً من الأزبكية إلى جهة قبة النصر المعروفة جهة العادلية على خط مستقيم.

كان العمل ما زال جارياً في بعض الأماكن. ولاحظت أنهم يستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ، السهلة التناول. كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة، ويداها خشبيتان ممتدتان من خلف، يملأها الفاعل تراباً أو طيناً أو أحجاراً، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان، ثم يقبض بيديه على اليدين، ويدفعها أمامه فتجري على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل، فيميلها بإحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة. تحدثت إلى الفعلة فقالوا إنهم لا يعملون

بالسخرة بل يأخذون أجرتهم المعتادة، ويصرفونهم من بعد الظهيرة.

مضيت إلى الأزبكية ووجدت أنهم هدموا الأماكن المقابلة لبيت سارى عسكر حتى جعلوها رحبة متسعة. وردموا مكانها بالأتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدئ من حد بيته إلى قنطرة المغربي الواقعة بين باب الخرق وباب الشعرية. وصار جسراً عظيماً ممتداً ممهداً مستوياً على خط مستقيم من الأزبكية إلى بولاق، وينقسم بقرب بولاق قسمين: قسم إلى طريق أبي العلا، وقسم يذهب إلى جهة التبانجة وساحل النيل، وحفروا في جانبي ذلك الجسر من أوله إلى منتهاه خندقين، غرسوا بجانبيه أشجاراً وسيسباناً.

ولاحظت أن بعض الإفرنج يسيرون على أقدامهم نحو جهة غيط النوبي القريبة فتبعتهم. ورأيتهم يتوقفون أمام قصر أحد البكوات فيبرزون أوراقاً مخصوصة أو يدفعون أموالاً ويدخلون. كانت للقصر حديقة واسعة من أشجار البرتقال والليمون والأشجار المعطرة علقت فوقها القناديل. وانبعث منها موسيقى تعزفها فرقة عسكرية.

تتابع وصول الضباط والقادة ومعهم نساؤهم وجواريهم الشركسيّات والجورجيات والزنجيات. وعدد من الحواة والمغنيات والراقصات من أبناء البلد. كما وفد أيضاً كبار النصارى والشوام والأروام.

وقفت أتأملهم متمنياً لو كنت برفقتهم.

وأخيراً انصرفت.

الأحد 2 ديسمبر

اصطحبني أستاذي إلى سويقة السباعين، يسار جهة الموسكي، ومنها إلى حارة الناصرية وقبل أن نصل إلى شارع الكومي انحرفنا في الدرب الجديد. ترجلنا عن ركائبنا أمام البيت الذي أفرده الفرنساوية لأهل المعرفة، والعلوم الرياضية، والكتبة والحسّاب، وهو في الأصل بيت قاسم بك الذي كان الآن يقاتلهم في الصعيد.

ربطنا البغلة والحمار بجوار ركائب عديدة. فقد كان هناك عدد من المشايخ من أعضاء الديوان. رأيت الشيخ الشرقاوي بملابسه الفخمة ولحيته الكبيرة البيضاء المشقوقة وأنفه الطويل وعمامته الدائرية الهائلة. والشيخ المهدي بعمة مماثلة أصغر حجماً ولحية صغيرة يغلب عليها اللون الأسود. والشيخ البكري بعمامته السوداء الدائرية والفيومي الذي لف رأسه بشال من الكشمير الأبيض ذي حافة مزركشة.

رحَّب بنا الفرنساوية وصحبونا إلى الداخل. وقال لنا المدير فورييه إن لجنة العلوم والفنون تضم 151 عضواً يسكنون ويعملون في حجرات القصر والبيوت المجاورة له.

ولجنا بناءً رائعاً ثم قاعة هائلة عالية السقف تحفل جدرانها بخزائن الكتب الخشبية. ثم خرجنا إلى بستان به بركة ومزارع وسواق ونافورات وطرق ممهدة للمشاة تحف بجانبيها التكاعيب وكراسي للجلوس وكنيفات لقضاء الحاجة. وكانت الحديقة تتألف من طبقات يعلو بعضها بعضاً وتصعد المياه إلى أعلاها عن طريق أنابيب خاصة وعند كل مصب لهذه المياه مكان للجلوس. وقال لي أستاذي إن قاسم بك كان قد أباح للناس التنزه في رياضها وسمّاها «حديقة الصفصاف والآس لمن يريد الحظ والائتناس».

ووجدنا أن الفرنساوية أحدثوا حديقة للحيوان وأخرى للطيور وخصصوا جانباً من الأرض للتجارب الزراعية. وجانباً آخر لمرصد ومطبعة ومجموعة آثار وورشة تصنع بها أجهزة جراحية وبراجل وعدسات تلسكوبية وميكروسكوبية وأدوات رسم ومساحة وأصباغ للطباعة وشفرات سيوف وقبعات.

دخلنا المرصد وقدمونا إلى توت الفلكي وتلامذته. وشاهدنا الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة، وآلات الارتفاعات العجيبة التركيب الغالية الثمن، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئي، وإذا انحل تركيبها وضعت في ظرف صغير. وكذلك نظارات للنظر في الكواكب وأرصادها، وأنواع الساعات الغالية الثمن التي تسير بثواني الدقائق وغير ذلك.

انتقلنا إلى بيت حسن كاشف جركس، اليوناني الأصل، الذي شيده وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة من مظالم العباد. وقد أفردوه لصناعة الحكمة والطب الكيماوي، وفيه آلات تقاطير عجيبة، وآلات لاستخراج وتقاطير المياه، والأملاح المستخرجة من الأعشاب والنباتات، وحول الجدران قوارير وأوان من الزجاج البلوري المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف، وبداخلها أنواع المستخرجات.



وبدأوا يعرضون علينا أعاجيبهم. فأخذ أحدهم زجاجة فيها بعض المياه فصب منها شيئاً في كأس، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى، فعلا الماءان وصعد منهما دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس، وصار حجراً أصفر. ثم فعل ذلك بمياه أخرى، فجمد حجراً أزرق، وبثالثة فجمد حجراً أحمر ياقوتياً.

وأخذ آخر شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوت هائل كصوت البنب انزعجنا منه فضحكوا منا.

وأداروا زجاجة بفلكة مستديرة، فتولد من حركتها شرر يطير، ويظهر له صوت وطقطقة. وإذا لمس شخص الزجاجة الدائرة ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلاً به، حصل له ذلك.

هز أستاذي رأسه قائلاً: كلها أمور غريبة، ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا.

سأله فورييه: ماذا قلت؟

ترجمت له ما قاله أستاذي. تطلع إلي طويلاً ثم قال: أنت تعرف الفرنسية؟

قلت: قليلاً.

قال: نحن في حاجة إلى شبان من أمثالك يعرفون اللغات. ما رأيك في أن تأتينا كل يوم للمعاونة في تنظيم الكتب العربية بالمكتبة. ونخصص لك أجراً على ذلك (...)

قول آخر

خطرات حول المشهد الأدبي

صالح زيَّاد*

كيف يبدو المشهد الأدبي العربي في لحظتنا الحاضرة؟ لا بد أن نفهم من هذا السؤال أنه يطلب صفة المشهد الأدبي وحاله، وجوهرياً، تقويمه الذي يتضمن الحكم عليه بأحكام القيمة. وبالطبع، فإن وصفه العددي والنوعي الذي يقترن بتقويمه، وقيمته التي لا تبرير لها إلا وصفه، لا يقومان دون قياس ومقارنة مع جهات مختلفة من خارج المشهد ومن داخله. فهو أفضل أو أسوأ حالاً منه في فترة زمنية معينة، أو بالمقارنة بالأدب في العالم، أو بتمييز بعض جهات هذا المشهد عن بعض.

ويمكن أن نميِّز صفات هذا المشهد الأدبي، من خلال أبرز حسابات وَصْفه المتداولة. وأولها يعتقد أن حاضر هذا المشهد أقل ازدهاراً وعبقرية منه في الماضي القريب، فهو -إذن- يتراجع ويكسد، لأنه لم يعد يشتمل على من يضارع العقاد وطه حسين وأحمد أمين وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب... وغيرهم ممن أصبحوا في هذا المنظور علامة الازدهار وعنوانه. وترتبط في هذه الرؤية صفات العبقرية والنضج والاقتدار بنوعية محددة وطرائق معينة في الكتابة والتأليف والجاذبية والرواج، وهي صفات القمة التي تنحدر من عليائها مسيرة التاريخ الأدبي الحديث، والوهج الذي لا يضيء إلا محيط دائرته. وأعتقد أن هذه الرؤية رومانسية ولا تستطيع الفكاك من حنينها إلى الماضي الذي يتشكل لكل جيل زمناً جميلاً لا يتكرر!

ويجاور هذه الرؤية، وصف آخر، يأخذ في حسابه دخول ما كان يوصف بالأطراف والهوامش وهي دول الخليج واليمن ودول المغرب، في مقابل المراكز الأدبية والفكرية العربية التي هيمنت على المشهد العربي ممثلة في مصر معظم النصف الأول من القرن العشرين، ومضافاً إليها بغداد ودمشق وبيروت منذ الأربعينيات والخمسينيات.

فقد تفكك مركز الثقافة والفكر والإبداع الأدبي والفني بقدر ما تعدد، واكتسب تنوعاً وغنى وثراءً لا يأسره نموذج ولا يختصره مركز. وحدث ذلك لأسباب محلية وعالمية، تبدأ من تطور التعليم والهامش المعقول لحرية التعبير وتقارب أجزاء العالم وانفتاحها على بعضها، ضمن فضاء جديد لعولمة الاقتصاد والمعلومات، والثورة التقنية في عالم الاتصال، بالإضافة إلى المقولات النظرية لما بعد الحداثة والاستعمار والبنائية، حيث التأكيد على التنوع والتعدد وانهيار المركز ونقد الهيمنة، وغيرها مما تزاوج وغدَى تسيّد النماذج المعرفية المنفصلة عن العقائدية الإيديولوجية.

ويتصل بهذا الوصف، الحسابُ للمشهد الأدبي العربي من زاوية اغتنائه بالمحلي والشعبي، بقدر اتصاله باليومي والهامشي وبالتفاصيل الدقيقة والجزئية.

فالرواية التي تدفقت إصداراتها المجبولة على صدقية التمثيل لمستويات الواقع، هي قرينة الحضور الملحوظ لقصيدة النثر أو التفعيلة في الإصغاء لصوت الحياة اليومية والتقاط نبضها الحار وحيويتها. لكن هذه الوجهة تغفل عما اقترن بذلك من نمو العصبية، وتزايد سلطان الخرافة والقبيلة والتقليد على مستوى القاعدة الاجتماعية. فكأن المشهد ينتكس من جديد في انفصام حاد بين تطلعاته التنويرية والعقلانية وطاقاته الإبداعية الجمالية وأحلامه في الارتقاء على الضرورة من جهة، واستشراء الأمية الثقافية والتعصب والخرافة، من جهة أخرى!.

وهناك من يسأل، بعد موت الجواهري، ونزار قباني، ونجيب محفوظ، ومحمود درويش، وعبد الله الجفري وأمثالهم في الفترة القريبة الماضية: هل المشهد الأدبي في طور انقراض الأسماء الكبيرة؟. وهو سؤال متشائم وغير منطقي؛ لأن كل زمن يلد أسماءه الكبيرة، بل إن وصفها بأنها كبيرة وبارزة يتضمن نسبية ما، تفتح إمكان البروز لغيرهم.

إن النظر إلى المشهد الأدبي العربي -إذن- هو جزء من النظر إلى الحياة العربية في توتر الوعي بها بين الماضي والمستقبل، وبين الذات والآخر. وإن تقويمه لن يبرأ -إجمالاً- من الشعور بأنه لم يبلغ بعد درجة التمام والرضا.

* ناقد وأكاديمي سعودي

الظل



يكاد الظل أن يكون أحجية بحد ذاته. فهو يولد ويتحرك ويكبر ويصغر، ومع ذلك فهو ليس كائناً حياً.

إنه «الشيء» الوحيد الذي لا يُلمس ولا يوزن ولا طعم له ولا رائحة، حتى أن تسميته «شيئاً» تخضع للنقاش. ومع ذلك، فإنه طالما شغل الإنسانية، وصاغ الكثير من نظرتها إلى الكون، ولعب دوراً قد يكون من أبرز الأدوار التي لعبتها عناصر الطبيعة في صياغة الثقافة الإنسانية، حتى أنه شكَّل الأساس الذي قامت عليه فنون بأسرها.

وبسبب حضوره الدائم في جوارنا حيثما كان هناك ضوء، فإن العين، وهي الأداة الوحيدة القادرة على إدراك وجوده، قلَّما تلتفت إليه، لأن وجوده هو أشبه «بتحصيل حاصل». ولذا، يصطحبنا **فريق القافلة** في هذه الرحلة إلى الظل، ليسلِّط الضوء على عالم نسجه أساساً غياب الضوء نفسه.



Magnum Photos





وما الظل غير هذه المساحة التي يُحجب الضوء عنها، لوجود شيء بينها وبين مصدر الضوء، وهي مساحة لا شكل لها إلا بعض ما تكتسبه تبعاً لشكل الشيء كما يتحدد عند أطرافه لا أكثر ولا أقل. وهل من أقل؟

ورغم ذلك فقد احتل الظل مكانةً لا يستهان بها في النفس الإنسانية.. وكانت لهذه المكانة انعكاسات واسعة في الفن والأدب. وجاء ذكره في القرآن الكريم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ سورة الفرقان.

والحقيقة أن للظل دوراً مهماً في الخيال الإنساني، إضافة إلى أن الأشكال التي يأخذها مثيرة للاهتمام بحد ذاتها. ورغم أنه «يتشبه بالأصل»، وهو أمر لا مفر منه، إلا أنه في شكله شيء آخر له جماله الخاص وحضوره المميز.. فهو يتبع الضوء فيتحدد على الجهة المعاكسة له. وبامتداده المشطور له في حالة سكون الأصل وقعاً حسياً مرهفاً، وأما في حركته فهو يُضحك أحياناً ويخيف أحياناً أخرى. وهناك ما يشبه السيناريو المفترض للحظة اكتشاف الواحد منا للظل للمرة الأولى. قد يحدث مع البعض ولا يحدث مع البعض الآخر. قد نتذكره كحادثة وقد لا نتذكره. وذلك لحظة يكتشف الطفل الظل.. وحتمية الظل، حين يكون في الخلاء يلعب ويلاحظ هذا الذي يتبعه دون فكاك. ويحاول الهروب منه ذات اليمين وذات اليسار، إلى الأمام وإلى الخلف ولكن هيهات. ظلك معك.. معك!

ويكون لهذه التجربة أحياناً في نفس الطفل وقعاً عميقاً ربما لا يظهر على وجهه ولا يتنبه لأبعاده حتى هو نفسه. إذ إن الذي حدث له وهو يحاول «التخلص» من ظله، عرّضه لنوع من الصدمة اليقينية بأن هناك أموراً في الحياة ليس بمقدور الإنسان فعل شيء حيالها، مهما حاول. وخيرٌ له ألا يحاول. أنت لا تستطيع أن تتخلص من ظلك.. ولا من أي ظل.

تأمّل الظل. فالظل «الساكن» يوائم، بشكل ما، المزاج التأملي. وهو في أكثر أشكاله شيوعاً -ولو في هذا شيء من التفاوت- مساحة رمادية تمتد لمسافة ما تطول عن الأصل أو تقصر. وفي هذا الظل الملقى فيه شيء من «الوجد». تتأمل الوجود. فالظلال، وكأنها صدى لهذا الوجود، تعطيه روحانية ما تبحث عنها.

والحقيقة أن الظل لا يكون دائماً خارج الشيء، بمعنى أنه يبدأ من طرفه ويبتعد عنه حسب موقع النور. فكل الأشكال الثلاثية الأبعاد إذا وقع عليها الضوء من جانب، تظهر جوانب مضاءة أكثر من غيرها، ويبهت هذا الضوء تدريجياً حتى يصبح ظلاً كاملاً على جهتها البعيدة عن النور، وبمعزل عن الظل الذي يظهر على مكان وقوفها. ولهذا فإن دراسة الرسم الكلاسيكي تبدأ برسم الأشكال ثلاثية الأبعاد ومن أهم أصولها تعلّم «التظليل» وهو الذي يعطي للشكل الهندسي أبعاده كما هو معروف.

أما في المخاطبة الأدبية فقد اتخذ الظل مدلولات مختلفة وأحياناً متناقضة: فقد حمل الظل معنى الأثر فيقال إن هذه القضية قد ألقت بظلالها على الوضع، وفي الكتابة العادية نجد التعبير الشائع «في ظل الظروف الراهنة» للدلالة على أثر ظروف ما على مرحلة معينة. ويشبه رفيق شخص ما بظله، خاصة إذا كان صاحب الظل له بعض المكانة، فيقال إن فلاناً لا يتجول إلا وظله معه.

كيف ينشأ الظل؟

لا شك في أن الظل كان إحدى أولى الظواهر الطبيعية التي تنبه لها الوعي البشري. فمن داخل الكهوف والأكواخ التي انعكست على جدرانها ظلال الناس بفعل نيران التدفئة والطهو.. إلى السهول المفتوحة حيث سقطت أشعة الشمس على أجسامهم وأجسام الحيوانات والأشجار من حولهم، كان الظل حاضراً دوماً كظاهرة مستحقة للاهتمام والتفسير. ومنذ البداية، كان الظل رديفاً للراحة تحت شجرة، وللهرب من شعاع الشمس الحارق.

فهم الإنسان أن الظل ينشأ عندما يوضع جسم ما بين مصدر للضوء وأي سطح آخر يسقط عليه هذا الضوء. لكن هذا التفسير البسيط تبلور في الواقع عبر قرون من الملاحظة والدراسة، وكان حاسماً بدوره في تفسير ظواهر الضوء والإبصار. وخصوصاً حين ساد اعتقاد بأن الضوء إنما يخرج من العين المبصرة ليقع على الأجسام المرئية. وتبين لاحقاً خطأ هذا الرأي، واتضح أن الضوء يصدر من الشمس -أو سواها- لينعكس عن الأجسام ثم يرتد إلى العين التي تراه فترسل الصورة إلى المخ.

وبشكل أكثر تفصيلاً، يعرَّف الظل بأنه منطقة ينحجب فيها الضوء القادم من مصدره بسبب اعتراض جسم ما لمسار الضوء. ويكون الظل عبارة عن إسقاط داكن ثنائي الأبعاد ومعكوس -يمينه شمال وشماله يمين- يأخذ شكل هذا الجسم المعترض، ويحتل مساحة تتناسب رياضياً مع بعد هذا الجسم عن السطح الذي يقع عليه الظل وعن مصدر الضوء. فكلما ضاقت الزاوية بين مصدر الضوء والسطح العاكس للظل، ازداد طول الظل. وكلما قرب الجسم من مصدر الضوء، كبرت رقعة ظله. كما أن هيئة الظل تتأثر بتنوع مواصفات السطح العاكس له. وأخيراً، فإن تباين الألوان في البيئة من حولنا كما تلتقطه أعيننا ما هو إلا تأثير ظلّي تشكله انعكاسات الضوء من مصادره المختلفة. كما أن لون الظل يتباين في حلكته بتباين نفاذية الجسم الذي يعترض مسار الشعاع الضوئي. فالظل الذي تخلفه شاشة قماشية مثلاً يختلف عن ذلك الذي يحدثه جسم مصمت كجدار حجري مثلاً. من هنا كان لنا أن نفهم كيف تتباين الظلال التي تتركها الغيوم في السماء عن تلك التي تخلقها المظلات الصناعية. ونظرياً فإن كل ما يعبر الفضاء بيننا وبين الشمس يخلف ظلاً على الأرض، بما في ذلك الطيور والطائرات. لكن هذه الظلال قد تكون أسرع أو أدق من أن تلتقطها أعيننا.

المصادر الكبرى للضوء والظل

هناك ثلاثة أجرام سماوية يسعها أن تشكِّل ظلالاً على الأرض. وهذه الأجرام هي الشمس والقمر وكوكب الزُهَرة. وإذا كانت الظلال التي يشكلها كل من الشمس والقمر مشاهدة عياناً، فإن وصول ضوء الزهرة إلى الأرض بشكل يسمح تكوين ظلال للأجسام التي يقع عليها يمثل حقيقة علمية مفاجئة للكثيرين.

ولكي نفهم لِم يشكِّل الزهرة ظلالاً في حين لا تفعل ذلك باقي الكواكب والنجوم أو التوابع الصناعية اللامعة في الفضاء، علينا أن نعي بعض القواعد العلمية. فهناك ما يسمى بالقدر الظاهري أو (مقدار الظهور -Apparent Magnitude) وهو مقدار سطوع الأجسام السماوية كما



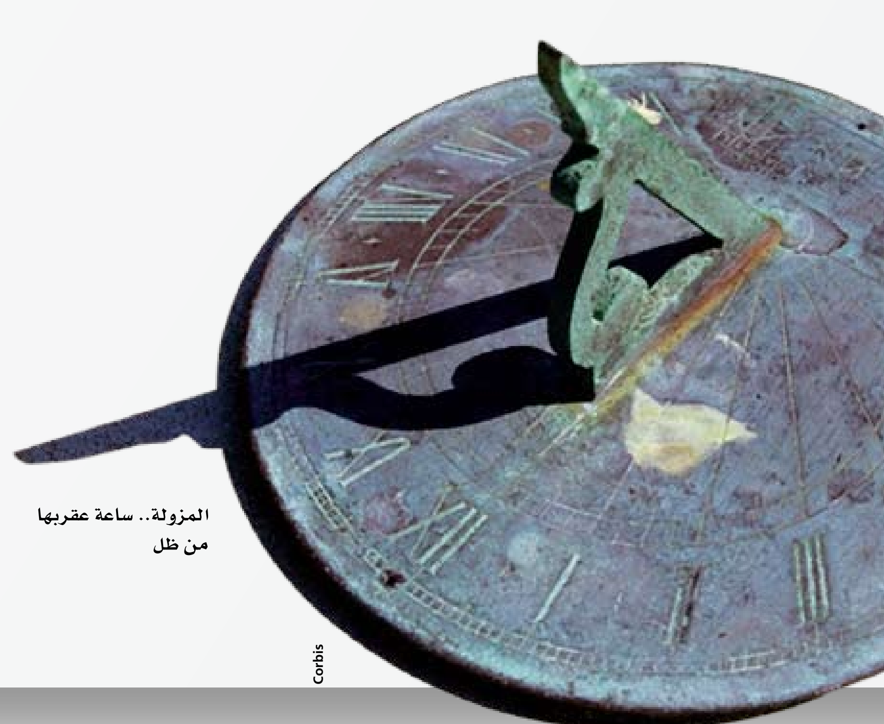
طُويت المظلة.. فظهر الظل

تُرى مـن الأرض. فالشمس وهي ألمع جرم فـي السماء هي أكثر سطوعاً من القمر بمقدار 400 ألف مرة، ما يفسِّر غياب القمر والنجوم في ذروة النهـار. أما سطوع كوكب الزهرة، فهو طبعاً أقل من سطوع القمر، ولكنه يبقى ملحوظاً.

فخارج المدن بعيداً عن (التلوث الضوئي) الذي تحدثه الأضواء الصناعية، وإذا كانـت السماء صافيـة وكان كوكب الزهرة في أقصى سطوعه وأقصى بعـد له عـن الشمس بالنسبـة للأرض (دورة تتكـرر كل 19 شهـراً)، فإنه سيظهـر في السماء قبل الشروق أو الغروب فـي هيئة نقطة مضيئة كبيرة. وسيسعك أن ترى ظلك الشخصي وقد أسقطته هذه النقطة عريضاً وشاحباً باهتـاً على الأسطح فاتحة اللـون أكثر مما هو الحـال بالنسبة لظلك تحت ضـوء القمر. وتختلف (بصرياً) طبيعة ظل الزهـرة عن ذلك الذي يشكله ضوء الشمس. فظل الزهرة صادر عن (نقطة) منيرة، في حين تنتج ظلال الشمس والقمر عن (أقراص أو أجسام دائرية) مضيئة.

تلخص هـذه الملاحظـات البديهيـة فـي مجملهـا دهراً كامـلاً من الملاحظـة والدراسـة. فالمعرفة البشريـة تكامليـة وتراكمية. وهذه التفاصيـل الأوليـة بخصوص الظل ما هـي إلا قمة جبـل جليدي من المعارف والقوانين التي تكونت عبر الممارسة والتجريب وعبر سلسلة مـن الاستخدامات الفيزيائية والفنية. ولعـل الباهر في الظل تحديداً أنـه كظاهـرة طبيعيـة ذات تطبيقات متعـددة في الحيـاة العملية قد تجـاوز هذه المكانة ليخلق وعياً وثقافة خاصيـن به في تراث الشعوب كما سنرى.





المزولة.. ساعة عقربها من ظل

الظل بين العلم والخرافة

تفاوت فهم الناس لظواهر الظل، وكون الظل في الأساس مقدمة للظلمة التي هي نقيض الضياء، كل ذلك خلق بعداً أسطورياً للظل في الوعي الإنساني.

في كثير من الحضارات نجد الظل قريناً للغموض والسر وللموت ذاته أيضاً. ولا تـزال رواسب هذه المعتقدات موجودة فـي وعينا الجمعي. حيث يكرس معنى الظـل كرديف للخطر والهيمنة السرية كما سنرى على سبيل المثال. فعبر حضـارات مصر القديمـة واليونان أيضاً، استخـدم مصطلح «أرض الظلال» للإشارة إلـى العالم الآخر الذي ينتقل إليه الموتى. فعند اليونان، كانـت أرض الظلال مملكة «هيديز» حيث تقاسـي الأرواح الشريرة صنوف العذاب. وعند الفراعنة فإن أرواح الموتى تتجه ناحية الغرب.. حيث تختفي الشمسـ ويحـل ظلام أبدي. المفاهيـم ذاتها موجودة عنـد شعوب أمريكا الجنوبية الأصليـة حيث يعتبر الظلام إشارة لوجود عالم آخر مواز لعالمنا إنما مخيف وبلا ضياء يغادر إليه الأموات.

وحتى فيما يتعلق بهذه الحياة الدنيا، فإن تفاعل الثقافات مع الظل لم يسلم أيضـاً من فـخ الخرافة. فالخطو على ظـل الزعيم أو الكاهـن الممتد على الأرضـ كان يعد خطيئة كبرى عند كثير مـن القبائل البدائية حول العالم. باعتبـار الظل امتـداداً روحيـاً وغيبياً لجسـم صاحبه. وفـي أوروبا خلال العصـور الوسطى كانت تتم، من نفس المنطلـق، معاقبة ظل النبيل عوضاً عن جسمه كإجراء تحايلي يجنبه الأذى الفعلي.

وثمـة فـرق أيضاً بيـن (الظـل – Shadow) والظليلـة (Shade) أو الظل الطارئ الخفيف. وفُسِّر ذلك في بعض الحضارات القديمة على أنه حضور للأشبـاح وسواهـا من الكائنات الخفية. أو أنها رسـل يبعث بها الموتى من عالمهـم لغرض حماية الأحياء أو الانتقام منهم. ونسجت في ذلك أساطير وخرافات لا نهاية لها حول العالم.

هـذه الممارسـات والمعتقـدات بغض النظر عـن منطقيتهـا إلا أنها تلفت انتباهنـا للقيمة الأسطوريـة والغيبية للظل، والتي انعكسـت حتى مع تطور المعارف على المنتوج الفكري والفني للإنسان المعاصر.



المحترف السعودي

الظل في المسكن.. مادة دراسة عند المهندسين



..ومادة للخيال
الفني أيضاً

فسوف وكسوف ومزاول شمسية

قد يكون الإنسان فهم الظل الذي يراه يومياً أو اعتاد عليه. فظلال الأشجار والموجودات وتفاوت أطوالها مع حركة قرص الشمس على مدار اليوم أوحت للإنسان استغلال هذه الظاهرة في تحديد معيار للوقت. فكان ذلك أول التطبيقات العلمية المباشرة للظل.

تعود أقدم الإشارات لاعتماد المزولة الشمسية إلى الحضارة الفرعونية قبل الميلاد بألف وخمسمائة سنة. وهناك من يعتقد بأن الإنسان استخدم الظل لتحديد الوقت منذ 5000 سنة قبل الميلاد. وقد عرفت المزولة انتشاراً كبيراً حول العالم وحتى بعد ظهور الساعة الميكانيكية. كما أنها كانت محورية في الحضارة الإسلامية لأنها أعانت على تحديد مواعيد الصلاة خلال النهار.

إلا أن هناك ظواهر أخرى مقترنة بالظل شكلت للعقل البشري معضلات حقيقية وتأثرت بها حضارات معينة على نحو مطلق. أشهر هذه الظواهر الظليّة «الخارقة» ظاهرتا الخسوف والكسوف. فالأرض والشمس والقمر في أثناء دورانها حول بعضها يحصل أن تقع ثلاثتها على خط واحد، ليتحقق التعريف العلمي للظل الوارد أعلاه حيث الشمس هي مصدر الضوء فيما يتبادل كل من الأرض والقمر دوري السطح الحاجب للضوء والسطح العاكس للظل. وحيث أن الأرض والقمر جرمان كرويان، فان أشعة الشمس الساقطة عليهما تخلف وراء كل منهما ظلاً مخروطي الشكل تبدأ قاعدته من الجرم بينما يمتد رأسه المستدق بعيداً في الفضاء، ويطلق على هذا المخروط اسم «مخروط الظل». كما يتشكل في الوقت نفسه خلف كل من الأرض والقمر مخروط ثانٍ ناقص أو مقطوع الرأس.. يحيط بمخروط الظل لكن يعاكسه في الوضعية. ويسمى هذا المخروط الثاني بـ «مخروط شبه الظل» لأنه أقل إعتاماً من مخروط الظل. وبحسب موقع الأجرام الثلاثة من مناطق الظل هذه، تتحقق ظواهر الخسوف والكسوف بشقي كل منها: الكلي والجزئي.

هذه التفسيرات العلمية، أدرك بعضها البابليون قبل الميلاد، فتمكنوا من حساب ما يعرف بـ «دورة Saros» وهي المدة الزمنية التي يستغرقها القمر ليصل إلى ذات نقطة الخسوف أو الكسوف وتبلغ 18 سنة و11 يوم و8 ساعات. وتعامل أقوام آخرون مع هذه الظاهرة الفلكية على نحو مفعم بالغيبية قد تصل إلى حد الخرافة. فالصينيون كانوا يعتقدون بأن تنيناً عملاقاً يبتلع القمر إلى حين. وشعوب أمريكا اللاتينية قبل الاستعمار الأوروبي كالمايا والآزتك كانت تعبد الشمس مطلقاً، وتعتبر الخسوف محض مؤشر على غضب الآلهة ونقمتها. هذه التبريرات المقترنة بتلك الظواهر صاغت الكيفيات التي تطورت بها هذه الحضارات علمياً وفكرياً، وصاغت الأنماط الاجتماعية والأخلاقية التي حكمت تعايش هذه الشعوب مع بعضها ومع جيرانها أيضاً.



الخسوف والكسوف.. الظل بمقاييسه الفلكية

Corbis



Google

قيمته الفنية غيَّرت تاريخ الفن

نقـل عن الرسام الانطباعي رينوار قوله: «ليس هناك ظل أسود. الظل دائماً له لون. ففـي الطبيعة لا يوجد غير الألوان، والأبيض والأسود ليسا لونين». هـذه الرؤية للطبيعة هي التي سمحت للانطباعيين بإنشاء مدرستهم الفنية القائمـة علـى تغيُّر الألوان في المـكان الواحد من خلال تغيـر الضوء الذي يسقـط عليه. فكان لهم منهجهم الخاص فـي التعامل مع الظلال المختلف تمامـاً عمَّـا كانت عليه الحـال في المدارس الفنية السابقـة. ولكن موقف الانطباعيين من الظل ولونه ودوره في اللوحة لم يكن غير منعطف في مسيرة بدأت منذ فجر النهضة الفنية في إيطاليا قبل ذلك بنحو خمسة قرون.

فمنـذ مطلع القرن الرابـع عشر، سعـى الرسَّامون الإيطاليـون إلى تطوير التقاليـد البيزنطيـة في فـن الرسم من خلال تحقيق أكبـر قدر ممكن من مشابهة الواقع، عبر رسم المشاهد بأبعادها الثلاثية (وليس ببعدي الطول والعرض فقط). وكان الرسام جيوتو رائداً في هذا المجال، إذ أسس لدراسة جانبيـن يسمحـان بتحقيق هذا الهدف، وهما تغيّر حجـم الشيء المرسوم كلمـا ابتعد أو اقترب من عين الرسام، والـدور الذي يلعبه الضوء في إنارة جانـب منـه أكثر من جانب آخر. وبسرعة حذا حـذوه معظم الفنانين، ولم يمضِ قرن من الزمن إلا وتمكَّن بعض الفنانين مثل أنطونيلو دي ميسيتا من رسم صورة شخصية شبه فوتوغرافية في أمانتها للواقع. ومنذ ذلك العصر، أصبـح الظل عنصراً أساسياً في فن اللوحة يستوجب الدراسة والإتقان في التعامـل معه على قدم المسـاواة مع اللون والخط. وأكثـر من ذلك، يمكن القـول إنه بدءاً من أواخر القـرن الخامس عشر الميلادي، كان التعامل مع الضـوء والظل العامل الرئيس فـي شهرة فنانين كبار وحتـى مدارس فنية بأسرها، مثل المدرسـة الهولندية بشكل خاص، حيث نرى فنانين تنحصر عبقريتهـم في رسم المشاهد الداخلية على ضوء الشمس الشاحبة في تلك البـلاد الشمالية، مثل فيرمير، في حيـن اعتمد بعضهم بشكل أساسي على ضـوء الشموع للإنارة والتظليل، كما هو حال رامبرانت. غير أن ذروة الدور الذي لعبه الظل في فن الرسم، كان في القرن السادس عشر، عندما أسس الرسـام الإيطالي كارافاجيو مذهباً فنياً عُرف باسـم «المضاء والمظلم»، ويقضـي برسم مشهد داخلي مضاء بمصدر واحـد كشمعة أو مشعل مثلاً، والاكتفـاء برسـم بعض الحواف المضاءة من المشهـد، وإغراق الباقي في الظلام. ومن أشهر الفنانين الذين ساروا على خطى كارافاجيو وبالغوا في إظهار التناقض بين المضاء والمظلم نذكر الفرنسي جورج دي لاتور. ولكن أهمية هذا المذهب الفني تكمن في أنه من خلال تعتيم الظلال، بدت مشاهده بشـكل عام عبـارة عن مساحات ملونـة مقطعة ومتناثرة وغالبـاً ذات تركيب يتميـز بكثرة المنحنيات والالتواءات.. فكانت بذلك الأساس الذي قامت عليه مدرسـة الفن الباروكي ككل التي عاشت لنحو قرنين من الزمن، قبل أن يعود رسم الظلال إلى عقلانيته وواقعيتـه في المدرسة الكلاسيكية وكل المدارس اللاحقة التي اهتمت، أياً كانت درجة اهتمامها بمشابهة الواقع.



فيرمير.. أستاذ رسم ظل ضوء النهار في الداخل



..ورامبرندت.. أستاذ دراسة ظلال الضوءين الطبيعي والصناعي

أساس ثقافة الصورة الحديثة



الظل.. من دونه لا صورة فوتوغرافية

خالد مهدي الراشد

يمكن أن يجادل البعض بأن الظل كان هو أول أشكال المؤثرات البصرية (الخدع السينمائية لاحقاً). وهذا رأي متسق مع التسلسل التاريخي لتطور فن القصّ البشري: الإلقاء فالمسرح فالرواية المكتوبة وأخيراً الفلم السينمائي. عبر كل هذه المراحل كان الظل حاضراً كعامل مساعد أو محوري. وهنا تحضرنا تجارب الأطفال حين يسلط بعضهم كشّافاً يعمل بالبطارية على وجهه من الأسفل لتعطي الظلال ملامحه صبغة مخيفة لأقرانه.. هذه الخدعة كانت الأولى في عوالم المسرح وفي الأفلام الصامتة كذلك.

والحقيقة أن الظل في التراث الأدبي يكاد يتجاوز مكانة المؤثر البصري أو العامل المساعد ليغدو أصلاً تتمحور الحبكة حوله. فمشهد الظلال المتراقصة على الجدران خلف لهب المشاعل أو ضوء الشموع.. لترسم هياكل ووحوش أسطورية وكائنات خيالية ولدت من رحم الظلمة.. هذا المشهد خلدته قصص الرعب والإثارة. كما أنه ليس أسوأ -بالنسبة للمشاهد- من اللحظة التي يتسلل فيها ظل الوحش المجهول من خلف البطل الغافل.. حتى لو اتضح أن القادم لا يمت لجنس الوحوش بصِلة. هذه اللقطة «التعليقية - suspension scene» قد كرَّستها السينما في مَشاهد لا تُنسى.

حتى قبل السينما، فإن الصورة الفوتوغرافية الأولى كما قرَّر المؤرخون هي تلك التي التقطها الفرنسي نيسافور نيابس من شرفة منزله عام 1826م. تلك الصورة على رداءتها، ليست إلا خربشات ظلية.. ظلال المباني والشارع.. وظلال الظلال ذاتها!! ومع تطور تقنيات التصوير الضوئي من الأبيض والأسود إلى الملون، ومن الفلمي إلى الرقمي، فإن المبدأ يظل نفسه: نحن نلتقط انعكاس موجات الضوء (الألوان) التي ما هي إلا تدرجات الظلال. الصورة الضوئية ما هي إلا توثيق للظل. وكي نستوعب هذا الرأي يسعنا أن نرجع بذاكراتنا قليلاً إلى أيام غرف التحميض المظلمة.. يسعنا أن نتخيل أن كل الصور في مثالنا هي أحادية اللون (بالأبيض والأسود). كانت فنيّات التحميض آنذاك تتطلب من المصور أن يعالج الصورة بحيث تكون الظلال داكنة أكثر أو أقل، ومناطق السطوع أنصع أو أبهت، على النحو الذي توحي له به قريحته الفنية. هذه المهمة





فاطمة العيساني

صارت تتكفل بها اليوم معالجات الكاميرات الرقمية وبرمجيات تحرير الصور مثل برنامج (Adobe Photoshop). لكننا يسعنا أن نتأمل روائع لفوتوغرافيين عظماء مثل أنس آدامز أو هنري كارتييه بريسون لنستمتع بطريقة قراءة هؤلاء لتدرج الظل بين الأبيض والأسود وأن نسقط القراءة ذاتها على الإبداعات الفوتوغرافية الملونة.

وفي الحقبة ما قبل الرقمية كذلك، فإن الصور كانت تُسجَّل على أفلام لتتم معالجتها وطباعتها على الورق لاحقاً. هذه الأفلام كانت تسمى بـ «النيجاتيف» أو (الصورة السالبة). بالنسبة للقطات الاحترافية فإن (النيجاتيف) هو بمثابة المعيار لمدى توازن اللقطة من ناحية توزيع الإضاءة عبر مساحة الكادر. هذه الصورة السالبة يسعنا أن نعتبرها كذلك على أنها عكس للظل. إنها بكلام آخر «ظل للظل»، حيث تظهر الظلال الغامقة ساطعة بها. التأمل في «فلسفة النيجاتيف» هذه، يأخذنا إلى أبعاد أخرى من التفكر. وافتراض وجود عوالم مضادة ذات قيم مادية معكوسة هو تصور مأخوذ من هذه الفلسفة وذو حضور عميق في أدب الخيال العلمي وفي الفلسفة وعلم النفس المعاصرين أيضاً.

لكن بعيداً عن التبريرات الفلسفية لماهية الصورة الضوئية، فإن الظل يبرز كمحور أوحد في نمط شهير من أنماط التصوير.. ألا وهو (السيلويت – Silhouette). حيث يتم التقاط صورة الجسم البشري أو المشهد الطبيعي مع تعمد جعل مصدر الإضاءة -الشمس أو سواها- خلف الجسم المراد تصويره تماماً. واللقطة الناجمة عن هذا الأسلوب تكون خالية من ملامح صاحبها. إلا أن «صورة الظل» هذه هي ذات تأثير درامي وجمالي باهر. وجرى استغلالها هي الأخرى في العديد من الروائع الفوتوغرافية والسينمائية الخالدة.

وأساس لفن مسرحي

الظـل قابـل للإنتاج، إذ ثمة «ظـل صناعـي» لا يتطلب إيجـاده إلا مصدراً صناعيـاً للنور. هذه الطواعية الظلية للتحكـم البشري كرَّست مكانة الظل كوسيلـة تجريب وترفيه على مـر العصـور والحضارات، وكرَّسـت مكانته الوجدانيـة أيضـاً كوسـط فني مدهـش وجامح بقـدر ما يسمـح به جموح المخيلة البشرية ذاتها.

التجـارب البدائية للعب بالظل لا يزال يمارسها الأطفال حول العالم: وضع الأكف في مجرى شعاع الضوء وصنع ظلال «تشبه» أشكال الحيوانات ووجوه البشـر. وتطورت هذه التجارب عبـر الزمن وعبر أكثر من صعيد وإن كانت لـم تزل متمتعـة ببهجتها الأولى. والتطبيق الترفيهـي الأشهر والمبني على هذه الفكرة هو «مسرح الظل».

تأتي الإشارات المدوَّنة الأولى لدمى مسرح الظل من الصين زمن حكم سلالة «هان» الذي امتد بين عامي 200 قبل الميلاد و220 بعد الميلاد تقريباً. ودافع هذه العروض الأولى كان الترفيه بطبيعة الحال عن الأباطرة وإخراجهم من حالات إحباطهم، قبل أن ينتشر هذا الفن ويكتسب شعبية بين العامة.

وكانـت دمى الظل ذات حضور محـوري أيضاً في الثقافة الملاوية (إندونيسـيا وماليزيـا)، حيـث كانـت تُصنـع مـن جلـود الحيوانـات فـي هيئـات الأبطـال الأسطوريـين. وتدور المسرحيات كصراعات بين قوى الخير والشر لترسيخ القيـم الأخلاقية بيـن النظّارة. هذا الفـن الملاوي يحظى حاليـاً بتقدير عالمـي باعتبـاره أول أشكال الرسوم المتحركة كما نعرفها اليوم. وقد تم اعتماد فكـرة هذه الدمـى والتي تعرف فـي اللسان المحلي بــ«Wayang Kulit» أو «جلـود الظل» مـن قبل منظمة (الأونسكو) عام 2007م كأحد رموز الحضارة الحِرفية البشرية التي لم تزل باقية إلى يومنا.

ومـن الصين انتقل هذا الفن إلى فرنسـا عبر الإرساليات خـلال القـرن الثامن عشـر لتُفتتـح مسـارح تعرض هذه «الظـلال الصينيـة» كمـا عرفت فـي باريـس ومارسيليا. وازدهـرت هـذه المسارح أكثـر خلال القـرن التاسع عشر بالذات في ضاحية الملاهي الشهيرة Montmartre.

وتحتفـظ الذاكـرة التاريخية بعروض شهيـرة قدمها ملهى «القـط الأسـود» عـام 1880م، أشرف عليهـا الفنان هنري ريفيـير بمساعدة 20 فنياً آخرين. وقـد مثلت هذه العروض أساسات لمسرحيات فنية كبرى لاحقاً.

وخيال الظل

أمـا فيما يخص المشـرق العربـي والإسلامي، فقد عُرفـت مسرحيات «خيال الظل» بأسماء أخـرى عديدة منها «ظل الخيال» و«خيال الستار»، وانتشرت بين العامة كفـن شعبي انتقل إلى العالم الإسلامي من الشرق الأقصـى عبـر بلاد فارس. وكمـا كان الحال مع دمى الشـرق الأقصى، تـم اعتماد الجلـود المجففة بعد تلوينهـا لصنع شخوص هـذا المسرح الـذي مثّله ستار من القماش الأبيض تحرك الدمي من ورائه فلا يظهر للمشاهديـن سوى ظلهـا. وكان محرك الدمى يعـرف بأسماء عدة منها «المخايلي».

يشيـر الدكتور شوقي ضيف إلى أن العرب عرفوا «خيال الظل» للمرة الأولى خلال القـرن السادس الميلادي في العصر العباسي؛ ليفد إلى مصر زمن الفاطميين في القرن الحادي عشر ويزدهر تحت حكم الأيوبيين والمماليك. وخـلال تلك الفترة، عُرفت تمثيليات خيال الظل باسم الـ «بابات» ومفردها «بابـة». ويُعد شمس الدين بـن عبدالله محمد ابن دانيـال الموصلي أشهر مـن كتـب «البابات» وطور مسرح خيـال الظل في تلك الحقبـة. وهو طبيب وشاعـر قدم إلى القاهرة من الموصل فـي عهد السلطان الظاهر بيبرس فراراً من الزحف المغولي. ولا تزال ثلاث مخطوطات من التـي كتبها ابن دانيال محفوظة حتـى وقتنا الحاضر وهي «طيف الخيـال» الموجـودة بدار الكتـب المصرية بالقاهـرة، و«عجيب غريـب» و«المتيـم والضائع اليتيـم» مع خلاف حـول نسبة هذه



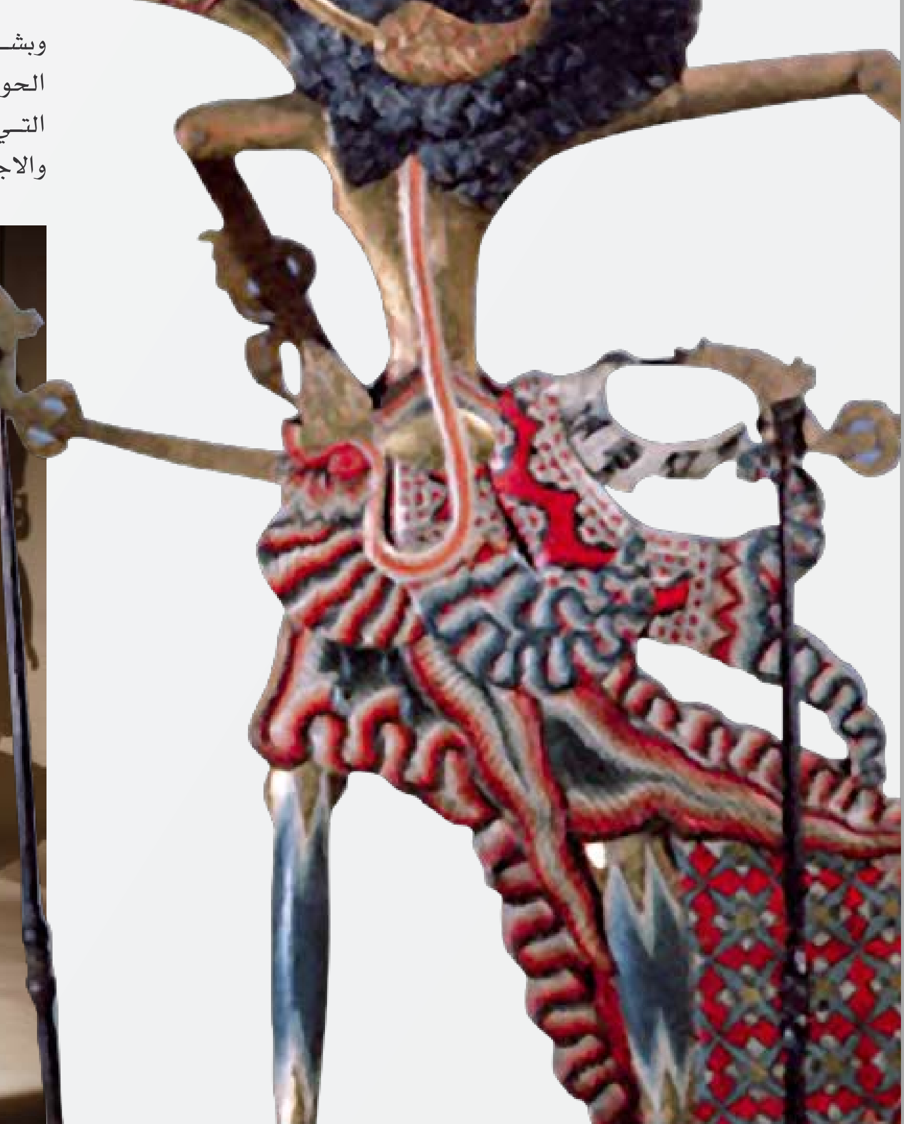
Corbis

الأخيرة إليه. كما بقيت بعض الدمى من بينها واحدة من العصر المملوكي محفوظة بالقسم الإسلامي في متحف برلين.

كان العصر العثماني هو العصر الذهبي لخيال الظل في الشرق الإسلامي. إذ أُعجب العثمانيون بفن خيال الظل فاستقدموا العديد من فنانيه من القاهرة إلى إسطنبول لإقامة عروضهم هناك. وانتشرت تلك العروض كذلك عبر العالم العربي واستمرت حتى بدايات القرن العشرين.

وفي ظل الثقافة التركية ظهرت كلمة «كراكوز» التي حرّفت إلى «أراكوز» واستخدمت عبر الامتداد العربي طوال قرون للإشارة إلى دمية الظل. وتقول الأسطورة إن كراكوز وعَيواظ كانا اسمين لرجلين حقيقيين عاشا في مدينة بورصة التركية في عهد السلطان أورخان، وعملا في مشروع لبناء مسجد بأمر منه. إلا أن الرجلين كانا كثيري الثرثرة والتهريج لدرجة أن حواراتهما الكوميدية المطوّلة قد شغلت بقية العمال تماماً وعطلت المشروع. وحين وصلت هذه الأنباء إلى السلطان أمر بشنقهما؛ لكنه سرعان ما ندم وأصيب بكآبة دفعت أحد رجال بلاطه إلى إنشاء شاشة في وسط القصر أخذ يرمي من خلفها بظل أحذية كراكوز وعيواظ مع مصاحبتها بالأصوات والحركات لمواساة السلطان!

وسواء كانت هذه القصة حقيقية أو متخيلة، تظل الشخصيتان الخياليتان كراكوز وعيواظ بالغتي التأثير في ثقافة ذلك العصر. إذ ان علينا أن نتنبه إلى أن مسرح الظل مثَّل في ذلك الوقت وسيلة الإعلام المرئي الوحيدة. وكان هذا المسرح من أهم وسائل الترفيه وقُدّم في المقاهي والساحات بل وحتى المناسبات الخاصة كحفلات الزواج والختان. لكن تأثير خيال الظل تجاوز الإطار الترفيهي. فكما كان مؤلفو تمثيليات خيال الظل يكتبون ويرتجلون لجمهورهم ما يخفف عنهم وطأة الحياة وبشكل عفوي بعيد عن تزويق الكتاب وخيالات الشعراء، فقد كانت الحوارات بين كراكوز الساذج وعيواظ الذكي حافلة أيضاً بالإسقاطات التي تساير نبض الشارع وتعبر عنه إزاء تطورات الأحداث السياسية والاجتماعية.. ما عرّض المؤلفين ولاعبي خيال الظل إلى الاضطهاد



Corbis

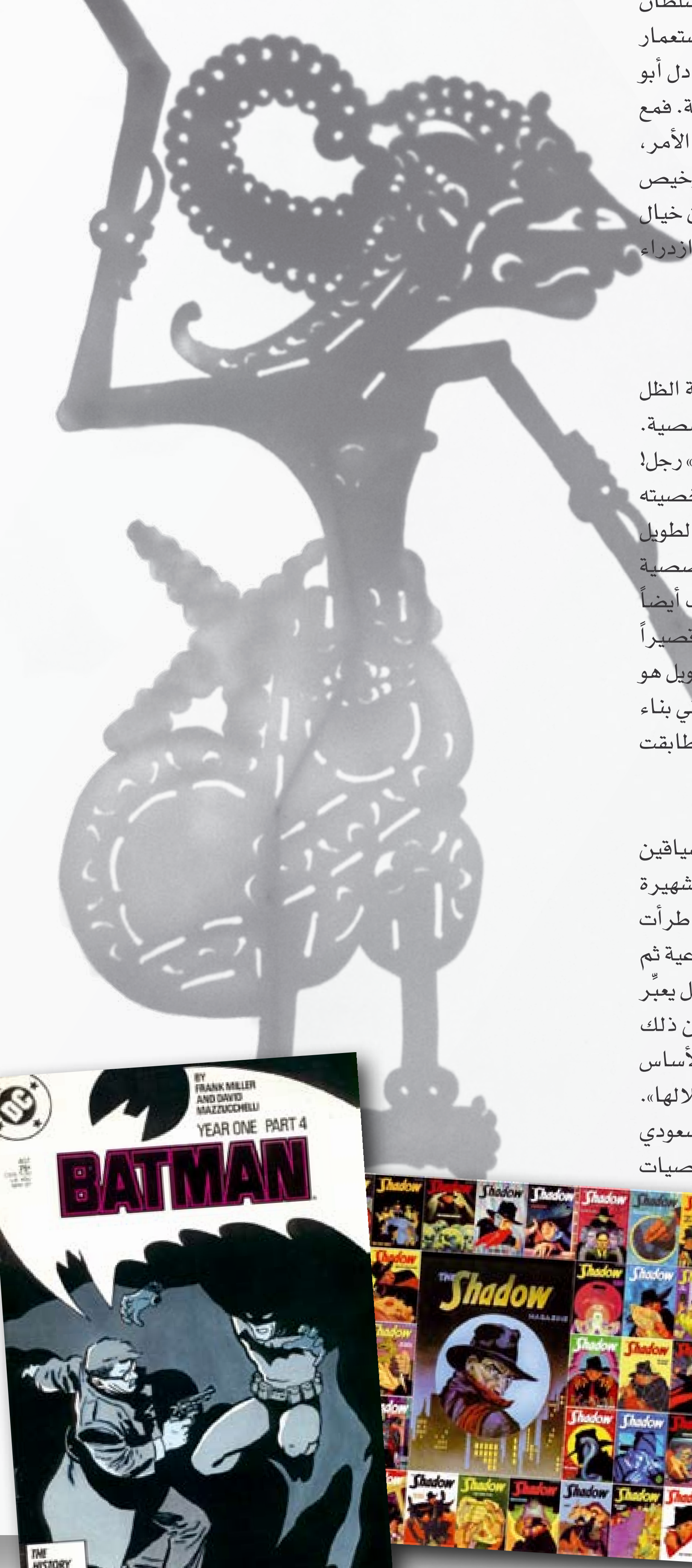
الدمى في مسرح الظل

والملاحقة من قبل الحكام. فقد أحرقت جميع شخوص خيال الظل بأمر من السلطان جقمق عام 1451م لتعرضها بالنقد إلى السلطان ونظام حكمه في مصر. كما أن السلطات الفرنسية بعد استعمار الجزائر منعت مسرحيات خيال الظل تماماً. وبحسب المؤرخ عادل أبو شنب، فقد ساير خيال الظل تقلبات الحياة الاجتماعية والفنية. فمع أنه لاقى من جانب الحكام والسلاطين حظوة وقبولاً في بادئ الأمر، إلا أن الإقبال الشعبي عليه ما لبث أن أرداه في مهاوي العبث الرخيص والبذاءة. حتى إن علية المجتمع وعقلاءه لم يكونوا يشاهدون خيال الظل إلا عندما يشعرون بالحاجة إلى التبذل! ومن هنا نشأ ازدراء تواريخ الأدب لهذا النوع من الأدب الشعبي.

الظل في الأدب المكتوب

مع تطور تقنيات السرد وظهور القصة والرواية ترسخت بطولة الظل كمقابل نظري للغموض والسوداوية في تركيبة الشخصية القصصية. كلنا نتذكر قصة «صاحب الظل الطويل» حول فتاة تغرم بـ «ظل» رجل! هي تحب الرجل وتقترن به في نهاية القصة، لكنها لا تعرف شخصيته الحقيقية إلا متأخراً جداً مع أنها تتعلق منذ بداية الأحداث بظله الطويل أو ذي الساقين الطويلتين المثير للإعجاب. وفي هذه الحبكة القصصية لفتة جديرة بالاعتبار. ذلك أن الظل وفي السياق العقلي هو مرادف أيضاً للشخصية الموازية أو الافتراضية. الرجل ربما كان في الأصل قصيراً وربما كان صبياً غير بالغ أصلاً. لكن الفتاة اقتنعت بأن الظل الطويل هو لرجل طويل.. ووسيم وثري أيضاً. الظل أتاح لها قالباً تسترسل في بناء خيالاتها عبره.. ومن حسن حظها فإن خيالاتها هي بالذات قد طابقت الواقع!

الظل يعبِّر إذاً عن الشخصية الافتراضية، وهو تعبير دارج في السياقين الشعبي والأدبي. ولعلنا نذكر أيضاً رواية «الرجل الذي فقد ظله» الشهيرة لفتحي غانم التي نشرت عام 1968م، وتناولت التغيرات التي طرأت على المجتمع المصري في تلك الفترة وكيف برزت شرائح اجتماعية ثم ما لبثت أن ذوت ولم يعد لها أثر. في ذات السياقات أيضاً فإن الظل يعبِّر عن الشخصية المهيمنة.. وكل ذلك في إطار السرية والخفاء. من ذلك التعبير «فلان يعيش في ظل والده». مثل هذه التعابير تستند في الأساس إلى كيانات عُليا مهيمنة وفائقة بحيث لا يسعنا إلا أن نقارب «ظلالها». هذه التيمة محورية في أعمال أدبية من قبيل «حكومة الظل» للسعودي منذر القباني، و«محاربو الظل» للأمريكي توم كلانسي، وفي شخصيات أساسية في ثقافة الصورة المعاصرة مثل «الرجل الوطواط» المعروف أيضاً بـ «فارس الظلام» الذي تطورت حبكته، كما أقر بوب كاين مبتكر الشخصية، متأثرة ببطل هزلي آخر حمل اسم «الظل» كمحارب غامض للجريمة مجهول الشخصية وذو قدرات فائقة، ظهرت بدءاً كمسلسل إذاعي أمريكي في ثلاثينيات القرن الماضي.



الظل.. جزء أساس من شخصيات رسوم الكرتون

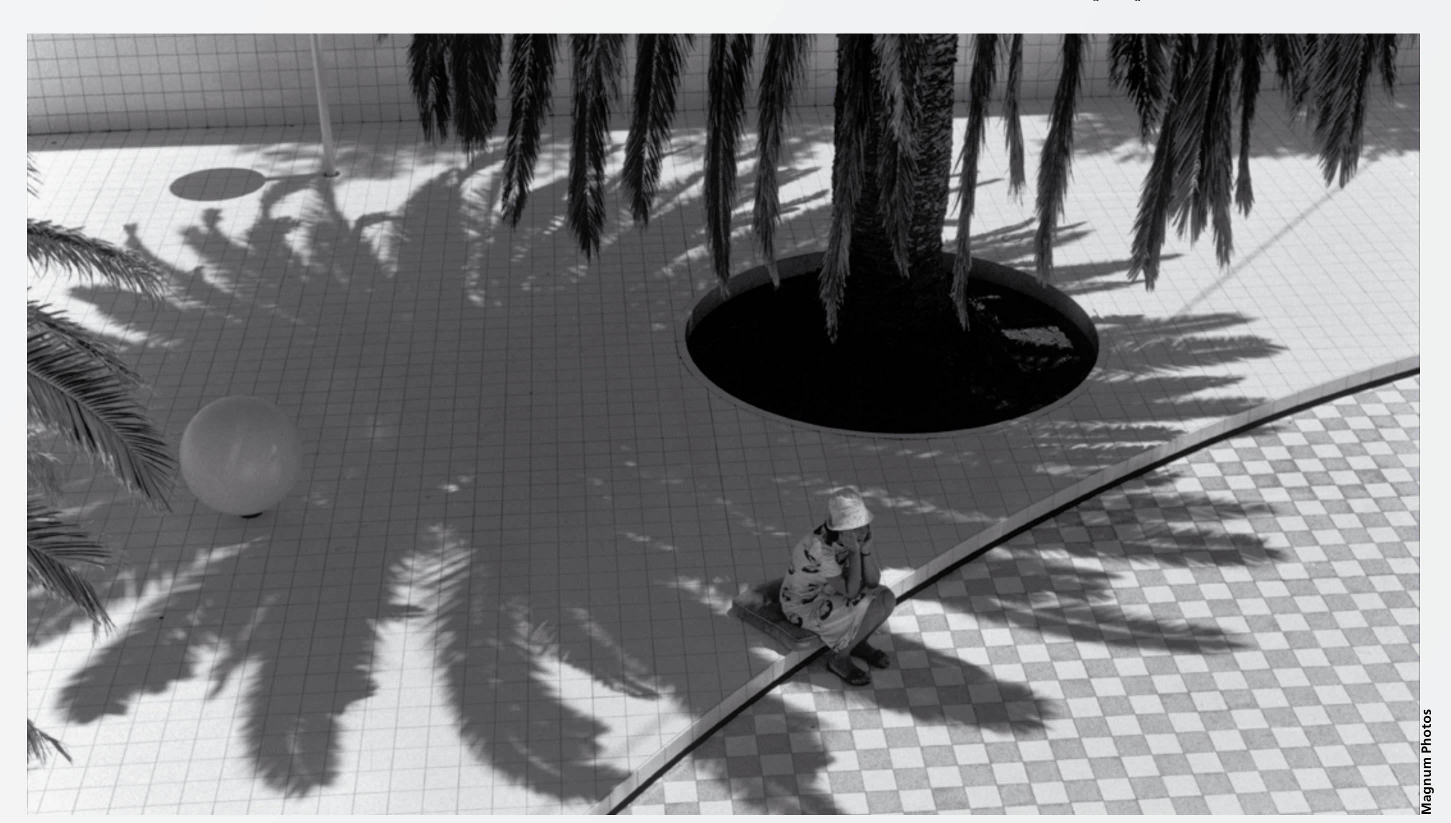
لوجهه المحبَّب اسم آخر «الفيء»

بخلاف النظرات المعقَّدة والمركَّبة التي نظرت فيها الثقافات والفنون إلى الظل، تتبسط نظرة الإنسان المتجول في مكان مشمس وحار إلى الظل ليصبح شيئاً جذَّاباً والحضور في كنفه أمراً مرغوباً. إنه «الفيء»، الاسم الآخر للظل الذي يقتصر في دلالاته على ما هو لطيف ومحبَّب إلى النفس التي أرهقها حر أشعة الشمس.

ولم يكتف الإنسان بالظلال التي توفرها له بيئته الطبيعية أو المدنية، بل عمد إلى صنع المظلة. هذه الأداة التي تستمد اسمها بالكامل من الظل نفسه. حتى في الإنجليزية فإن كلمة «Umbrella» مشتقة من «umbra» اللاتينية والتي تعني «الظل». إنها (أداة لتوليد الظل) وجودها متحقق به كما تؤكد تسميتها الأخرى: «الشمسية». إنها متواجدة حيث الشمس ساطعة ومحرقة.. وهي تقاوم هذه الشمس بنظيرها المضاد لها.. بالظل.

قد يجادل البعض بأن مظلته لا تظهر إلا في الأيام المطيرة.. لكن هذا ليس إلا تنويعاً آخر على مقام الظل. المظلة مسؤولة عن إيجاد مكان ظليل.. وجاف لحاملها. ولعله من المثير للاهتمام كيف أن للمظلة، وللحاجة إلى الظل عموماً تأثيراً واضحاً على الأزياء عبر العصور. فالقبعة وغطاء الرأس عموماً ليس إلا شكلاً آخر للمظلة.. بما في ذلك العمامة والغترة العربية. وأغطية الرأس هذه كلها، كما الأزياء، تطوَّرت لتخدم أغراضاً جمالية واجتماعية متنوعة. إلا أن دورها الوظيفي في حماية رأس مرتديها واضحة. ويتجلى ذلك في المناطق حيث يشكِّل التعرض المباشر للشمس خطراً محتملاً، والتي يندرج النطاق العربي تحت بندها. وبالوصول إلى البيئة الصحراوية فإننا نستحضر أيضاً قيمة معنوية أخرى للظل في الوعي الجمعي لسكان هذه البيئة. فبالرغم من أن الظل، وكما أسلفنا سابقاً، يرمز إلى الغموض والمجهول وللخطر الخفي المتربص، إلا أنه في عقلية ابن الصحراء بالذات يبرز كرديف للحياة وللنجاة.

الظل في الصحراء القاحلة المنبسطة التي تصليها الشمس بلا رحمة لا يتوافر إلا في جوف كثيب رملي لا تلبث الرياح أن تزحزحه، أو حيث الشجر.. حيث الماء بلغة أخرى. للظل إذاً قيمة قيِّمة حيوية في حضارة الصحراء. من البديهي أن نلاحظ كيف توالدت حواضر الصحراء التقليدية حيث مقومات الظل الطبيعي: الماء والشجر، وكيف واصلت هذه في تدعيم رصيدها من هذا الظل عبر اعتماد طرز معمارية قائمة على المساحات والأفنية الداخلية المزروعة والهياكل المسقوفة في المنازل وحتى في الأسواق على حد سواء. ولعله من المثير للاهتمام أن نلاحظ أيضاً كيف تحوَّل الظل إلى قيمة ترغيبية ورمز للمكافأة في هذا الإطار كما يتجلى مثلاً في القرآن الكريم الذي يَعِد بالظل الوارف ضمن نعيم الجنة، بل ويستخدم الصيغة التوكيدية في وصفه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ سورة النساء.



Magnum Photos



القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يناير - فبراير 2009
المجلد 58 العدد 1

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com

